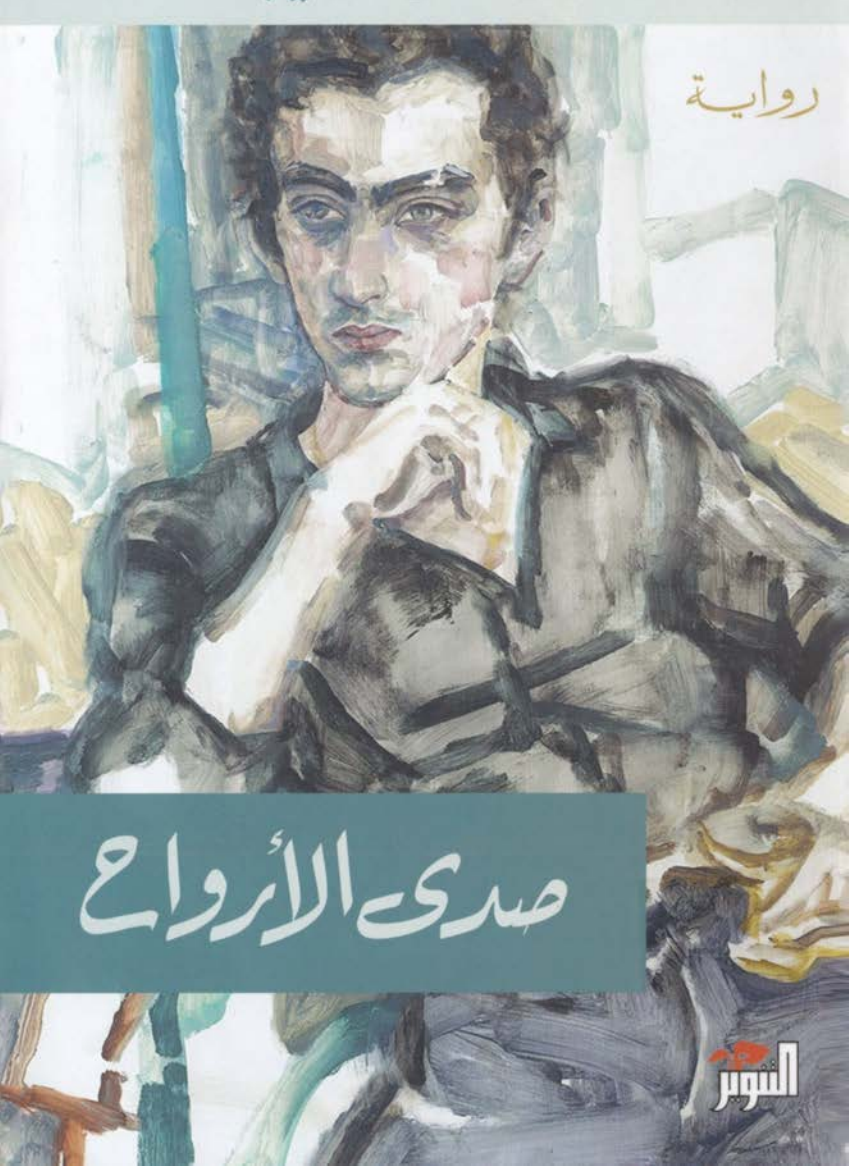
عبد الخالق كلاليب



عبدالخالق كلاليب

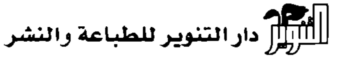
صدى الأرواح

الكتاب: صدى الأرواح (رواية)
تأليف: عبدالخالق كلاليب
عدد الصفحات: 288 صفحة

الترقيم الدولي: 978-614-472-024-0

الطبعة الأولى: 2018

الناشر



لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية قاسم فارس (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

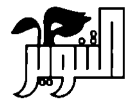
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

عبدالخالق كلاليب

صدى الأرواح

رواية



إلــى منـــال

- تنويـه -

إن الحوادث والوقائع والشخصيات والأسماء، وبعض الأماكن الواردة في هذه الرواية، خياليّة تماماً ولا علاقة لها بالواقع، وإن أي تشابه هو من قبيل الصدفة المحض وغير مقصود على الإطلاق... فاقتضى التنويه.

تحت تلك النجوم... هناك كونٌ من الوحوش المتدافعة.

– هيرمان ميلفيل –

– 1 –

كانت لحظة فارقة في حياتي عندما عثرت على تلك الحقيبة الجلد القديمة والمهترئة. كانت انعطافة حادّة ومفاجئة في طريق حياة كانت تعاني أصلًا من وحشةٍ باردة. سأدرك في ما بعد أن تلك الدفاتر القديمة في تلك الحقيبة ستغيّر نمط حياتي. تلك الحياة التي تحفل كما غيرها من الحيوات بالمنعطفات التي قد تكون غير متوقعة وخطيرة أحياناً. فكّرت بهذا، أدركت وبشيء من الخوف صحته عندما كنت أقرأ، ببعض الاستعجال، في تلك الدفاتر. كانت ليلة استثنائية، ليلة لقائي الأول بذلك الشاب التعِس، حامد ابراهيم.

عند تباشير الفجر نهضت وذهبت إلى المطبخ لأحضّر القهوة، كانت الركوة الكبيرة الخامسة منذ مغيب اليوم السابق. حملت الركوة والفنجان وجلست وراء مكتبي في عيادتي حيث أمضيت الليل. الحقيبة مفتوحة ومرمية على الأرض إلى جانبي، والدفاتر مبعثرة أمامي على سطح المكتب الواسع. ما زال مصباح القراءة الموضوع إلى يساري على زاوية المكتب مضاءً، كنت قد أطفأت بقية أضواء العيادة قبل أن أجلس. رشفت رشفة من القهوة الساخنة وأشعلت سيجارة. ما زلت

أشعر ببعض الدوار، ففي تلك الليلة عشت في زمنين يفصل بينهما أكثر من عشرين عاماً. أجلس في عيادتي التي تحتل جزءاً من منزلي في الأيام الأولى من عام 1984، وأمامي الأوراق التي جعلتني أعيش في أواخر الخمسينات وبداية الستينات. لم أكن قد أكملت قراءة الدفاتر كلها وأنا أصبّ الفنجان الثاني وأشعل سيجارة جديدة، لكن كنت منجذبًا إلى حد أنني سأعيش مشغولاً بين هذين الزمنين وقتاً طويلاً لا أعلم متى سينتهي.

مددت يدي وأطفأت مصباح القراءة. كان ضوء الفجر الشاحب ينير الأشياء بخجل. في تلك العتمة الضئيلة بدت الستائر ذات اللون البرتقالي وكأنها بلون أمغر، والجدران بلون الكريما الفاتحة بدت داكنة أيضاً. ما زالت رائحة الطلاء الجديد متشبّثة بهواء المنزل والعيادة رغم الوقت الطويل الذي مضى على الطلاء.

شعرت بالبرد، فقد كنت أطفأت المدفأة بعد منتصف الليل بقليل عندما عدت من المطبخ حاملاً ركوة القهوة الثالثة، ووجدت أن غرفة العيادة أصبحت دافئة جداً. ولكنه كانون الثاني ببرده القارس. كان صوت المطر الذي أخذ ينهمر بقوة في تلك اللحظات يذكّرني بأننا في عزّ الشتاء. ومضتْ في ذهني ذكرى قديمة نائمة مثل برق مفاجئ أنار وللحظة خاطفة غرفة معتمة مليئة بالأشياء المكدّسة والظلال المتراكمة. مات حامد ابراهيم في عزّ الشتاء في شهر كانون الثاني، وتذكّرت أنني سمعت بهذا الاسم لأول مرة منذ اثنتين وعشرين سنة! وتذكرت فريد ابن عمّي... زمن طويل، ولكن الدماغ له أساليبه وألعابه بعد كل شيء. الدماغ البشريّ المذهل الذي ما زال يدهشني كلما تعمّقت في دراسته وفي محاولة سبر أغواره.

عندما قلت لوالدي خلال جلسة هادئة جمعتني معه منذ اثني عشر عاماً، وبعد أيام قليلة من تخرّجي في كلية الطب، إنني أرغب بالسفر إلى أوروبا للتخصّص بالطب النفسي عارضني في البداية، ثم اقتنع

برأيي وقناعاتي ورغبتي. ولكن والدتي ظلّت غير مقتنعة بما اخترته مساراً لحياتي، حتى بعد عودتي من فرنسا وافتتاحي لعيادتي الجديدة مكان العيادة القديمة لوالدي الذي اعتزل ممارسة الطب. بل بقيت بين الحين والآخر تعبّر عن أمنياتها المجهضة. «كنت أحلم بأن أرى اسمك على لافتة العيادة متبوعاً بصفة جرّاح قلب أو جرّاح أعصاب، ولكن ماشي الحال، اختصاصك هذا جيّد أيضاً». تقول الجملة الأخيرة كي لا تزعجني؛ فأبتسم لها وأقول: «ماما... أنا سعيد بما اخترته عن قناعة ورغبة». تبتسم بمحبة وتقول: «تقبرني يا عادل، المهمّ إنك سعيد وراضٍ». لم تعد تقول لي ذلك الآن. ماتت منذ سنتين، وسبقها والدي قبلها بسنتين. مات والدي في السنة نفسها التي عدت فيها من أوروبا، مات بعد عودتي ببضعة أشهر، ولكن بعد أن أسعفه الحظ والعمر بأن يرى والسعادة تغمره لافتة العيادة الجديدة لابنه الوحيد: {**الدكتور عادل فاروق شكري - اختصاصي بالأمراض النفسية والطب النفسي**}. رآها وهي معلّقة في المكان ذاته المنزوي في أحد شوارع جورة الشيّاح الضيّقة حيث كانت لافتته هو، الدكتور فاروق شكري، معلّقة طوال أكثر من أربعين عاماً، عمل فيها طبيباً ممارساً غير متخصّص، ولكنه بارع وحاذق ومشهور. تلك العيادة، التي وبتصرّف غاضب كمن يقطع مع ماضيه، أغلقتها وبعتها كما بعت الفيلّا التي عشت فيها عمري كله واشتريت هذا المنزل القديم الذي رمّمته وحوّلته إلى منزل وعيادة في آنٍ معاً... وقد كانت لديّ أسبابي لأفعل ذلك.

ما زال الضوء شحيحاً في الغرفة. الغيوم السوداء تملأ سماء مدينة حمص، والمطر لا يزال ينهمر. لم أشعل أيّ ضوء. رشفت الرشفة الأخيرة من الفنجان الرابع وأجهزت على الركوة الخامسة. كانت علبة التبغ قد فرغت أيضاً. نهضت متثاقلاً ومتعباً وفتحت النافذة المطلة على الحديقة. دخلت نسائم باردة جداً، وازداد صوت هطول المطر ارتفاعاً.

يجب أن أنام. هذا ما فكّرت فيه ولكنني لم أكن أنوي أن أفعل. كنت أنتظر أن تصير الساعة الثامنة صباحاً كي أستطيع التحدث هاتفياً مع ابن عمّي فريد. أتوقّع أن أجد بعض الإجابات عنده، ولكنني لا أريد إزعاجه مبكراً جداً.

فريد العشّي، ليس ابن عمّي المباشر في الحقيقة، بل هو أحد أبناء عمومة والدتي، ويكبرني بستة عشر عاماً، ولكنه ومنذ صغري يناديني بابن العمّ.

جاء صوته الهادر مفعَماً بالنشاط: «آلو... من معي؟».

«صباح الخير فريد، أريد أن أراك».

اكتسى صوت فريد بجدّية واضحة: «خير يابن العمّ؟!».

قلت بسرعة: «فقط أريد أن أسألك عن موضوع مهمٍّ، ولكن لا شيء خطيرٌ».

تنهّد فريد بارتياح وقال: «تعال إلى المكتب قبل التاسعة بقليل، أراك قبل ذهابي إلى السرايا».

قلت له: حسناً، وأغلقت السمّاعة. في حمص يطلقون على القصر العدلي الذي يضمّ مجمّع المحاكم اسم السرايا، وهو مبنى قديم وكبير من طابقين بناه الفرنسيون في مركز المدينة، ويضم المحاكم كلها والكاتب بالعدل والنيابة العامة، ويوجد في قسمه المطلّ على ساحة الساعة الجديدة مقرّ المحافظ ومبنى المحافظة.كان مكتب المحاماة الخاص بابن عمي المحامي فريد العشّي يقع في أحد الأزقة المتفرّعة من شارع الدبلان القريب من المكان.

من الطبيعي أن ينشغل بال فريد عندما أتصل به مبكراً في الثامنة صباحاً، في هذا اليوم البارد والممطر، وأقول له إنني أريد مقابلته، بلهجة أدركت بعد أن أغلقت السماعة أنها كانت جدّية أكثر من اللازم، فقد

مرت البلاد بسنوات صعبة. صحيح أن الأزمة قد انتهت والبلاد بدأت تعود إلى الحياة الطبيعية تدريجياً، ولكن النفوس ما زالت قلقة.

أمضيت الساعة التالية في الاستحمام والاستعداد للخروج. استحممت بماء فاتر أقرب إلى البرودة، فقد اعتدت على الاستحمام بالماء البارد صيفاً وشتاءً أثناء إقامتي في باريس عندما كنت أتخصّص هناك. الماء البارد ينشّط الجسم والدماغ أيضاً. هذا ما كان يقوله أستاذي البروفيسور برنار جوفيه دائماً، والذي تعلّمت منه الكثير. حلقت ذقني ثم جفّفت شعري وجسدي بتأنٍ، وبدأت بارتداء ملابسي على مهل. تناولت من خزانتي ثياباً صوفية داخلية لألبسها فوق الثياب الداخلية القطنية. فإذا كنت أريد أن أظهر دائماً بمظهري الذي أحب، بزّة رسمية وربطة عنق من دون كنزة صوف فوق القميص لم أكن أطيقها كما لم أكن أطيق اللباس اليومي غير الرسمي المسمى كاجوال فعليَّ أن ألبس تحت القميص ثياباً صوفية تدفئني. اخترت أن ألبس لهذا اليوم بزّةً رماديةً داكنة من الجوخ الثقيل، وقميصاً أبيض، وربطة العنق السوداء المخطّطة بخطوط مائلة، رفيعة، زرقاء، غامقة، متناوبة مع خطوط فاتحة بلون سماء الصيف الباهتة. بعد أن وضعت قليلاً من عطري المفضّل غادرت غرفة نومي، وأخرجت حذائي الأسود الملمّع جيداً من خزانة الأحذية بجانب باب المنزل وانتعلته، ثم تناولت معطفي الجوخ الأسود السابغ المعلّق على المشجب وارتديته وخرجت من المنزل.

أوقفت سيارتي المرسيدس - بنز 190 البيضاء في الشارع الموازي لشارع الدبلان. ما زالت السيارة بحال جيدة وتعمل بشكل ممتاز، رغم أن عمرها تجاوز العشرين عاماً. اشتراها والدي في عام 1963، سنة صنع هذا الطراز. أتذكر أول مرة ركبت فيها إلى جواره، وشممت رائحة جلد المقاعد النفّاذة، الرائحة المميّزة لسيارة جديدة. لا أنسى تلك الرائحة أبداً. كنت في الخامسة عشرة من عمري، ورغم حزني على فراق السيارة

السابقة التي باعها أبي من نوع فورد والتي تعلمت السواقة أمام مقودها الرفيع إلا أن فرحي بالسيارة الجديدة البيضاء فاق حزن فراق تلك القديمة. فورد أبو دعسة، هكذا كان الناس هنا يطلقون على ذلك الطراز من سيارات فورد المصنوعة في الثلاثينات، لأن ذلك الطراز كانت له مرقاة عريضة تحت حافة الأبواب الجانبية يستطيع رجل بالغ الوقوف عليها. كانت السيارة القديمة سوداء اللون، وهيكلها خطوطه منحنية ومستديرة، حتى إني كنت أطلق عليها اسم المطبلجة! لم أعد أرى منها الآن ولا واحدة على الرغم من كثرة السيارات العتيقة التي تملأ الشوارع.

دخلت في زقاق فرعيّ يصل الشارع الذي توقفت فيه بشارع الدبلان، وفي منتصفه ولجت مدخل بناء قديم يوجد في طابقه الأول مكتب المحامي فريد العشّي. وقفت لحظة أمام الباب الخشب المفتوح، تنفّست بعمق، ثم دخلت.

- 2 -

عندما خرجت من منزلي كان المطر قد توقف عن الهطول، ولكنه الآن، وفيما أنا أتجه صوب سيارتي، عاد ليهطل بقوة. تبلّل شعري ومعطفي ولكني لم أهتم. جلست في سيارتي أمام المقود، وكنت أفكر محدّقاً في بخار الماء المتجمّع على الزجاج الأمامي للسيارة من الداخل، وفي قطرات الماء المنهمرة عليه من الخارج مشكّلةً جداول تنساب بسرعة وتعكّر الرؤية. صوت قرع حبات المطر على سقف السيارة هدهدني وجعلني أنعس وأتذكر أني لم أنم طيلة الليل. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً وعليّ أن أعود إلى العيادة بسرعة، لم أعثر على سكرتيرة أو ممرضة مناسبة كي تعمل عندي في العيادة حتى الآن. وكان فريد وعدني سابقاً بأن يبحث لي عن سكرتيرة... أحسست بحرقة في عينيَّ وصداع يشمل رأسي كله، فهمست بصوت مسموع: «النعاس يتحوّل إلى الشراسة!». وتعجّبت من استخدامي مفردة شراسة لوصف النعاس. شعرت بأن معدتي تؤلمني، وتذكرت أنه لم يدخلها منذ غداء اليوم السابق سوى القهوة.

استقبلني فريد بوجه باسم وبعض القلق في عينيه: «خير؟ شغلتَ

بالي!». أجبته وأنا أجلس على أحد مقعدي الجلد الوثيرين أمام مكتبه: «لا شيء خطيرًا، فلا تقلق».

اتسعت ابتسامة فريد وهو يجلس أمامي على المقعد المقابل: «في عقل المحامي كل شيء خطير!». بادلته الابتسام فيما كانت فريال، سكرتيرة فريد، تضع أمامنا على الطاولة الصغيرة الواطئة فنجانين من القهوة. بعد خروجها قال: «على فكرة، بنت أخت فريال تبحث عن عمل، وهي تدرس في الجامعة، وعمرها عشرون سنة، وتريد أن تعمل وتدرس كي تساعد أسرتها، هل تناسبك من أجل عمل العيادة؟».

رشفت رشفة من فنجان القهوة الساخنة وأجبت: «أقابلها أولًا، وأحكم عليها بعد ذلك». مدّ فريد يده عبر سطح المكتب الواسع وتناول علبة تبغ «مارلبورو» فتحها وضيّفني سيجارة، وأخذ واحدة لنفسه. أشعل السيجارتين بقدّاحته «الرونسون» الزرقاء، ثم رشف رشفة ذات صوت من فنجانه وعاد بظهره إلى الوراء، وقال: «والآن ألن تخبرني كيف خطرت على بالك في ذلك الوقت المبكر من هذا الصباح البارد؟».

ابتسمت: «أنت في البال دوماً يابن العم». رشفت رشفة من القهوة ونظرت نحوه ثم قلت: «هل تتذكّر حامد ابراهيم؟».

ضيّق فريد عينيه الصغيرتين متمتماً وهو يحاول التذكر: «حامد ابراهيم؟... حامد ابراهيم؟». نظر في عينيّ وسأل بصوت حائر: «من حامد ابراهيم؟».

قلت بهدوء: «كان ضحية جريمة قتل منذ اثنين وعشرين عاماً وكنت أنت محامي الدفاع عن المتهم بقتله».

أشرق وجه فريد وقد تذكّر، فهتف: «ذلك الشاب؟ أجل، تذكرته، اسمه سعيد ولكني نسيت اسم العائلة، لم أتمكن من الدفاع عنه فالقضية لم تصل إلى المحكمة، فقد مات قبل أن تُجرى المحاكمة، ولكنه اعتُبر القاتل وأُقفلت القضية».

« تذكّرتُ ذلك كلّه هذا الصباح».

تساءل فريد: «وما ذكّرك به، أو... بهما الآن؟!».

«منذ مساء البارحة وأنا أحاول أن أتذكّر أين سمعت هذا الاسم وبعد ساعات تذكرته فجأة، لقد سمعته منك أنت عندما كنتُ في الرابعة عشرة من عمري، فقد حكيتَ عن الأمر لوالدي في إحدى زياراتك لنا وكنتُ آنذاك موجوداً، على فكرة اسم المتهم سعيد زنزن».

«زنزن... صحيح! كنية غريبة وما كان يجب أن أنساها، ولكن، ما الأمر الآن؟ لقد أثرتَ فضولي!».

«منزلي الجديد الذي أسكن فيه حالياً».

«ما به؟!».

«إنه المنزل الذي عاش وقُتل فيه حامد ابراهيم».

«ماذا؟!».

«مساء البارحة عثرت بالصدفة في القبو على بعض الأوراق، مجموعة من الدفاتر تخص حامد، وقد ذكر فيها اسمه بجلاء ومن دون لبس، وأنه هو من كتب فيها».

«وماذا وجدت في تلك الدفاتر؟».

«شيئاً من يومياته ومذكراته».

«وماذا يهمّك من ذلك؟».

لم أجبه بل سألته: «دعني أسألك، كيف صرتَ محامياً عن المتهم سعيد زنزن؟».

استحثّ فريد ذاكرته. مجّ نفساً عميقاً من سيجارته ورشف رشفة كبيرة من قهوته، ثم قال: «وكّلني والده، فقد كان سعيد في المستشفى غائباً عن الوعي مهشّم الجسد وعظامه مكسورة في أكثر من موضع، والأخطر كسور جمجمته، رمى بنفسه من على سطح منزله محاولاً الانتحار عندما

أتى رجال الشرطة لإلقاء القبض عليه، وكان ذلك صباح ليلة الجريمة، وكان هو المتهم الوحيد، كان هو وحامد صديقين تعرّفا على بعضهما في مستشفى الأمراض النفسية، حينما كانا نزيلين فيها في الوقت نفسه في العام السابق، وخرجا منها في أوقات متقاربة وبقيا صديقين. كان والده مقتنعاً ببراءة ابنه ويأمل أن ينجو من إصاباته، ولكنها كانت قضية شائكة وصعبة ولا أعلم لماذا قبلت تلك القضية!».

«كنتَ محامياً شاباً في ذلك الوقت».

ضحك فريد بقوة: «تقصد أنني كنتُ غرّاً قليل الخبرة آنذاك!».

«لا... لا تفهمني غلط، أقصد...».

قاطعني فريد ضاحكاً: «كنت أمزح معك، المهم أنني قبلتُ القضية، ولم أكد أبدأ بالتحضير لها حتى مات سعيد في المستشفى بعد ثلاثة أيام، ولم يستيقظ من سباته قط، ولكني أذكر أنه صحا لفترة وجيزة وتكلّم بضع كلمات، وسمعته ممرضة كانت تعتني به آنذاك، وكانت لوحدها معه في الغرفة، ثم مات بعدها مباشرةً، ونقلت تلك الممرضة ما سمعته منه لي، وأذكر أنها كانت كلمات لا معنى لها، مجرّد هذيان شخص يلفظ أنفاسه الأخيرة، في الحقيقة لم يستعد وعيه فعلياً قطّ، وطُويت القضية وتمّ اعتباره القاتل، فالأدلّة والقرائن ضده كانت كثيرة، وأعتقد بأنه كان القاتل فعلاً».

«هذا بالضبط ما دفعني إلى لقائك اليوم».

سكتُّ قليلاً، فاستحثّني فريد: «كلّي آذان صاغية!».

نظرت في عينيه وقلت:»لا أعتقد بأنه القاتل!».

تساءل بفضول: «ولماذا تعتقد بأنه ليس القاتل؟».

قلت بهدوء: «حامد ذكر سعيدًا كثيراً في دفاتره التي كتبها كيوميات، أو ما شابه، فقد كان صديقه المقرّب الوحيد».

«هذا لا ينفي بالضرورة أن يكون القاتل، بعض الناس يقتلون أخوتهم!».

«أعلم طبعاً، ولكن هذه القناعة بدأت تتشكّل عندي بعد أن قرأت بعض اليوميات. أتكلّم من وجهة نظر طبيب نفسي، لا أظن أن سعيدًا هو القاتل وبدا هذا واضحاً لي بعد قراءة قسم من الدفاتر».

«هات ما وجدته، فأقرأه وأحكم عليه».

«في ما بعد، أريد أن أكمل قراءة الدفاتر بنفسي».

«ولماذا يا حكيم؟!». كانت لهجته تحمل بعض التهكّم. لم أهتم بذلك. فريد يحبني كأخٍ أصغر له. لا بأس بشيء من التهكّم.

قلت بهدوء: «لا أريد أن أشغلك بأمر قد أكون مخطئاً فيه، الموضوع قديم، دعني أكمل ما بدأت، ثم أخبرك بذلك».

لم يبدُ فريد مقتنعاً تماماً، ولكنه قال مع ذلك وهو يهزّ كتفيه: «كما تريد».

– 3 –

لم تكد الساعة تتجاوز الواحدة ظهراً حتى قمت من وراء مكتب عيادتي، ودلفت إلى غرفة الانتظار، وأغلقت باب العيادة الخارجي المطلّ على درج البناء الموصل إلى الشارع. عدت إلى العيادة، ودخلت من الباب الفاصل بينها وبين بهو المنزل. أغلقت الباب واتجهت صوب المطبخ.

لم يراجعني أيّ مريض هذا اليوم، فأمضيت الساعات القليلة بالقراءة في ما وجدته في تلك الحقيبة الجلدية القديمة، والتي كنت أشعر وبشكل غامض كلما تقدّمت في قراءة ما تحتويه أنها تجتذبني أكثر كطبيب وكإنسان.

لم أكن قد أكلت شيئاً منذ غداء اليوم السابق، أخرجت من الثلاجة كيس بلاستيك يحوي شرائح من لحم العجل، فصلت شريحتين ووضعتهما في مقلاة مع قليل من الزبدة على نار هادئة، وفيما كنت أفرم البندورة والملفوف من أجل السلطة، كان عقلي يستعيد كل ما مرّ معي في الساعات الغريبة الماضية.

ثم إني أضفت للسلطة قليلاً من الثوم المهروس وملعقة من الخلّ

وملعقة من زيت الزيتون ورشّة من الملح. لم أجد ليموناً في السوق. كنت مررت ببائع الخضار قرب ساحة الحاج عاطف القريبة من بيتي قبل أن أعود إلى المنزل، قال لي البائع إنه لا يوجد ليمون ولا خيار، وذكر لي أنه يوجد في الأسواق ليمونٌ يأتي تهريباً من لبنان ولكنه لا يتعاطى بالمهرّبات. قال لي ضاحكاً: «دبّر حالك بالخلّ يا دكتور». ابتسمت. وفيما كنت أركب سيارتي كنت أفكر، هل توقّفنا عن زراعة الليمون؟!

تناولت غدائي بصمت في غرفة الجلوس، كانت الكهرباء مقطوعة، التقنين اليومي، وقد لا تعود الكهرباء حتى المساء. لم أشعل المدفأة، اكتفيت بخلْع الحذاء وانتعال خفٍّ منزلي، وخلعت المعطف والسترة وارتديت «روب دي شامبر» شتويًّا بنيّ اللون فوق ثيابي وجلست لأتناول طعامي. أكلت على مهل شريحتَيْ اللحم وطبق السلطة وشربت كأساً من الماء. بعد أن فرغت من الطعام أشعلت سيجارة وغرقت في أفكاري وأنا جالس على الأريكة أمام الطاولة الصغيرة في غرفة الجلوس الباردة، ثم إنني نهضت واتجهت إلى المطبخ، وضعت الأطباق الفارغة في حوض غسيل الصحون، ثم حضّرت إبريقاً صغيراً من الشاي حملته مع كأس صغيرة ودخلت غرفة العيادة. الستائر مفتوحة، وضوء الظهيرة البارد يبدو شاحباً بسبب الغيوم الكثيفة، ورائحة تراب الحديقة المبلّل بماء المطر تتسلّل إلى الغرفة الباردة. دخّنت سيجارة مع كأس من الشاي ثم صببت الكأس الثانية، وفتحت الدفتر الأول أعيد القراءة. هذه الصفحات كنت قد قرأتها بسرعة الليلة الماضية وعدت لأقرأها الآن بتمهّل وتمعّن.

كنت طبيباً نفسياً يقرأ ما كتبه مريض نفسي قبل أن يموت، وعليّ أن أقرأ بموضوعية واحترافية مهنية، هذا ما دار في خلدي وأنا أمرّ بعينيّ على السطور الأولى.

- 4 -

التدوينات (1)

أنا حامد إبراهيم، أبدأ بكتابة هذه الصفحات بعد ظهيرة يوم السبت الموافق 11/ 11/ 1961.

لم أكتب يوميات قبل الآن قطّ، لذلك لن أطلق على هذه الأوراق اسم يوميات، فلم أكن مهتماً يوماً بتوثيق حياة بائسة لا معنى لها. الآن اختلف كل شيء. الحياة بائسة وزائلة، أدرك ذلك. كم يوجد من النرجسية والغرور في فعل تافه ويوميّ مثل كتابة يوميات تافهة؟ يظن الناس بأنهم أشياء مهمة، البشر ليسوا أشياء، الإنسان ليس شيئاً، هذا صحيح، ولكن أن يظن شخص ما نفسه مهماً إلى درجة توثيق تفاهات حياته فذلك يدعو لأن يتحوّل إلى مجرد شيء، هذا يدعو للرثاء حقّاً.

ولكن كل شيء اختلف عندما رأيتها. صحيح أني لم أبدأ الكتابة بعدها مباشرةً والفارق بين الزمنين - زمن الرؤية وزمن الكتابة - كبير ولكن يجدر بي حقيقةً أن أؤرّخ لحياتي منذ أن رأيتها، أو... هل أقول عندما أحببتها؟ وهل ثمّة فرق؟ بالنسبة إليَّ لا يوجد فرق، أنا واثق من

هذا، الأمر لا يحتاج إلى تفكير أو إمعان نظر أو فلسفة، أنا واثق وكفى، أحببت أمل في اللحظة ذاتها التي رأيتها فيها، نقطة انتهى.

عندما قلت لها ذلك لم تصدق، قالت وابتسامة صغيرة خلّابة على شفتيها: «أنا لا أؤمن بالحب من النظرة الأولى». سألتها وأنا غارق في بحر عينيها الرائعتين: «متى أحببتني إذًا؟». أجابت: «عندما رأيتك في المرة الثانية»، وانفجرتْ بالضحك، تلك الضحكة الرائعة الصافية كخرير ينبوع بارد ورائق. تحب المزاح على عكسي أنا. تابعتْ بصوتها العذب وبحّته المدهشة التي تمنحه الطابع الملائكي، وبعد أن لملمتْ ضحكتها: «أحببتك بعد أن رأيتك كثيراً، وبعد أن تعارفنا، وببطء، وربما بعد أن عرفتك على حقيقتك الجميلة».

أبتسم وأنا أكتب هذا الآن، حقيقتي؟ وما هي حقيقتي؟ وحقيقتي الجميلة؟! هل تدعو للحب حقّاً؟! المهم أنها أحبتني وهذا ما يهمني في الحقيقة.

هل هذه يوميات حقّاً؟ بالتأكيد لا. هل هي شيء يشبه مذكرات أو ذكريات؟ ليست كذلك أيضاً، سأطلق عليها اسم تدوينات، هذا مقبول ويعجبني بعض الشيء.

أبدأ بكتابة هذه التدوينات، والتي تضم يوميات وذكريات وأشياء أخرى مرفوعة من بئر الذاكرة بدلو من العذاب - كم أن هذه الجملة ميلودرامية وبائسة، وهذا التشبيه مبتذل، ولكني لن أشطبها فذلك أمر متعب حقّاً- بعد خروجي من مخبأي وبعد وفاة جدّتي الغالية.

ماتت جدّتي منذ شهر وبضعة أيام. ما زال الحزن يسكنني، كانت الإنسان الوحيد الذي أحبّه حقّاً، ثم دخلت أمل حياتي فصارا شخصين، وفي مخبأي تعرفت على سعيد فصاروا ثلاثة. أندهش عندما أفكر أنني لم أحبّ في حياتي سوى ثلاثة أشخاص، جدّة وحبيبة وصديق!... يا لبؤس الحياة!

– 5 –

وجدت أن من الغرابة بعض الشيء أن يعنون حامد ما كتبه بذلك العنوان: التدوينات. وهو لم يحدّد تاريخاً للأيام التي يكتب فيها. حدد يوم البداية فقط، كما أنه لم يتقيّد بتسلسل زمني في ما يكتبه من حوادث وحكايات وآراء وأقوال يختلط بعضها ببعض، يتقدّم ويتأخّر في الزمن بشكل عشوائي وغير محدّد، يمزج ماضيه وحاضره في التدوينة الواحدة، وربما في الصفحة نفسها. الشيء الواضح الذي قام به هو أنه فصل التدوينات. فعندما ينتهي من الكتابة يترك بقية الصفحة فارغة، وعندما يكتب من جديد فهو يبدأ بصفحة جديدة. كان هذا هو الأمر الوحيد الذي فعله كي تصبح صفحاته وكلماته مفهومة بعض الشيء، عدا أنه جعل للدفاتر أرقاماً وصنّفها: الدفتر الأول، الدفتر الثاني، الدفتر الثالث. هذا هو التسلسل المنطقي الوحيد الذي وجدته في ما أقرأ.

تركت الدفتر الأول من يدي وأشعلت سيجارة جديدة، أحسست بنعاس شديد، كنت أحتاج إلى النوم، نظرت في ساعة يدي، تجاوزت الثالثة عصراً بدقائق وعليّ أن أفتح باب العيادة عند الساعة الرابعة، لذلك فضّلت أن أبقى جالساً وراء مكتبي واعداً نفسي أن أنام مبكراً هذه الليلة

لتعويض ما فاتني من نوم. نهضت حاملاً الإبريق والكأس الفارغين وذهبت إلى المطبخ، وبدأت بتحضير ركوة كبيرة من القهوة.

أتذكّر سلمى. لم تكن سلمى تحب القهوة كثيراً مثلي. تشرب فنجاناً في الصباح وآخر في المساء وتكتفي بذلك، بينما يتجاوز ما أشربه الفناجين العشرة يومياً.

«أقلِع عن التدخين تقلّل من شرب القهوة!». قالت لي ذلك ذات مرة وأنا أسعل بسبب أنفلونزا شتائية معتادة. قلت لها وأنا أشعل سيجارة إني سأحاول. هل كانت سلمى باردة المشاعر حقّاً كما بدأت أظن هذه الأيام؟ أسأل نفسي هذا السؤال فيما أنتظر غليان الماء في الركوة الموضوعة فوق نار موقد الغاز. لطالما اعتبرتها إنسانة هادئة وعقلانية جداً وكنت أحب هذا، ولكن، هل أحبتني حقّاً؟ أنا متأكد من مشاعري، أحببتها بعد أن خطبتها بالطريقة التقليدية العائلية بأسابيع طويلة، تسرّب حبّها إلى قلبي بالتدريج، وعندما تزوجنا بعد الخطوبة بستة أشهر كنت أحبّها حقّاً. أذكر أنها قالت لي إنها تحبني للمرة الأولى عندما تلفّظتُ بتلك الكلمة لأول مرة عندما كنا جالسين في صالون منزل أهلها بعد الخطوبة بشهرين، أتذكّر أنها كانت ترتدي فستاناً أحمر اللون يبرِز ذراعيها وجزءاً من كتفيها، ويبدو ملائماً تماماً لبشرتها البيضاء وشعرها الكستنائي، ضممتها وهمست لها: أحبك. نظرتْ في عينيّ وهمستْ بالكلمة ذاتها.

كان من الواضح، وقد أصبحت أفكّر جدّياً هذه الأيام ما إذا كان ذلك من الواضح حقّاً أنها تحبني خلال السنتين اللتين استمرّ فيهما زواجنا. كنا متفاهمين وخلافاتنا قليلة وغير حادة عادةً. كيف استطاعت أن تطلب الطلاق بهذه البساطة؟!

رفعت الركوة عن النار قبل أن تفور القهوة ووضعتها مع فنجان أبيض على صينية صغيرة وعدت إلى غرفة العيادة.

قالت لي بوضوح وهدوء رغم أن عينيها كانتا دامعتين -هل كانتا دامعتين حقّاً أم إنني أتخيّل ذلك الآن؟- إنها لا تستطيع العيش من دون أطفال. قالت إنها تحلم بهم منذ طفولتها ولا تستطيع التخلّي عن فكرة الأمومة. لم أردّ حينذاك، كنت حزيناً وغاضباً. العلم لا يكذب، الفحوص الطبية والتحاليل المخبرية أثبتت كلّها أنه لا يمكنني أن أنجب... عقيم! تتردّد هذه الكلمة المظلمة كهوّة لا قرار لها في عقلي وصداها يزداد علوّاً بدل أن يتخامد. عقيم... عقيم. سلمى لم تنطق الكلمة قط ولكنها كانت حاضرة كشبح أسود ومهيمن في أحاديثنا ونقاشاتنا الحادّة والهادئة على السواء، والتي دارت في تلك الفترة، ثم في فترة الصمت المريب التي دخلت سلمى فيها لأسابيع حتى اتخذت قرارها أخيراً: الطلاق. «أحبك ولكني أريد أولاداً، فلا أستطيع العيش من دون أطفال». كانت السخرية مريرة في صوتي وأنا أقول: «ولكنك تستطيعين العيش من دوني؟!». لم تردّ، فصحتُ بصوت أعلى: «وهل تضمنين إذا ما طلّقتك أنك ستتزوّجين ثانيةً وتُرزقين بأطفال؟ هل تعرفين الغيب أم تضربين بالمندل؟!». أيضاً لم تردّ.

ولكنني اكتشفتُ بعد الطلاق بأشهر قليلة، وعندما تزوجتْ سلمى مرة ثانية وبسرعة أثارت استغرابي، أن والدتها كانت تخطّط للأمر. ابن خالتها الذي كان يحبها ويريدها قبل أن تتزوج ما زال يحبها ويريدها، رفضته سلمى سابقاً قبل زواجها مني وقبلت به الآن، كيف تعمل عقول النساء؟ لم أحاول الإجابة عن هذا السؤال على الإطلاق.

منذ أسابيع قليلة علمت أنها حبلى. أخبرني بالأمر فريد، الذي تربطه بوالدها علاقة صداقة قديمة، شعرت وقتها بشعور غريب، مزيج من عدة مشاعر: الغضب والحسرة والحزن، كلها معاً وموشّاة بطيف من السعادة لأجل سلمى، يبدو أنني ما زلت أحبها وأفرح لفرحها. قلت حينها لفريد بصوت حاولت أن أجعله محايداً قدر الإمكان، إنني أتمنّى أن يرزقها الله ما تحبه، وإنني أتمنّى لها السعادة والخير، ثم غيّرت الحديث بعد ذلك.

احتسيت قهوتي بهدوء ودخّنت كعادتي بشراهة. منذ أن انفصلت عن سلمى وأنا أدخّن أكثر مما اعتدت سابقاً.

«هل تحاول أن تنتحر ببطء؟». سألت نفسي هذا السؤال بصوت عال ذات مرة وأنا أشعل سيجارة، وألاحظ أن سيجارة أخرى لا تزال مشتعلة في منفضة السجائر. ولكني أبعدت السؤال عن ذهني. لا داعي للدخول في متاهات لا معنى لها. هكذا قلت لنفسي وأنا أعود إلى تدوينات حامد.

– 6 –

التدوينات (2)

في يومٍ باردٍ ممطر زارتني جدّتي. جلبت معها ثياباً داخلية من الصوف وكنزتين حاكتهما بيديها. واحدة خضراء والثانية رمادية مع خطوط سوداء رفيعة، وجلبت أيضاً معمولاً بالفستق الحلبي تصنعه بنفسها في البيت، وكانت ماهرة جداً في صنعه، وعلبة كبيرة مملوءة بالشعيبيات بالقشطة،لم آكل منها سوى واحدة، ووزّعت الباقي على أصدقائي، قسم منهم يسمونهم هنا مرضى والقسم الثاني ممرّضين. أنا لا أعتبرهم هكذا، هم أصدقاء، وإذا شئنا الدقة أشباه أصدقاء، سواءً أكانوا هؤلاء أم أولئك، فأنا لست مريضاً، أنا مجرّد زائر مختبئ! ولكنهم يعتبرونني مريضاً، وإذا ما أخذنا في الاعتبار أنني أنا من أراد المجيء إلى هنا في المقام الأول – أحاول أن أتذكّر... هل كان الأمر كذلك حقّاً؟ – فلا بأس أن يعتبروني هكذا. أوافق على هذا أمام الدكتور معروف وأمام الأطباء الآخرين وحتى باقي الزملاء، أقصد المرضى، ولا أمانع أبداً، ففي هذا مصلحتي. ولكني لست مريضاً، المهم أن أدرك أنا هذا ولا يهم الباقون.

إنها مجرّد فترة كمون مؤقتة، للاختباء فقط، وسأعود إلى أمل التي تنتظرني، إنها تنتظرني وأنا أعلم هذا. سعيد قال لي ذات مرة إنه لا ينتظره أحد وعندما قلت له وماذا عن أمك وشقيقاتك؟ أطرق ولم يرد. أزعجته بسؤالي، ولكنه لم يغضب، سعيد طيّب ولطيف وهو يحبني، أدرك هذا تماماً. اعتبرني أخاً له منذ اليوم الأول الذي جئت فيه إلى ذلك المكان الكئيب، وأنا أحببته كأخٍ لي. لديّ أخوة غير أشقّاء، ولكن وكما أشعر فعلياً في داخلي، فأنا وحيد وليس لي أحد في هذه الدنيا ولا أحبّ أحداً سوى شخصين، جدّتي وأمل، وسعيد يبدو أنه سيكون صاحب الرقم ثلاثة في هذه القائمة القصيرة. الدنيا قد تكون كريمة ولكن الناس ليسوا كذلك على الإطلاق، ومن يريدون قتلي والاستيلاء على الكنز الثمين الذي أملكه ليسوا كذلك بالتأكيد، بل هم أشرار، في منتهى الشرّ. ولكني هنا في مأمن - أقصد كنت هناك في مأمن ولكني أكتب بانسيابية وراحة وأستطيع بكل تأكيد فصل الأزمان عن بعضها - ولن يجدني الأشرار أبداً، وسيبقى كتاب الأسرار بحوزتي حتى أكشف أسراره وأفكّك رموزه وبعدها سيعلم العالم كله بأمره، وحينها لن يكون بميسورهم إيذائي. ستساعدني أمل، أنا متأكد من هذا ولكن في ما بعد، فأنالم أخبرها عن الكتاب ليس طبعاً لأني لا أثق بها، على العكس أستطيع ائتمانها على حياتي ولكن خوفاً عليها. يكفي أن يعلموا بأمري ويلاحقوني وحدي. ولكني ما زلت في بداية الطريق ولم أفهم حرفاً واحداً من تلك اللغة العجيبة بعد، يوماً ما سأفعل وسأصبح أشهر من شامبليون، ذلك السارق الذي خطف المجد لنفسه ولم يعترف بفضل العالم العربي ابن وحشية النبطي[1]، مع أني أكره الشهرة، وسأرفض أن أصبح شهيراً. على العكس

---

(1) ابن وحشية النبطي: هو أبو بكر أحمد بن علي الكزداني المعروف بابن وحشية النبطي، عالم بالكيمياء واللغة العربية واللغات القديمة وعلم التعمية، أي علم التشفير، عاش في القرن الثالث الهجري، اكتشف معاني رموز اللغة الهيروغليفية =

يجب أن أختفي أكثر، عليّ أن أكون حذراً، ما علينا، سأعود الآن إلى حياتي هنا، هذا هو المهم حالياً، أقصد بحالياً الفترة التي أكتب عنها عندما كنت في المستشفى، أي عندما كنت مختبئاً في المستشفى، وليس حالياً زمن كتابتي لهذه السطور. بين الحالين فترة طويلة من الزمن، ولكننا نحن البشر نستطيع أن نطوي الزمن ونضمّه ونجعله مندمجاً مع بعضه كيف شئنا وليس كما يظن الجهلة من الناس، وهم كثيرون جداً كما أخمّن، بأننا لا نستطيع التحكم بالزمن، نحن نستطيع، وفي المستقبل سنفعل بشكل أفضل، سنخترق الزمن، هذا ما أعتقد أنه سيحصل، أؤمن بذلك كما آمن فريدريك نيتشه بإنسانه المتفوق، السوبرمان، الذي ابتدعه وصقله أثناء خلواته الطويلة في غابات شمال إيطاليا، التي أحبها وأمضى فيها شطراً من عمره. لكل إنسان غابته، وعليه وحده، وحده فقط، أن يكتشفها، وها أنذا أحاول كما حاولت طيلة حياتي، المهم أن نحاول. هل نقتحم غابة الزمن؟ ما هو الزمن أصلاً؟ يقسمونه إلى ثلاثة: ماضٍ وحاضر ومستقبل، ولكن هذا غير صحيح. حسناً لنفكر بهدوء وروّية من دون ضغوط من أي نوع ومن دون تفسيرات مسبقة. سأبدأ بالحاضر، هل هو موجود حقّاً؟ أنا أعتقد بأن الحاضر غير موجود فعلياً، بل هو موجود ذهنياً فقط، من أجل أن نعطي أسماء للأشياء، نسمّي المسمّيات ونحدّد الأماكن، الحاضر شيء اعتباري ورمزي، مجرد اسم، هو لحظة، تكاد لا تُدرَك، تنقضي فوراً وتصير ماضياً، هذه اللحظة هي ماضٍ وليست حاضراً أبداً، واللحظة التالية لم تأت بعد، مجهولة. حياتنا كلها ماضٍ جاثم علينا ويزداد مضياً كل لحظة، ومستقبل مجهول لا نعرف عنه شيئاً! أين الحاضر إذًا؟! إنه لا شيء، غير موجود، هو مجرد نقطة واهية لالتقاء

= وترجمها وشرح ذلك في كتابه (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام)، الذي تُرجم إلى اللغة الإنكليزية في القرن الثامن عشر، وهذه الترجمة ساعدت جان فرانسوا شامبليون في تفسير رموز اللغة الهيروغليفية – الناشر.

خطين، خط الماضي المبتعد وخط المستقبل المجهول. جزء من ثانية، ومضة، نقطة واهنة وضعيفة لا تكاد تُرى، هباء، تنتهي عند مولدها. هذا هو الحاضر، حاضرنا، اصطدام بارد بين لحظة ماتت ولحظة وُلدت، نحن نعيش لحظة الاصطدام فقط.

كتبت في رأس هذه التدوينة (في يوم باردٍ ممطر زارتني جدّتي). طبعاً ليس هذا اليوم الذي أكتب فيه، ذلكَ اليوم كان منذ زمن مضى، زمن طويل نسبياً، أشهر طويلة، عندما كنت في المستشفى، ولكني أكتب عنه الآن، أين الحاضر إذًا من ذلك كله؟ أكتب عن ماضٍ بعيد بعض الشيء وأستحضره الآن على الورق، ولكنه ماضٍ على أية حال، وإن استحضرته في الذاكرة أو على الورق. الزمن كله افتراضي، أحجية لا تأثير لنا فيها. يمضي ويحضر ويسير إلى المستقبل من دون أن يلتفت لإرادتنا في استرجاع أو وقف أي لحظة منه...

ولكني أؤمن أننا سنطوّع الزمن لإرادتنا، لا أدري كيف ولكن الإرادة، وكما قال معلّمي، تصنع كل شيء، لا أعلم متى ولن أدرك ذلك الوقت على الغالب، ولكن... الإرادة تصنع كل شيء.

– 7 –

استيقظت قبيل السابعة صباحاً بقليل. الطقس بالغ البرودة، ولكني شعرت بالنشاط بعد الاستحمام بالماء الأقرب إلى البرودة. حلقت ذقني وارتديت ملابسي وجلست أحتسي قهوة الصباح في غرفة الجلوس.

لم أستطع إبعاد حامد ابراهيم وأوراقه عن ذهني منذ أن عثرت عليها. فكرت كيف أنني أنا الطبيب النفسي، عثرت على أوراق هذا الشاب الذي مات منذ اثنتين وعشرين سنة والذي كان مريضاً نفسياً ونزيلاً سابقاً في مصحة الأمراض النفسية. مصادفة غريبة حقّاً! إنها الحياة تحفل بالمصادفات وتمتلئ بالغرائب.

لكني قلت لنفسي: «لو أن أحداً غيري وجد هذه الأوراق لربما كان رماها، أو قرأها من دون أي اهتمام وانتهى الأمر عند هذا الحد!».

حامد ابراهيم مات مقتولاً، ومن اتُهم بقتله مات بعده بأيام منتحراً، الاثنان كانا نزيلي المصحة النفسية في الوقت نفسه، وخرجا منها في أوقات متقاربة، وكانا صديقين، وهما الاثنان مريضا فصام على ما يبدو مما قرأته حتى الآن.

هل كان حامد مريضاً حقّاً؟ هل كان مصاباً بالفصام حقّاً أم بمرض

آخر؟ هل قتله سعيد حقّاً؟ الإجابات بالنفي الحائر والمتردّد تملأ عقلي حالياً. عليّ أن أكمل قراءة الدفاتر أولاً، ثم أعود فأقرأها ثانية لربط الأمور وفهمها.

مرضاي في العيادة قليلون، والمؤتمر الدولي لطب النفس الذي سيُعقد في فرنسا، والذي أنوي حضور فعالياته بعد أن دعاني أستاذي هناك إليه سيكون في الربيع. أعيش بمفردي ولا ارتباطات عائلية تشغلني، ثمّة متسع كبير من الوقت عندي، يبدو التوقيت مثالياً. ولكن... هل هذا صحيح حقّاً؟

«ما الوقت المثالي؟! ما التوقيت المثالي؟! هل يبدو أي شيء مثالياً بالنسبة إليَّ؟!». همستُ بصوت خافت وغاضب.

أدركت أن وضعي ليس كذلك، وهذا ما أغضبني أكثر. ما زلت غاضباً، غاضباً من كل شيء وبسبب كل شيء. غضبٌ غير مشتعل ولكنه مخفيّ ومغلّف بالرتابة، كجمر متوهّج تحت الرماد الأغبر، وتكفيه نفخة هواء ضعيفة حتى يظهر ويشتعل بقوة. السنوات الأربع التي تلت عودتي من فرنسا كانت حافلة بالغضب وأشياء أخرى. الغضب، خيبة الأمل، الفقد، الحزن، الكآبة، الرتابة، الإحساس باللاجدوى، الإحساس بتفاهة الأشياء كلّها، ذلك كلّه معاً.

مات أبي، ماتت أمي، اكتشفت عُقمي، هجرتني زوجتي، عملي متعثّر، تخلّيت عن البيت الذي ولدت فيه وعشت عمري كله، ماذا بقي لي؟! لماذا أنا هنا حتى الآن؟! هذا الجزء من العالم يبدو وكأنه يسير وبتوازن مدهش على حافّة هاوية، المنطقة بأكملها تعيش ومنذ آلاف السنين فوق فوهة بركان نادراً ما يخمد وقد يثور في أيّ لحظة، وكأن اندساسها في هذه الزاوية العجيبة التي يصنعها التقاء قارات ثلاث جعلها بؤرة جاذبة للآلام والدماء على الدوام.

ماذا يهمّني إذا ما كان حامد ابراهيم قبل أن يموت مريضاً أم لا؟ ماذا

يهمّني إذا كان صديقه سعيد زنزن قد قتله أم لا؟ ماذا يهمّني إذا كان القاتل الحقيقي، كما أخمّن، لا يزال طليقاً أم لا؟ العالم مليء بالقتلة الطليقين، يزيدون أو ينقصون واحداً، ما همّني من ذلك؟أشعلت سيجارة جديدة هي الرابعة هذا اليوم في سلسلة طويلة لا تنتهي إلا بعد أن أضع رأسي على مخدتي كي أحاول وبصعوبة أن أنام. تأمّلت ما حولي. غرفة الجلوس، الغرفة الباردة بأثاثها البارد والحديث، بعت معظم أثاث الفيلّا القديمة معها واشتريت أثاثاً حديثاً وجديداً. هل تريد قطع علاقتك بالماضي أم تريد العيش فيه؟! هذا ما سألته لنفسي وأنا أنهض وأتجه إلى غرفة العيادة. دخلت إلى الغرفة الباردة جداً وفتحت الستائر ثم النافذة المطلة على الحديقة، النسائم الداخلة حملت رائحة الثلج، لم تكن تثلج أو تمطر ولكن يبدو أنها ستفعل، الغيوم الرصاصية الداكنة تملأ السماء والنور الآتي من الخارج كان شحيحاً وشبحياً. لم أشعل الأنوار الكهربائية مع أن الكهرباء لم تنقطع بعد، التقنين اليوميّ ليس له موعد ثابت، ساعات طويلة كل يوم، في النهار أو في الليل. تذكّرت أنه يجب أن أشتري بعض الشموع تحسّباً لانقطاع الكهرباء في الليل. وقفت أمام النافذة ونظرت إلى الحديقة. هذه الجهة من المنزل هي الجهة الوحيدة التي لها حديقة كبيرة بعض الشيء، نصفها مبلّط ونصفها تراب مزروع، بينما الجوانب الأخرى التي تطلّ عليها غرف النوم والجلوس والمكتبة عبارة عن شريط ضيّق من البلاط، يتلوه الحائط الفاصل عن الأبنية المجاورة. ثمّة شجيرة ياسمين في الزاوية المطلّة على الشارع وهي في هذا الوقت مجرّد أغصان يابسة متشابكة، تنتظر الربيع حتى تعود إليها الحياة. باقي الحديقة مزروع بشجيرات ورد غير مزهرة حالياً، وفي الزاوية الخلفية توجد شجرة أكّي دنيا واحدة تبدو متوحّدة وهرمة. الأبنية تكاد تكون متلاصقة في هذا الجزء من الحيّ والشوارع ضيّقة، مجرد أزقّة. ما الذي أعجبني في هذا البناء القديم كي أشتريه وأجعله منزلاً ومكان عمل معاً؟ حيّ المحطة لطيف وهادئ ولكن هذه الأبنية عتيقة. من الجيد أن

هذا المنزل الذي أسكنه لا بناء فوقه. بناء مستقلّ بمدخل مستقلّ، وربما هذا ما دعاني لأن أشتريه. مكان يذكّرني بالفيلّا القديمة في حيّ الملعب البلدي التي تخلّيت عنها بألم، ولكن بإصرار. لم أعد أطيق العيش فيها، خيالات أمّي وأبي تعشّش فيها، ذكريات السنتين اللتين ظننت بأني سعيد فيهما وأنا متزوج من سلمى تعطّل حواسي وتثير غضبي كلما كنت أتنقّل بين غرفها العديدة، كل زاوية فيها تغضبني وتحزنني في وقت واحد، كنت أختنق هناك.

بعد أن تركتْ سلمى الفيلّا عقب الطلاق أمضيتُ بضعة أشهر وحيداً فيها، وعندما لم أعد أستطيع التحمّل اتخذّت قراري بالابتعاد، الابتعاد عن كل ما يمتّ إلى ماضيّ بصلة، ولكن... هل أستطيع أن أفعل ذلك حقّاً؟ كثيراً ما عذّبني هذا السؤال، ولكي أقمع سؤالاً كهذا وأسئلة مشابهة أيضاً، تخلّيت عن العيادة القديمة كذلك، العيادة التي عمل فيها والدي أكثر من أربعين سنة وعملتُ فيها أربع سنوات.

«موقعها جيّد تجارياً وفي مركز السوق، ولكن المرضى النفسيين يحتاجون إلى الخصوصية. عيادة بعيدة عن تجمّع الأطباء والعيادات الأخرى، ومدسوسة في شارع غير مزدحم في أحد الأحياء الراقية ستكون أفضل بالنسبة إلي». هكذا برّرتُ الأمر عندما أبدى فريد استغرابه الشديد من قرار بيعي العيادة القديمة كي أفتتح عيادتي الجديدة في جزء من منزلي الجديد في حيّ المحطة.

عندما رنّ جرس الهاتف كانت الساعة تقارب التاسعة والربع. قال لي فريد مباشرةً: «الفتاة التي أخبرتك عنها، بنت أخت سكرتيرتي فريال عندي الآن في المكتب فهل أدلّها على عنوان العيادة، أم تأتي وتتّفق معها أولاً؟». قلت له إني سآتي إلى مكتبه خلال ربع ساعة. وضعت السمّاعة وخرجت من العيادة إلى المنزل. أكملت ارتداء ملابسي، وأمام

المرآة الموضوعة فوق خزانة الأحذية قرب باب المنزل عدّلت، وبحركة أخيرة، من وضع ربطة عنقي، ثم غادرت.

قال فريد وهو يضيّفني سيجارة: «الفتاة اسمها منى وتبدو ذكية ونشيطة». رشفت من فنجان القهوة الساخنة وسألت بعد أن أشعل فريد سيجارتي: «وأين هي الآن؟». صرخ فريد بصوته الجهوري والأجشّ، صوت المحامي المعتاد على المرافعات القانونية في قاعات المحاكم المزدحمة: «فريال... أرسلي لنا الآنسة منى».

دخلت الفتاة التي تحمل اسم منى. كانت شابة نحيلة متوسطة الطول ومتوسطة الجمال، ولكنها تملك جاذبية غير محدّدة، بشرتها حنطية وشعرها طويل ناعم وحالك السواد تضمّه خلف رأسها بشكل ذيل الفرس، بدا عليها أنها لطيفة وخجول. تأمّلتها وأنا أنفث دخان سيجارتي. بعد دقائق كنت قد اتفقت معها على ساعات العمل والراتب الشهري، بدت سعيدة بحصولها على عمل. نهضتُ قائلاً: «سأعود أنا والآنسة منى إلى العيادة».

خلال الساعة التالية شرحت لمنى طبيعة العمل في عيادة للطب النفسي، أعطيتها ملفّات المرضى وعلّمتها كيف تحفظ المعلومات فيها، وماذا تكتب في دفتر المواعيد والمراجعات. شرحت لها بصبر وهدوء كيف يجب أن تتعامل مع المرضى وذويهم المرافقين لهم. أكّدت على اللطف والصبر والابتسامة في وجوه المراجعين. قلت أخيراً: «في تلك الزاوية خلف البارافان توجد مغسلة صغيرة وبضعة رفوف وموقد غاز صغير. مطبخ صغير من أجل الشاي والقهوة يناسب عيادة أضفته عندما رمّمت المكان، المدفأة في غرفة الانتظار التي صارت غرفتك الآن مليئة بالمازوت وبإمكانك إشعالها، فالبرد شديد، هل ثمّة شيء آخر تريدين السؤال عنه؟».

سألتْ بصوتها المنخفض ذي البحّة الناعمة والخافتة: «هل أصنع لك

فنجاناً من القهوة؟». ابتسمتُ وقلت: «حسنًا، دعينا نتذوّق القهوة التي تعدّينها». ابتسمتْ بخجل، بدت أجمل عندما ارتسمت تلك الابتسامة الصغيرة على وجهها البيضوي. تمتمتْ: «حاضر». دخلتُ غرفة العيادة وجلستُ وراء المكتب وغرقتُ في أفكاري.

– 8 –

التدوينات (3)

اليوم بالغ البرودة. تذكرت هذا اليوم يوماً آخر بارداً جداً مرّ علي في المستشفى. لم آكل جيداً ذلك اليوم، فقد كان الغداء سيّئاً، حبوب فاصولياء مطبوخة بالبندورة مع برغل، من يأكل برغل مع الفاصولياء بالبندورة؟! لم يكن معها سوى قطع صغيرة من اللحم، والفاصولياء لم تكن ناضجة جيداً فوق ذلك كلّه. لا يهمني الطعام، ولكن تذكرت أمل عندما أكلت الفاصولياء، كانت من أكلاتها المفضّلة، ولكنها تحبها مع الأرز وليس البرغل، وأنا أحب الأرز أيضاً فهو أطيب من البرغل ولكنهم هنا – أقصد هناك، أحياناً أنسى نفسي وأظن أنني ما زلت هناك وأكتب وكأنني هناك، ولكن لا مشكلة، فالأمور كلها تتشابه وتتداخل مع بعضها، فالدنيا كيان حلزوني، البعض لا يعلم هذا ولكن أنا أعلم – يكثرون من طبخ البرغل ولا يقدّمون الأرز إلا نادراً. نسيب العمّار لم يأكل سوى الخبز وبعض مرق البندورة، كان يجلس إلى جانبي في المطعم، وعندما سألته إن كان الطعام لم يعجبه، نظر إلي بترفّع مثل بارون من العصور

الوسطى، ثم قال بهدوء وهو يقلّب الطعام بملعقته في الطبق من دون أن يأكله: «البرغل أكل الدراويش، وأنا لست كذلك!». مسكين، لا يزال يعيش مرحلة ما قبل التأميم، ما قبل نكبته الخاصة ونكبة الكثيرين من أمثاله. سألت الدكتور معروف ذات مرة عن هذا الأمر، فقال لي ببرود محايد: «ممنوع الكلام في السياسة هنا!». قلت بتعجّب: «يا دكتور أنا أسألك عن نسيب وليس عن السياسة!». افترّت شفتاه عن شيء صغير يشبه ما يدعوه الناس ابتسامة، وقال: «أنت مريض هنا ولستَ طبيباً، اهتم بنفسك ولا تصدّع رأسك بمشكلات زملائك، أنت تتحسّن، ابقَ هكذا». ضحكت في سرّي، أنا لستُ مريضاً كي أتحسّن ولكن الدكتور معروف والجميع كذلك يحسبون أنني مريض، وهذا جيّد في نهاية المطاف، فلكي أبقى هنا يجب أن أكون كذلك، في نظرهم طبعاً. لا أدري متى سأخرج من هنا، ربما حين يزول الخطر، ولا أعلم متى سيحدث ذلك. اشتقت إلى أمل، اشتقت إلى جدّتي. جدّتي كانت تزورني ولكن أمل لم تفعل، لا ألومها فأهلها يمنعونها. صحيح... تذكّرت، كنت أشتاق إلى حمص أيضاً. لم أفلح في فكّ مغاليق كتاب الأسرار حتى الآن، يا له من حرز غريب ومهم. من الطبيعي أن أكون مستهدَفاً بسببه، عندما أنجح في قراءته سأفهم كل شيء وسأحمي نفسي، أفكر فيه وهو ليس معي، خبّأته قبل أن آتي إلى هنا، أخفيته جيداً في بيت جدّتي، المكان الأكثر أمناً على وجه الأرض، أم إنه كان معي هناك وأنا لا أذكر؟! الطقس بارد جداً هنا في ضواحي دمشق. حين كنت أقيم في دمشق أثناء دراستي الجامعية لم أكن أشعر بمثل هذا البرد، هذا البرد يذكّرني بحمص وبرد حمص، ولكن... في حمص، في منزل جدّتي، في منزلي، في غرفتي، كنت أشعر بدفء أكثر. منزل جدّتي دافئ، المدفأة فيه كبيرة وجيدة وتعمل على الحطب. هنا لا أحد يعلم شيئاً عن الكتاب، وليس هنا فقط، لا أحد يعلم عنه سواي، حتى أمل لم أخبرها وهذا أفضل من أجل سلامتها، ولكني اضطررت للتحدّث عنه مع الدكتور معروف وقد

وعدني بألاّ يخبر أحداً. بعد أن أخبرته عن سرّي الكبير ندمت، ولكني عدت فقلت لنفسي، هو الطبيب ومدير المستشفى وهو المسؤول عني هنا، طيّب، أنا أثق بالدكتور معروف، ربما ليست ثقة مطلقة ولكني أثق به بما يكفي لكي أخبره عن الأمر. أكّدت عليه ألا يخبر أحداً، وشرحت له أن ذلك من أجل سلامته هو في المقام الأول. وعدني بجدّيته المعتادة أنه لن يخبر أحداً على الإطلاق، وطلب مني وأنا أغادر مكتبه عائداً إلى المهجع أن أخبره بنتائج عملي، قلت له إني سأفعل.

ولكني لم أكن قد تقدّمت في الأمر على الإطلاق، ولم أفهم حرفاً واحداً من تلك اللغة الغريبة العجيبة التي كتب بها الكتاب، والتي تتبدّل على الدوام. المهم في الأمر أنه كتاب مهم، من الواضح والمؤكد ذلك، هذا أكيد وإلا ما كان هؤلاء الأشرار القساة الذين يلاحقونني أصرّوا على ذلك من الأساس. يريدون الكتاب ويريدون قتلي كي لا أخبر أحداً عنه، يريدون أن يبقى السرّ سرّاً، ولكنّ مهمتي كشف هذا السرّ، لا بدّ من ذلك. أحاول أن أتذكّر الآن متى وقع هذا الكتاب الخطير وفائق الأهمية في يدي؟ متى أصبحت الرجل الأول والوحيد، الذي وُضع الكتاب في أمانته، وكُلّف بحلّ ألغازه وفكّ رموزه ومعرفة معانيه، ثم إخبار الدنيا كلها بها؟ يبدو الأمر لي وكأنه حدث منذ زمن بعيد، منذ سنوات طويلة، ربما مئات السنين، ولكن في الحقيقة كل هذا حدث منذ سنة واحدة فقط. أتحقّق من ذاكرتي وأكتشف أنها أكثر من سنة بقليل، ربما سنة وشهر، أو سنة وشهرين - أو سنتين؟ - ممكن، حسناً لا يهم متى، بل المهم إلى أين سنصل، أبذل جهدي ولكني ما زلت في الصفحة الأولى، أقصد لم أفهم تلك اللغة بعد ولكني قرأته. أقصد تصفّحته، تصفّحته وتفحّصته كله، بغلافه من القماش الأسود السميك وصفحاته الخمسمائة وخطوطه السوداء الصغيرة الملتفّة والمتشابكة والمتغيّرة على الدوام، وصوره المرسومة بريشة ساحرة وموحية وباللون الأسود

فقط، مع أن هذه الصور الغريبة غير مفهومة أيضاً على الإطلاق. إنه لا يشبه كتاباً آخر، ولغته لا تشبه لغة أخرى. لا يشبه شيئاً، إنه ليس شيئاً معروفاً، ومن المدهش أني المكلّف بهذه المهمة الخطيرة.

كانت الأسابيع الماضية مملّة وباردة، كنت أحب البرد أكثر، لا أكرهه ولكني كنت أحبه أكثر مما أحبه الآن. سأتابع الكتابة في ما بعد، عليّ أن أعمل على الكتاب الذي ينتظرني. آه... تذكّرت أمراً، قلت إني هناك كنت أشتاق إلى أمل وجدّتي وحمص، وقد اشتقت إلى الموسيقى كذلك، كنت سابقاً أستمع إلى الموسيقى كثيراً، ولكني هناك كنت محروماً منها. طلبت مرة من الدكتور معروف أن يجلبوا لنا فونوغرافاً كي نستمع إلى الموسيقا. أجاب بأنهم يشغّلون الراديو في صالة الجلوس أحياناً. لكني لا أهتم بالراديو ولا بما يبثّه من أغانٍ تافهة. قلت بوضوح: «أريد أن أستمع إلى الموسيقا، الموسيقا فقط، الموسيقا التي وضعها العباقرة في أوروبا، تلك القارة العجوز والعجيبة، الملهِمة والقاسية، الذكية والشريرة، هذه هي الموسيقا الحقيقية فقط، موسيقاهم». وعدني خيراً ولكنه لم يفعل شيئاً، همهم حينها بشيء عن الميزانية ووزارة الصحة والبيروقراطية. وما همّني أنا من البيروقراطية والميزانية؟ أنا أعلم عن البيروقراطية أكثر منه، ودرست هذه الأمور في الجامعة، الفلاسفة كلّهم تكلّموا وبحثوا في نشوء الدول وما يجري فيها وما تنتهي إليه. تذكّرت أفلاطون، ذلك الحالم العظيم الذي ظنّ أن بالإمكان إقامة مدينة فاضلة. لم يكن يفهم البشر على حقيقتهم حقّاً، ولكن شوبنهاور كان يفهم ويعلم، وأنا أعلم أيضاً. معلّمي وصديقي آرثر شوبنهاور، اشتقت إلى قراءته هناك، وعدت إلى قراءة ما كتبه كلّه عندما رجعت إلى منزلي وإلى كتبي. أستمتع بقراءته، من الممتع أن تقرأ للعباقرة والأذكياء وتتحاور معهم. حينها... هناك، أدركت أنني اشتقت إلى كثير من الأشخاص والأشياء والأمور. على الحقيقة ليس كثيراً، شخصان ومدينة وموسيقا وكتب فلسفة، هل هذا كثير؟ لا أظن،

ومن الأفضل ألا يحب المرء أحداً أو شيئاً أو فليكن أقل القليل، يكفيني هذا. ولكني أحببت سعيد زنزن أيضاً، واعتبرته أخاً لي، وهو الصديق الوحيد ليس هناك فقط بل في الدنيا كلها. بل إن شوبنهاور صديقي، لكنه صديق ميت أقرأ كتبه وأحاور أفكاره العبقرية. أما سعيد فهو صديق عاش معي في المستشفى نفسه وهو الآن يزورني هنا في منزلي، وأتحدث معه متى أشاء. كنا نتحدث عن الموسيقا والرسم، أنا أحب الموسيقا وهو يحب الرسم، يبدو أن الفن الراقي من الممكن أن يجمع الناس الجيدين. سعيد جيد، جيد ومظلوم، ظلمه أبوه، ظلمته عائلته، ظلمه الجميع، حتى المجتمع والدين، الظلم كثير في هذه الدنيا.

تذكّرت تساقط الثلج في ذلك النهار، من الطبيعي أن تثلج في الشتاء، في شهر كانون، ترى هل يتساقط الثلج في حمص أيضاً؟ إذا كان الأمر كذلك فأنا على اتصال مع أمل إذًا ولو بأمر واحد، مراقبة تساقط الثلج، أعلم أنها تحب مراقبة الثلج وهو يتساقط، رقيقاً متبعثراً متهادياً في حال لم تكن هناك عاصفة ترميه رمياً على الأشياء كلها، الآن لا يوجد عاصفة والثلج يتساقط بهدوء وبطء، يتساقط بحكمة، هذه هي الكلمة الدقيقة، بحكمة، كشيخ عجوز وقور خبر الحياة ولم يعد أيُّ شيء يدهشه. ترى... هل تشاهد أمل الثلج في هذه اللحظة؟

هكذا كنت أفكر حينذاك.

- 9 -

كلما تقدّمت في قراءة ما كتبه حامد في دفاتره وأطلق عليه اسم تدوينات، كانت حالته كمريض نفسي تزداد غموضاً بالنسبة إليَّ. لم أستطع وضع تشخيص مقنع ومتماسك بعد، ولكن من الواضح أنه لم يكن شخصاً عادياً ولا طبيعياً.

تساءلت بصمت، ومن هو الشخص الطبيعي؟ ما المقياس الذي يتوجّب اتّباعه؟ هل نستطيع أن نصنّف البشر على مقياس موضوع من قِبَل بشر آخرين؟ لا يجدر بطبيب نفسي أنفق سنوات طويلة من عمره في الدراسة والتدريب أن يسأل أسئلة كهذه، ولكنني أدرك في أعماق نفسي أن الإنسان بحر عميق الأغوار، وأن كلمة طبيعي كلمة واسعة ومطّاطة جداً إلى درجة أنها من الممكن أن تشمل البشر جميعهم على نحوٍ ما. كلنا طبيعيون بشكل من الأشكال، وكلنا مرضى بشكل من الأشكال. دارت هذه الجملة في ذهني ببطء، دارت كدوّامة صغيرة لم تكتسب قوتها بعد ولكنها تدور، مستمرة بالدوران، الدنيا تدور، وكل شيء يدور، الحياة دائرة مع أن فيها زوايا حادة إلى درجة قدرتها على الهتك

والجرح والإيذاء، ولكنها تبقى دائرة. في النهاية هي دائرة، سننتهي من حيث بدأنا، البكاء والظلمة.

عند الساعة الواحدة ظهراً قالت لي منى إنها ستغادر العيادة وستعود في الفترة المسائية عند الساعة الرابعة عصراً. كانت قد أخبرتني أن بيتها في حيّ باب الدريب. فكّرت أنها ستصرف ساعة على الأقل في الذهاب والعودة، يبقى لها ساعتان تقريباً للغداء والراحة. الحياة صعبة، وخصوصاً بالنسبة إلى أناس مثل منى وعائلتها. كما أخبرتني أن والدها كان موظفاً بسيطاً في مديرية البريد والهاتف، وقد توفّى منذ سنة وبضعة أشهر، وأنها كبرى أخوتها، أربع بنات وصَبيّان، وأمها لا تعمل ولا مورد لهم سوى راتب والدها التقاعدي، وأنها اضطرّت إلى العمل خلال دراستها الجامعية لتساعد في إعالة عائلتها، لذلك اختارت أن تتسجّل في كليّة التربية وعلم النفس كي تستطيع متابعة دراستها من دون أن تضطرّ لحضور المحاضرات في الكليّة في دمشق. وعندما سألتها إذا كانت تكفي الدراسة النظرية من دون دوام كي تنجح في المقرّرات الجامعية، أجابت بنبرة حاولت إخفاء الحزن فيها: «ربما أحتاج إلى سنوات أكثر من السنوات الأربع المقرّرة في الكليّة كي أتخرّج، ولكن لا بأس، أنا مضطرّة لذلك والمهم أن أحصل على الشهادة الجامعية في النهاية».

عندما علمت منها أثناء حديثي معها في مكتب فريد إنها طالبة في السنة الأولى في كلية التربية وعلم النفس اتخذت قراري سريعاً بقبولها سكرتيرة لعيادتي. قلت لها: «الممرضة أو السكرتيرة في العيادة النفسية تختلف عن زميلاتها في أي عيادة تخصصية أخرى، ودراستك لعلم النفس ستفيدك في عملك وتفيدني أنا أيضاً».

لم أخرج من المنزل بعد انتهاء دوام العيادة المسائي، وأمضيت معظم الوقت في القراءة. ونحو منتصف تلك الليلة كنت قد قرأت معظم ما كتبه

حامد في الدفاتر الثلاثة. استرخيت في مقعدي المريح، أشعلت سيجارة واستعرضت في ذهني ما جرى معي وكيف عثرت على الحقيبة.

كنت عصر ذلك اليوم أرتّب المطبخ متذمّراً من رائحة الطلاء الحديث التي ما زالت عالقة في الهواء. وكنت قد اشتريت فرناً جديداً يعمل على الغاز، وبعد أن انتهيت من تركيبه في مكانه في زاوية المطبخ جمعت الأدوات المختلفة التي كنت أعمل بها وأعدتها إلى الحقيبة المخصّصة لها، تلك الحقيبة التي لا ينقصها شيء من العدّة والأدوات، والتي أفخر بها. بحثت عن مكان لوضع الحقيبة ولكني لم أجد مكاناً مناسباً في المطبخ، وعندها فكّرت أن القبو هو المكان الأنسب. كان القبو يقع في جهة الحديقة تحت الصالون الذي حوّلته إلى عيادة من غرفتين، غرفة الطبيب وغرفة الانتظار. نهبط إليه من أرض الحديقة عبر درج قصير من عدة درجات من دون درابزين. له باب معدنيٌّ ضيّق، إلى جانبه نافذة صغيرة بزجاج مغشّى تطل على الحديقة تُدخل إلى القبو المتوسط الاتساع بعض النور، وكانت مغلقة على الدوام. القبو يحتوي على بعض الأشياء المهملة والمحطّمة وخزانة كبيرة وقديمة من الخشب في زاويته البعيدة تعود إلى سكان البيت السابقين. لم أرمّم فيه شيئاً، فلم أحتجه في شيء بعد أن ألغيت فكرة تمديد تدفئة مركزية في المنزل واكتفيت بمدافئ المازوت والكهرباء. حملت حقيبة الأدوات وخرجت إلى الحديقة عبر الباب الذي أبقيت عليه من غرفة العيادة. نزلت الدرجات القليلة إلى الحديقة واتجهت صوب درج القبو، فتحت الباب المعدني ودخلت. البرد قارس وثمّة رائحة واخزة في المكان، رائحة غبار وخشب عتيق وبرد. أشعلت المصباح الكهربائي الوحيد المتدلّي من السقف المنخفض نسبياً، واتجهت لأضع حقيبة الأدوات قرب خزانة الخشب، لم أكن قد تفقّدت تلك الخزانة المصنوعة بحسب الموديلات الرائجة في بداية القرن. كانت الخزانة فارغة وأخشابها مخلّعة، وجدت

أنها تصلح خشباً للتدفئة فقط، وقبل أن أغلق أبوابها لفت نظري جارور كبير مغلق في الجهة السفلية اليسرى، حاولت فتحه فوجدته مقفلاً. أثار الأمر فضولي، فتناولت من حقيبة أدواتي مفك براغ استخدمته كعتلة عند القفل وكسرته، ثم فتحت الجارور بفضول، لأجد تلك الحقيبة السوداء القديمة والمهترئة وفيها الدفاتر الثلاثة. دفاتر مدرسية مسطّرة من القياس المتوسط. حملت الحقيبة والدفاتر وصعدت إلى المنزل... وهكذا تعرّفت على حامد ابراهيم.

استعرضت في ذهني ما قرأته، ورتبت المعلومات التي تكوّنت عندي. من المؤكد أن حامدًا كان مريضاً نفسياً، ولكنني لم أكن متأكّداً من التشخيص. استنتجت مما قرأته أن الأطباء في الماضي شخّصوا إصابة حامد بالفصام،ولكني تحفّظت على هذا التشخيص، كنت أرجّح إصابته باضطراب ثنائي القطب أو اكتئاب ذهاني.

النقطة الثانية والأهم، أن حامدًا لم يُقتل على يد صديقه سعيد بحسب ما استنتجت من أوراق حامد. هلوسات سعيد، والتي ذكرها حامد مراراً في كتاباته التي سمّاها تدوينات، تنفي منطقياً أن يكون سعيد هو القاتل.

قلت لنفسي وأنا أنهض كي أستعد للنوم إن الأمر يحتاج إلى قراءة أخرى، إعادة القراءة وإعادة التفكير بكل ما كتب في الدفاتر، وأحتاج إلى فريد أيضاً، فأنا لا أملك غيره مدخلاً إلى الماضي. ذلك الماضي الذي كنت سأنغمس فيه طوال أيام طويلة قادمة.

– 10 –

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف ظهراً عندما جلست وفريد على مقعدَي الجلد الوثيرين أمام مكتب فريد الواسع، وأمامنا على الطاولة المنخفضة فنجانان ساخنان من القهوة.

أغلقت عيادتي عند الساعة الواحدة واتصلت بفريد طالباً لقاءه. أخبرني فريد أنه قد فرغ من العمل في السرايا لهذا اليوم، وأنه ينتظر موكّلاً سيراجعه بعد قليل ولكنه لن يبقى عنده طويلاً، وطلب مني القدوم إلى المكتب. وبعد أن وضعت فريال فنجانَي القهوة أمامنا أبلغها فريد أن بإمكانها أن تنصرف إلى منزلها، والتفت إليَّ قائلاً: «والآن أخبرني، أين وصلت في قراءتك لتلك الأوراق؟».

رشفت من القهوة الساخنة وأشعلت سيجارتي وسيجارة فريد وعدت إلى الوراء مسنِداً ظهري إلى المقعد، ثم قلت بهدوء:

«أريدك أن تساعدني، أريد أن أعلم كل شيء عن حامد ابراهيم».

نفث فريد دخان السيجارة وداعب ربطة عنقه العريضة ذات الألوان الفاقعة للحظات قليلة، ثم نظر في عينيّ وقال: «يا عادل... ما تطلبه يعود إلى اثنتين وعشرين سنة مضتْ، الأمر صعب!».

ابتسمت: «لا يصعب عليك شيء يابن العم».

ابتسم فريد: «رغم المجاملة الأمر صعب، وقد يتطلّب العودة إلى سجّلات قديمة».

«وهل هذا الأمر مستحيل؟».

«لا شيء مستحيلٌ ولكن، لماذا أنت مهتم بهذا الموضوع كل هذا الاهتمام؟!».

«ثمّة ظلم كبير في هذه القصة وفجوات مظلمة كثيرة! لا أحب الظلم ولا أحب الظلمة».

«لا أحد يحب الظلم وقد نختلف على الظلمة، ما يهمني هو أنت، هل تظن أن النبش في قصة قديمة ومعقّدة أمر ملائم؟! أقصد، أمر ملائم لك على وجه الخصوص؟».

«ماذا تعني؟!».

«أظن أنك تمر بحالة نفسية سيئة، اعذرني فأنا لا أتطفّل على حياتك ولا أتفلسف عليك في مجال عملك ولكن، أنت قريبي وصديقي وأعتبرك أخي الأصغر، هل تريد أن تشغل نفسك بشيء؟ اسمع نصيحتي وتزوج مرّة ثانية! هكذا تنسى وتنشغل بحياة جديدة».

قهقهت ضاحكاً: «هل تظن أنني بسبب ظروفي الحالية، وحدتي وعملي المتعثّر أحاول أن أشغل نفسي وأتسلّى؟! لا يا بن عمي، الأمر ليس هكذا، بات هذا الموضوع يشغلني بشكل جدّي، وكلما قرأت في تلك الأوراق وفكّرت بهذه القصة الحزينة ازددت اقتناعاً بأن ما حدث بالفعل ليس كما خرج للعلن، وأريد أن أعرف ما الذي حدث بالفعل».

ابتسم فريد: «تريد أن تعمل محقّقاً خاصّاً! مثل الأفلام البوليسية؟!».

«لا بالتأكيد، ولكني أشعر بفضول شديد. كما أن معرفة الحقيقة واجب عليّ، واجب أخلاقي كطبيب نفسي، وكإنسان أيضاً».

«الحقيقة! ومن يهتم بالحقائق هذه الأيام؟! الكرة الأرضية معجونة بالكذب والخداع والزيف والنفاق، أرى في عملي أشياء وأشياء يشيب لها الرأس، لو لم أكن متفائلاً بطبعي لكنت أصبحت مريضاً عندك! الدنيا سيئة وتسبّب البؤس والجنون، تكفي مشكلاتنا الخاصّة، هل تريد أن تعيش مشكلات الآخرين أيضاً؟!».

قلت بهدوء وجدّية وأنا أنظر في عينيه: «فريد... بكلمة واحدة: هل ستساعدني أم لا؟».

قال وهو يرفع يديه في الهواء مستسلماً ومبتسماً: «وهل أستطيع أن أرفض؟ سأساعدك طبعاً ولكن، ألن تطلعني على الأوراق التي تقرأ فيها وسبّبت لك هذه اللوثة في عقلك كي أستطيع مساعدتك؟».

«دع عقلي فقط يصاب باللوثة، أوجّه إليك أسئلة وتبحث لي عن الأجوبة، ويكفي هذا حالياً».

تنهّد فريد: «حسناً، كما تريد».

- 11 -

التدوينات (4)

سعيد زنزن مريض حقّاً، للأسف. علمت قصته وسبب مرضه بالتدريج. أصبح بحالة جيدة الآن، أو لنقل مقبولة. الأدوية وصدمات الكهرباء - تلك اللعينة والمزعجة- والجلسات مع الدكتور معروف ساعدته. سعيد مصاب بالفصام، هكذا يسموننا في هذا المبنى من المستشفى: مرضى الفصام. ثمّة مرضى فصام في مهاجع وأقسام أخرى موجودة في مبانٍ أخرى، ولكنهم مختلفون عنا. أنا أعلم أن الفصام مرض كبير وواسع، يعني هو عنوان كبير يضم الكثير من الحالات المختلفة والمتباينة. أعلم عنه الكثير فأنا أقرأ كثيراً. عامة الناس يقولون «انفصام شخصية»، تسمية خاطئة طبعاً، انفصام الشخصية مرض آخر مختلف، الفصام مرض عقلي، يناسبني ذلك فهو ستار مناسب للتخفّي. ثمّة مرضى فصام خطيرون، وبعضهم قتلوا أناساً، يعني قتلة. هؤلاء هم الموجودون في الأقسام الأخرى، أقسام خاصّة وعليهم حراسة مشدّدة، ولكن في القسم الذي نتبع له لا أحد خطيرًا. نحن هادئون ومسالمون

ونواظب على الأدوية وباقي العلاجات، وبعضنا سيخرج قريباً من هذا المكان المريع.

مريع، أجل، لم أكن سعيداً هناك، ولكن كان لا بدّ من وجودي لفترة مؤقتة. فترة كمون واختباء. كان ذلك ضرورياً.

سعيد مريض مسالم، مع أني علمت من الممرّض طلعت، وهو شخص ثرثار، أنه كان في قسم المرضى الخطرين لفترة وجيزة جداً، ولكن الدكتور معروف دبّاك نقله إلى قسم الهادئين والمسالمين على مسؤوليته الشخصية كطبيب ومدير مستشفى، لأنه كان متأكداً أنه ليس خطيراً وأنه سيستجيب بسرعة للعلاج، ولأن حالته كانت ستتدهور كثيراً في ذلك القسم المرعب. سألت طلعت عن سبب اعتباره خطراً، فتردّد في الكلام بدايةً، ثم حكى لي إن سعيدًا حاول الاعتداء على أحد جيرانهم في البناية التي يسكن فيها مع أهله في حمص لذلك أدخلوه المستشفى. وعندما سألته لماذا حاول الاعتداء على ذلك الجار ضحك وقال: «لأن سعيدًا كان مقتنعاً بأن ذلك الرجل هو شيطان متنكر والشياطين يجب قتلهم، حاول حرقه بالكاز، ولكنه لم يستطع إشعال الكبريت بسرعة! ونجا الرجل بأعجوبة». ولكن الدكتور معروف لم يعتبره مريضاً خطراً وأكّد أنه سيشفى بسرعة ولن يؤذي أحداً. وقد كان محقّاً في ذلك. دكتور معروف طبيب ذكي وماهر.

وبالفعل سعيد مسالم جداً ولا يستطيع أن يؤذي ذبابة، وقد تأكدت من ذلك بنفسي فأنا صديقه الوحيد. وقد علمت منه شخصياً في ما بعد تفاصيل أخرى. سعيد يخبرني بكل شيء، نبدأ بالحديث عن الرسم والنحت وهما أكثر ما يحبه في هذه الدنيا، ثم أستدرجه إلى أحاديث أخرى. سعيد طيّب ويقول لي كل ما أريد معرفته من دون أن يدرك أنني أستجوبه. لست خبيثاً ولا أريد الضرر له، وأنا أحبه وأعتبره صديقي

الوحيد هنا وفي الخارج أيضاً. ولكنني فضوليّ وأريد أن أفهم لماذا هو هنا وماذا يدور في عقله.

الممرّض طلعت يبتسم بخبث عندما يرانا جالسَين منعزلَيْن في الحديقة أو في المهجع، بحسب الطقس، ونتكلم بصوت خافت. طلعت ماكر، كل الذين يعملون هنا ماكرون، حتى الدكتور معروف، يبدو أنهم يجب أن يكونوا كذلك حتى يستطيعوا العمل في مكان كهذا، الدكتور معروف وطلعت ماكران، وذكيّان كذلك، ولكنّهما طيّبان. يجب أن أعترف بهذا.

شوبنهاور يقول إن ما يدفع الرجل للعمل كي يقيم أوده وأود عائلته هو الإرادة نصف الواعية وليس العقل، وأوافقه على هذا. حسناً لأكن صريحاً، أوافقه على ما قاله أو كتبه كلّه، ولكن هنا، في تفصيلة العقل كلامه دقيق جداً. العقل لا عمل له هنا، نحن نعيش بقوة الإرادة وليس بأي شيء آخر.

أمل لم تكن تحب شوبنهاور. كنا نختلف كثيراً عندما نناقش دروسنا ومن ثم قناعاتنا في ما ندرسه. أمل هيغلية إذا جاز القول، وتحب أفلاطون أيضاً، وهذا مستغرب ممن يكره شوبنهاور. عندما أفكر بهذا المزيج، أفلاطون وهيغل، يا للهول! شيء مثالي وخيالي ولا يمكن تحقيقه. كنا نختلف كثيراً ولكننا لا نتشاحن أو نتشاجر، حبنا تجاوز مرحلة الشجارات والخلافات. مرة واحدة غضبتُ منها كثيراً، عندما قالت لي ذات مرة وهي شاردة، وبعد أن عبّرت عن مخاوفها من أن أهلها قد يقفون عقبة في طريق حبنا وزواجنا: «هل سنكون حينها مثل تريستان وإيزوولد؟». ثرتُ غاضباً وأجبتها بحدّة: «قولي روميو وجولييت، أو قولي قيس وليلى، ألم تجدي سوى هذا الخائن كي تستشهديَ به؟ أنا لستُ مثل تريستان!». ورفضتُ متابعة النقاش بعد ذلك كما كنا نفعل عادةً عندما نختلف على أمرٍ ما، فقد كنت غاضباً جدّاً. يا إلهي كم هي

طيّبة، طيبة ومثاليّة. لقد فوجئتْ بشدة عندما ذهبتُ وحدي، ومن دون أن أخبرها مسبقاً، إلى منزلها وقابلتُ أباها وأخويها وخطبتها منهم. فوجئَتْ وغضبتْ مني كثيراً، ذكّرني ما رأيته منهم بحديثها وتوجّسها من المستقبل. ما رأيته في عيونهم كان سيئاً، وما رأيته في عينَيْ أخيها فايز كان الأسوأ. فايز أسوأ من أبيه. أبوها احتقرني أما فايز فقد احتقرني وكرهني. الكراهية كانت تشعّ من عينيه ووجهه كله. خرجت من منزلهم حينها وأنا أشعر بالحقد، ليس عليهم، لا، لم أشعر بالحقد عليهم، كنت أشعر بالحقد على والدي الذي أنجبني وألحقني بنسله واسمه، اللعنة، هذا أولاً، وثانياً لأنه رفض أن يأتي معي ليخطب لي حبيبتي -أحاول أن أتذكّر الآن، هل طلبت منه ذلك أم إنني لم أفعل؟! - وأعود فأكرّر لنفسي كما أفعل دائماً، عندما أتزوج أمل وأنجب منها أطفالي فإنني لن أكره أحداً منهم لأي سبب، رغم أني لا أعلم السبب الحقيقي لكره والدي لي أنا وحدي فقط، فهو يحب أولاده الآخرين من زوجته الثانية، أعلم هذا تمام العلم فهو يحبهم ويدلّلهم، ولكن ربما كانت أمي هي السبب، فهو يكره أمي وأنا ولدها الوحيد. كرهها بجنون بعد أن أحبها بجنون، هكذا حكت لي جدتي. ولكن في الحقيقة كانت الكراهية متبادلة، أمي كذلك كرهته بجنون بعد أن أحبته بجنون، وهذا أيضاً ما حكته لي جدتي، والدتها. ربما كان ذلك هو السبب الذي دعا كلاهما لكرهي. أجل، فأمي تكرهني أيضاً وهي تحب أولادها من زوجها الثاني، تماماً كما يفعل أبي بالضبط، كلاهما كره ثمرة زواجهما المجنون بعد قصة حبهما المجنونة وكرها بعضهما، والثمرة التي هي أنا أيضاً، بجنون. تقول جدّتي لي: «لا يا حبيبي هما لا يكرهانك، هما مقصّران في حقّك فقط، أخذتهما الدنيا وحياتهما الجديدة». أبتسم وأسكت كي لا أزعج جدّتي الغالية. أنا أحبها جداً وهي كذلك تحبني، ولكن الحقيقة غير ما تقول جدّتي. الكراهية موجودة وخانقة. الإنسان المكروه يدرك أنه مكروه. جدّتي لا تصدّق أنه بإمكان امرأة أصبحت أماً أن تكره ولدها. تقول لي: «قد يكون أبوك لا

يحبك فعلاً، فهو رجل سيئ في نهاية الأمر، ولم أكن موافقة على زواجه من ابنتي الوحيدة أساساً، ولكن أمك لا تكرهك، هي نسيتك فقط، الأم لا يمكن أن تكره فلذة كبدها».

آه يا جدّتي الغالية وطيبة القلب، ومن قال لك إن الأمهات لا يكرهن أولادهن أحياناً؟ ليس كلّهن، بعضهن فقط، القليل منهن، جدّتي لم تكن تعرف قصة شوبنهاور مع أمّه. أمّه التي غارت من نجاحه وكرهته ولم تره أو تتكلّم معه طيلة السنوات العشرين الأخيرة من عمرها. ذات مرة حكيت لها ذلك، ولم تصدّق. بل قالت لي: «لا تصدّق كل شيء تقرأه!». ضحكت بيني وبين نفسي حينئذٍ، إن كنت لن أصدّق ما سأقرأ، فالأولى ألا أقرأ، وعدم القراءة يعادل الموت بالنسبة إليّ.

هذا كلّه تعرفه أمل. حكيته لها عبر السنوات القليلة الماضية، السنوات السعيدة التي أمضيناها ونحن طالبان في الجامعة، طالبان عاشقان لا هموم لدينا. أتذكر ذلك وكأنه صورة وهمية وخيالية، وكأن تلك السنوات حلم يقظة أو حلم ليلة صيف دافئة. كيف مرّت تلك السنوات؟ لا أعلم حتى الآن، كنت أتوقع أن الأسوأ سيأتي لاحقاً. أمل المتفائلة كانت تقول لي ألا أقلق، وإننا سنجد طريقة لإقناع أسرتها بالموافقة على زواجنا، وإنها لن تتخلّى عني ولو مقابل كنوز الدنيا كلها. أنصت إليها وأغرق في صفاء عينيها الجميلتين وزرقتهما، وتخطر على بالي قصص الحب البائسة والحزينة عبر التاريخ كله ولا أتكلّم. أترك الأيام تمضي وأسكت. أتمنى أن تكون أمل على حق كعادتها دائماً، أتمنى وإلا...

- 12 -

كنا جالسَيْن في صالون منزل فريد إلى جانب المدفأة الكبيرة بنارها الملتهبة، بعد أن تناولنا القطايف المقلية المحشوّة بالجبنة البيضاء الحلوة والمغمّسة بالقطر الساخن، والتي جاء بها فريد على صينية صغيرة مع إبريق الشاي وكأسين صغيرتين. قال وهو يصبّ الشاي: «لقد وضعت زوجتي ورقتي نعناع في الإبريق، الشاي بالنعناع لذيذ جدّاً». كانت الساعة تقارب الثامنة مساءً والثلج يتساقط في الخارج برقّة وهدوء عندما حكى لي ما توصّل إليه من معلومات.

ولد حامد ابراهيم عام 1938، وهو الابن البكر والوحيد لأبوين متناقضين بكل شيء. أبوه عبدالجبّار ابراهيم ينحدر من عائلة تعمل بالبستنة والفلاحة بالأجرة عند أحد إقطاعيي حمص الأثرياء. كانوا يعملون ويسكنون في ضواحي حمص، في بساتين الميماس. أمه عامرة بدرآغا تنحدر من عائلة إقطاعية وغنية. صحيح أن والدها لم يكن غنياً، وكان يعمل موظفاً حكومياً ولا يملك أراضي ولا إقطاعات، وذلك بسبب إرث قديم مختلَف عليه ويعتبر من الفرع الفقير من العائلة، ولكن عائلة والدها الكبيرة، آل بدرآغا، كانوا أغنياء.

كان عبدالجبار ابراهيم الابن الأصغر بين خمسة أشقّاء ذكور يعملون كلهم مع والدهم في البساتين، ولكنه كان مختلفاً. كان طويلاً وقويّاً وشجاعاً ومتمرّداً. في عمر الثامنة عشرة انضم إلى ثوار حمص بقيادة نظير النشيواتي والذين كانوا يقاتلون الفرنسيين. وبعد إحدى المعارك التي جرت في ريف حمص أصيب برصاصة في ساقه والتجأ إلى مزرعةٍ خارج إحدى القرى. كانت تلك المزرعة مملوكة لعائلة بدرآغا، وكانت عامرة حينها تمضي عطلة مع عائلتها في ضيافة أحد أبناء عمومتها.

استنتج فريد أن عبدالجبار التقى عامرة التي كانت في السادسة عشرة من عمرها آنذاك، التقيا بصدفة قدرية، وأحبا بعضهما على الفور. وبعد شفاء عبدالجبار ترك الثورة وعمل في تجارة الأقمشة بتوجيه من عامرة التي أمدّته سراً بالمال اللازم للبدء بالعمل. كان سمساراً يبيع البضائع وينقلها من تاجر إلى آخر ولا يملك محلاً ثابتاً في السوق، ثم تزوجا بعد بلوغها الثامنة عشرة رغم عدم موافقة كلتا العائلتين. هربت عامرة معه وتزوجته وسكنا في مدينة حمص، ولم يسافرا إلى أي مكان بعيد، كانا كلاهما جريئاً وعنيداً. بعد فترة قصيرة من وفاة والدها تمكّنت عامرة من مصالحة أهلها واستطاعت أن تجعل أشقاءها الثلاثة وأمّها يقبلون بزوجها، ضئيل الشأن على السلم الاجتماعي الذي كان سائداً آنذاك، صهراً لهم. بعد ولادة حامد بدأت المشكلات بينهما، كانا يختلفان على كل شيء ولا يشتركان سوى بأن كل واحد منهما كان يمتلك شخصية قوية ولساناً سليطاً ورأساً عنيداً. وعندما بلغ حامد الخامسة من عمره انفصل الزوجان بالطلاق بعد سنوات من الخلافات المستحكمة. تزوج عبدالجبّار مرة ثانية، وكذلك تزوجت عامرة من أحد أقاربها البعيدين، وأنجب كلاهما أولاداً من الزواج الجديد. المشكلة أن الوالدين الغاضبين والعنيدين كرها حامد الذي يذكّرهما بالسنوات السيئة التي

أمضياها معاً، وهكذا لم يقبل أيٌّ منهما أن يعيش حامد معه. في تلك الفترة كان أخوال حامد الثلاثة قد هاجروا إلى أستراليا، وكانت جدّته لأمه بعد وفاة زوجها تسكن لوحدها، فأخذته ليعيش معها، وبقي معها حتى وفاتها بعد خروجه من المصحة النفسية، وكان ذلك قبل أشهر من وفاته هو نفسه مقتولاً. هذا هو ملخّص حياة حامد ابراهيم القصيرة والحزينة كما رواها فريد بعد أن جمع المعلومات من أكثر من مصدر خلال اليومين الماضيين.

قال فريد وهو يعيد ملء كأسَي الشاي: «لقد جمعت لك كل هذا في يومين، العجائز يحبون حكاية القصص، وأنا أعرف كثيراً من العجائز». ضحك ورشف رشفة كبيرة من الشاي الذي اختمر جيداً وصار غامق اللون.

أشعلت سيجارة وقلت بصوت خافت وأنا أحدّق في كأس الشاي الصغيرة من دون أن أرشف منها: «كان منبوذاً إذًا!». مرّت هنيهة من الصمت ثم نظرت إلى فريد وقلت: «يبدو أنه كرّر قصة والديه مع بعض التحوير. هو أيضاً أحب فتاة أعلى منه في السلم الاجتماعي، ولكنّ أباه كسر المحظور وتزوج من محبوبته بينما حامد لم يستطع، أو على الأقل لم يسعفه الوقت ليفعل».

«ذكرت لي إنه كان يحب زميلة له في الجامعة ورفض أهلها زواجهما».

«أجل، كانا يستعدان للهرب معاً والزواج من دون موافقة عائلتها عندما قُتل، رغم أنه كان عاطلاً عن العمل ولم يَحُزْ شهادته الجامعية بعد بينما كانت حبيبته قد تخرّجت في الجامعة وصارت تعمل معلّمة في إحدى ثانويات حمص للبنات، ومع ذلك كانا ينويان الزواج ووضع عائلتها أمام الأمر الواقع».

«هل ذكر اسمها في يومياته؟ أو أين كانت تعمل؟».

«اسمها أمل قيشانجي وكانت تدرّس مادة الفلسفة في ثانوية للبنات تقع في حيّ البغطاسية على ما فهمت من الأوراق، وكانت قد تخرّجت قبل عام تقريباً في كلية الآداب - قسم الفلسفة، في جامعة دمشق، وتمكّن والدها بطريقة ما من تعيينها معلّمة في إحدى مدارس المدينة مباشرةً وليس في الريف أولاً كما جرت العادة مع المدرّسين الجدد، يبدو أنه كان يملك نفوذاً ما».

«قيشانجي، عرفت بعض الأشخاص من هذه العائلة، هل تعرف اسم والدها؟».

«لا، فهو لم يذكره في ما كتب، ولكنه ذكر اسمَيْ أخوَيها، أحدهما كان يكرهه بشدة ويبدو أن الكراهية متبادلة... اسمه فايز».

كرّر فريد الاسم ثم أشرق وجهه فجأةً: «فايز قيشانجي، تذكّرته، إنهم يملكون محلاً كبيراً للأنتيكات والشرقيّات في السوق المسقوف، وهم أكبر تجار الشرقيّات في السوق، وتذكّرت والده أيضاً فوزي قيشانجي، هرِمَ ولم يعد يعمل وفايز يدير كل شيء الآن، إنهم أغنياء جداً، عائلة عريقة وغنية ومن الطبيعي أن يرفضوا شاباً مثل حامد».

«كما قلت لك، لم يكن قد تخرّج في الجامعة بعد ولا يمارس أيّ عمل، كان مع أمل في السنة الجامعية الأولى معاً، وتجاوزا السنوات الدراسية معًا، وكان طالباً متفوقاً، ولكن في السنة الرابعة الأخيرة تراجع أداؤه الدراسي كثيراً، ربما بسبب مرضه النفسي والذي لم أحدّده بدقة بعد، ثم دخل مستشفى الأمراض النفسية، وبعد خروجه منها لم يكمل دراسته».

ساد الصمت لبرهة من الزمن ولم يكن يعكّره سوى صوت رشفات فريد للشاي، وصوت القدّاحة التي أشعلنا بها سيجارتينا.

قلت: «فريد... هل تستطيع أن تعرف أي شيء عن أمل؟ ماذا حلّ بها؟ أين هي الآن؟ هل ما زالت على قيد الحياة أم لا؟ أيّ معلومات تفيدني».

ضحك فريد ضحكة عالية، وقال: «هل ستجعلني المحقّق الخاص لدى حضرتكم؟!». تابع وهو يضحك: «وكم ستعطيني أجراً؟! أنا أشاهد الكثير من الأفلام البوليسية، المحقّقون يقبضون باليوم!».

ابتسمت وقلت: «إذا كان الأمر يسبب لك إزعاجاً أو إحراجاً فلا داعي، سأسأل بنفسي».

«سامحك الله يابن العم! كنت أمزح. هذا أولاً، وثانياً لقد أثرت فضولي تماماً بهذه القصة الغريبة، اطمئن، سنعمل معاً». قال جملته الأخيرة بجدّية وإخلاص.

كنا صديقين حقيقيين ولا علاقة للقرابة أو لفارق العمر بالأمر. منطق الصداقة لا يخضع لهذه الأشياء، ولا يخضع للمنطق أصلاً في بعض الأحيان.

انصرفت إلى منزلي قرابة الساعة الحادية عشرة. وفي منزلي البارد وفي غرفة المكتبة التي يواجه بابها باب غرفة نومي، وكعادتي الجديدة في الليالي القليلة الماضية، جلست وراء مكتبي ورحت أقرأ في دفاتر حامد محاولاً أن أفهم أكثر، ومحاولاً كذلك ملء الفجوات الكثيرة التي كنت أجد أنها تمزّق جسد الحكاية الغريبة التي وقعت في أسر غموضها وغرابتها، وكان الثلج لا يزال يتساقط.

- 13 -

التدوينات (5)

أكره الربيع. منذ أيام المدرسة وأنا أكره مواضيع التعبير والإنشاء والأشعار والأناشيد التي تمجّد الربيع وتمدحه. أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً. هل هناك شعر أسوأ من هذا؟! لم أجد أحداً حتى الآن يكره الربيع مثلي، وعندما أخبر الآخرين بكرهي لهذا الفصل المنافق والمغرور يستغربون.

لم أكتب منذ فترة طويلة، ولذلك تذكّرت الربيع مع أن الوقت ليس ربيعاً.

استدلال منطقي:

أنا أشعر بالحزن الربيع يسبّب لي الحزن لذلك تذكرت الربيع.

لم أكتب لأنني لم أكن أملك الرغبة ولا الطاقة لفعل ذلك. كنت حزيناً ولا أرغب سوى بالنوم، ولكني لا أنام جيداً، لياليّ كلها مؤرّقة. أشعر بالنعاس طوال اليوم، وعندما يأتي الليل لا أستطيع أن أنام. منذ بضعة أيام مررت بحالة من اليأس الفظيع، أحسست بأن الدنيا باتت بحجم كرة

صغيرة من الطين القذر ولا تتيح مجالاً للتنفس. حاولت الخروج من اليأس ولكن ما زال الطين يمنع عني الهواء.

حتى الحديث مع سعيد عندما يزورني صار يسبب لي الضيق، لا أريد أن أتكلّم أو أن أقول شيئاً، ولا أريد أن أسمع شيئاً. أحب أن أكون وحدي هذه الأيام. وكما قال معلمي شوبنهاور، فإن الإنسان لا يكون على حقيقته حقّاً إلا عندما يكون وحيداً. ترى هل أريد أن أكون على حقيقتي أم إنني لا أريد أن أكون شيئاً على الإطلاق؟ أنا محتار.

لم أعد أعمل على الكتاب، أحاول استجماع قواي لأعاود العمل عليه وأخفق، ولكني أريد أن أفعل، ربما عندما يفارقني هذا التعب اللعين الذي يذكّرني بالفصل الغبي، ربيع الفراشات والأزهار والنسائم. وماذا يعني فراشات وأزهار ونسائم؟! طز! هل يختفي الموت والألم والعذاب والبؤس من هذا العالم المتوحش إذا كانت هناك فراشات وأزهار ونسائم وهذا الكلام الفارغ كله؟

أخفي الكتاب ولا أخرجه، أحياناً أشعر بالغضب منه. أغضب من هذه اللغة الغريبة التي كُتب بها. أغضب من هذه الأبجدية المتغيّرة باستمرار والتي لا تشبه شيئاً آخر في هذا العالم. أغضب لأني كنت أنا من سعى إلى الحصول على ذلك الكتاب اللعين كي أحميه وأفكّك طلاسمه التي لا أدري أي شيطان اخترعها. لماذا أنا؟! أحدّق فيه وأفقد صبري وأصرخ: ماذا؟ ألن تبوح بأسرارك؟ ولكن عندما يهدأ غضبي أندم. هل يرفض أحد أن يكون الشخص المميّز؟! المختار؟! الوحيد في العالم الذي يملك شيئاً متفرّداً لا يملكه سواه؟! صحيح أني في خطر بسببه ولكن ماذا يعني هذا؟ الناس كلّهم في خطر، في أي يوم وأي ساعة وأي لحظة قد يتعرضون لأخطار وقد يموتون أيضاً، ما المشكلة؟ أليست هذه حال الدنيا منذ وُجدتْ؟ الخطر ليس مهماً مقابل أن تكون مميّزاً

ومتفرّداً، ولكن تفصلني خطوة واحدة عن ذلك التميّز والتفرّد. عليّ أن أفهم الحروف وأحلّ الشيفرات وأفك الطلاسم، عليّ أن أعرف معانيه وما يحتوي عليه. لست مستعجلاً. سأحاول الآن أن أنام، سأحاول ربما أفلح في ذلك.

- 14 -

وضعت منى فنجان القهوة أمامي على المكتب وعادت إلى غرفة الانتظار. تأمّلتها وهي تمشي خارجةً من الغرفة، كانت ترتدي بنطالاً من الجينز الأزرق وكنزة من الصوف المحبوك بلون وردي، وقد ربطت شعرها الطويل الأسود خلف رأسها بشكل ذيل الفرس كالعادة. وجدتها جميلة أكثر من المعتاد رغم أنها لم تضع على وجهها أيّ مساحيق تجميل، ولا حتى قليلاً من أحمر الشفاه، ومع ذلك كانت جميلة جمالاً طبيعياً. بشرتها الحنطية وعيناها اللتان بلون البندق تناسبان شعرها الأسود الفاحم، وجنتاها مرفوعتان قليلاً في وجهها البيضوي، وفمها يميل إلى الاتساع بشفتين ممتلئتين. على العموم وجه هادئ وجميل. جمالها غير صارخ وغير مثير ولكن جاذبيتها واضحة. جمال هادئ وجاذبية هادئة. هذا ما دار في خلدي وأنا أرشف الرشفة الأولى من فنجان القهوة.

تذكرت هيام، ممرضتي في العيادة القديمة، ما زلت أكنّ لها الودّ، كانت لطيفة وطيّبة. لو لم تُخطَب وتترك العمل لكانت معي الآن في العيادة الجديدة.

توقفت هيام عن الدراسة بعد أن رسبت سنتين متتاليتين في البكالوريا،

فقال لها والدها ابحثي عن عمل تساعدينني به أفضل لك ولنا. عملت سكرتيرة في مكتب هندسي لبضعة أشهر ثم تركت العمل بسبب تحرّش أحد المهندسين الشبان بها، وعملت عندي في العيادة وكان فريد هو الواسطة بيني وبينها كذلك. أمها تساعد زوجة فريد في بعض أعمال المنزل. أهلها فقراء. عندما تقدّم لخطبتها ميكانيكي شاب افتتح لتوّه محله الخاص في المدينة الصناعية، وقد صار معلم صنعة بعد أن عمل عشرين عاماً أجيراً لدى ميكانيكي شهير، عمّت الفرحة منزل هيام. كان الشاب يعتبر غنياً بمقاييس عائلتها ومستقبله أكثر من جيد. قال لها أبوها الذي يعمل مستخدماً في البلدية إن الميكانيكي في هذا الزمن أفضل من عشرة أطباء ومهندسين معاً، والشهادات لم تعد تطعم خبزاً هذه الأيام! أمها كانت سعيدة ومتحمّسة أكثر من زوجها، وقالت لابنتها: هذا عريس لقطة، انفتحتْ لك طاقة القدر!».

ولكن هذا العريس اللقطة كان يريد ربّة منزل فقط، واشترط عليها أن تترك العمل في العيادة. لا يريد أن تعمل زوجته في أي مكان، يريدها أن تعمل عنده فقط، برتبة زوجة حالياً وأمّ مستقبلاً.

ماذا جرى للناس؟! ماذا جرى لنا؟! متى كان العلم طريقاً للفقر؟! منذ متى أصبح الجهل هو طريق السعادة؟! إلى أين نسير؟!

هذا ما كنت أفكر فيه عندما أنهيت فنجاني ونهضت من وراء مكتبي. وقفت أمام النافذة وتأمّلت الحديقة المجدبة لبعض الوقت. نظرت في ساعتي ووجدت أن الساعة لم تتجاوز العاشرة بعد. أحسست بالاختناق، وتزايد شعوري بالوحدة. عدت إلى الجلوس وفتحت أحد المراجع الطبية باللغة الفرنسية على مبحث الفصام وأخذت أقرأ. أمضيت الساعة التالية قارئاً منقّباً في المراجع التي تملأ مكتبتي الطبية، ثم إنني نهضت ومطّطت عضلاتي وعدت للنظر عبر النافذة إلى الخارج. كان الثلج قد توقف عن التساقط خلال الليل، والثلج المتراكم في الحديقة

بدأ بالذوبان ببطء مخلّفاً جداول طينية صغيرة، ولكن السماء رصاصيّة داكنة والجو مكفهرّ وينذر بمزيد من المطر. طلبت من منى فنجاناً آخر من القهوة، وعندما جاءت به قلت لها إن بإمكانها الانصراف قبل موعد إغلاق العيادة وإن لا داعي لمجيئها مساء هذا اليوم فالطقس سيئ. شكرتني بسعادة وانصرفت مسرعة. انتبهت إلى ابتسامتها وكأني أراها لأول مرة، وجدتها مميّزة، بحثت عن المفردة المناسبة لوصف وجهها عند الابتسام، لمعت الكلمة في ذهني، الإشراق. أشرق وجهها عندما ابتسمت، كانت عادية الجمال وتحوّلت إلى امرأة جميلة حقّاً ما إن ابتسمت. كم تغيّر الابتسامة وجوه البشر، ألهذا تعتبر صَدَقة؟ وتذكّرت الحديث النبوي الشريف (تبسّمك في وجه أخيك صَدَقة). تابعت احتساء قهوتي وتدخين سجائري بصمت.

عندما كنت أنهي فنجاني برشفة أخيرة كان ظلّ ابتسامة يلوح على وجهي. فكّرت بأن القهوة التي تعدّها منى أفضل من تلك التي كانت هيام تعدّها. تذكرت القهوة التي كانت سلمى تصنعها، لم تكن تعشق القهوة مثلي، ولكنها كانت ماهرة في إعدادها وتغليها بالقدر المطلوب تماماً لا أكثر ولا أقل، مع بعض الرغوة على سطحها كما أحبها وغير مغلية أكثر من اللازم. هل ما زلت أحب سلمى؟ كثيراً ما سألت نفسي هذا السؤال في الشهور الماضية. لا أستطيع أن أقتلعها من قلبي بهذه السرعة أو البساطة. سنتان من الحياة المشتركة وقبلها بضعة أشهر خطوبة لا يمكن أن تخرج من الذاكرة بسرعة، هذا إذا خرج شيء على الإطلاق من تلك الهوّة اللعينة المدعوّة ذاكرة! أيّ شيء. كل شيء هنا في هذا النسيج المدهش والغريب المدعو دماغاً والمحفوظ جيداً في الصندوق الذي ندعوه جمجمة.

تذكّرت الشامة السوداء على كتف سلمى اليسرى، تذكّرت صوتها الهامس عندما تغازلني بخجل وتأوهاتها الخافتة عند ممارسة الحب.

أحسست بالوجع يتمدّد في صدري وهمست بصوت مسموع: «هل ما زلت أحبها؟!».

لم تستطع أن تكون زوجة فقط. أرادت أن تكون أمّاً أيضاً. لا أستطيع لومها، لا أحد يستطيع أن يلومها، ولكني في أعماقي كنت أفعل، لا ألومها فقط بل أتمزّق غضباً منها كذلك.

ظهرت الشمس بخجل لوهلة. شعاع ضعيف من النور امتدّ على النصف العلوي من الجدار المبلّل بالماء الذي يفصل حديقة منزلي عن حديقة الجيران. حدّقت فيه وأنا جالس وراء مكتبي، شعاع ضعيف تلاشى ببطء بعد لحظات. أغلقت الغيوم فرجاتها المتمرّدة الصغيرة وعاد الجو ليصبح مائلاً إلى العتمة رغم أنه منتصف النهار. تذكّرت شعاع الشمس الذي اخترق الستائر في غرفة الفندق الذي أمضينا فيه شهر العسل. كان ذلك صباح ليلة الزفاف، ولكنه كان آنذاك شعاع شمس غير خجول. شمس صيفية وقوية ومقتحمة. مرّ ذلك الشعاع على كتف سلمى العاري التي كانت نائمة حينها، وأنار بشرتها ناصعة البياض وأوضح بجلاء الشامة السوداء الصغيرة. سبحت ذرّات من الغبار بهدوء ضمن الشعاع، شقٌّ صغير بين قسمي الستارة المسدلة سمح لذلك الشعاع بالدخول، عمودٌ من النور يسبح ضمنه الغبار ويحط على كتف زوجتي النائمة بهدوء، والتي ستصبح طليقتي بعد سنتين.

فكّرت بما يربطني بذلك الشاب التعس، حامد ابراهيم!! إنها الوحدة والحزن. هل أخطأت عندما اشتريت هذا المنزل؟ هل تخلّى عني الحظ تماماً في اللحظة ذاتها التي امتلكته فيها وجعلته ملاذي الجديد؟ هل أؤمن بالحظ أصلاً؟ أهي الصدفة؟ أهو القدر؟ بماذا أؤمن؟ هل أؤمن بالماضي أم بالمستقبل؟ ماذا تقول أعمدة النور التي تسبح فيها ذرّات الغبار للناس؟ إنها لا تقول شيئاً، مجرد سعادة فاترة وهاربة، تتملّص بسرعة وتختفي مثل دخان متبدّد في الهواء.اكتشفت، ومن دون أيّ

دهشة، أني ما زلت أشمّ رائحة جلد سيارة المرسيدس الجديدة عندما جلست في مقعدها لأول مرة عندما كنت مراهقاً، وأني ما زلت أشمّ رائحة كولونيا ما بعد الحلاقة المميّزة التي كان والدي يستعملها، وأني ما زلت أشمّ رائحة الدفء والحنوّ والحب في أعطاف والدتي عندما كانت تضمّني صغيراً، وأني ما زلت أشمّ رائحة المعمول والأقراص المخبوزة ليلة عيد الفطر، وأني ما زلت أشمّ رائحة أشجار السرو والصنوبر عندما تتبلّل بماء المطر الغزير في حديقة الفيلّا القديمة، تلك التي أثقلت على روحي المتوحّدة فتخليت عنها بقرار مؤلم ويائس، وأني ما زلت أشم رائحة الطين المفعمة بالحياة عندما كنت أسقي شجيرات الورد والياسمين في الحديقة صيفاً، وألهو بخرطوم المياه عندما كنت طفلاً. الروائح لا تغيب، وكذلك أعمدة النور لا تغيب، وحدها السعادة هي التي تغيب. اكتشفت وما زالت الدهشة غائبة عني، أني ما أزال أتذكر الشمعات الأربع التي نفخت عليها وأطفأتها فوق قالب الحلوى في عيد ميلادي الرابع في الفيلّا القديمة، حيث كانت السعادة مخزّنة هناك، كان ثمّة مخزون كبير منها هناك ولكنه نضب واختفى، نفد! لا شيء بلا نهاية، والموت نهاية الأشياء كلها.

شعرت بأنني وصلت إلى القاع، إلى الطمي الطيني في قعر المستنقع. لا يمكن أن أسمح لنفسي بهذا، لا يمكنني أن أغرق، عليّ أن أطفو وأن أخرج، يجب ألا أستسلم. عليّ أن أمنع ذلك، عليّ أن أواجه ذلك التيار. «اخرج من المستنقع، حاول على الأقل». قلت في نفسي. سحقت عقب السيجارة في المنفضة الزجاج بقوة وأنا أقول بصوت عالٍ كاد أن يكون صراخاً: «حاول على الأقل!».

- 15 -

التدوينات (6)

ذات ليلة في المستشفى استيقظ سعيد فزعاً بسبب كابوس. احتاج الأمر مني أكثر من نصف ساعة حتى استطعت تهدئته، ثم مساعدته على النوم مرة أخرى. عدت إلى سريري بجانب سريره في نهاية المهجع الكبير وأنا أفكّر. منذ فترة طويلة لم تزره الكوابيس، غيابها إحدى علامات بداية الشفاء بحسب قول الدكتور رامز، الطبيب الشاب واللطيف، والذي يدهشه أيّ شيء. طبيب متخرّج حديثاً في كلية الطب ويعمل هنا مؤقتاً ريثما يستكمل أوراقه ويسافر إلى أوروبا أو أمريكا كي يتابع دراسته، يريد أن يتخصّص بالطب النفسي، فهو يحبه كما كان يقول دائماً. يبدو هشّاً ولطيفاً أكثر من اللازم، أنا واثق من أنه هشّ من الداخل، لا أتوقّع أن يتابع اختصاصه وسيبدّله لاحقاً، لن يتابع، أنا متأكد من هذا فهو غير مناسب له. سعيد كان يحلم بكوابيس توقظه من نومه مذعوراً كل ليلة، وكانت تعذّبه وتمنعه من النوم، هذا كان قبل دخوله المستشفى، وبعدها تناقصت الكوابيس ثم غابت تقريباً، حتى تلك الليلة. فكّرت حينها أن

أسأل الدكتور رامز عن ذلك، أو ربما الدكتور معروف، هذا في حال قابلته، فجلساتنا معاً لم تعد كما في السابق. قال لي آخر مرة جلست معه إنه لم يعد يعتبرني مريضاً، وإنه سيدعني أخرج من هنا قريباً. وإنه حتى لو تباعدت جلسات الحوار بيننا - هكذا كان يسمّي جلسات التحليل النفسي العلاجية التي كان يقوم بها معي وأنا أعرف أنها تُسمّى كذلك فأنا لست جاهلاً - فهو مستعد للحديث معي متى طلبتُ ذلك. ابتسمت ببلاهة وهززت رأسي موافقاً، لأنني أريد الخروج من هنا. الأسباب التي دعتني للاختباء هنا ما زالت موجودة، فأنا ما زلت في خطر، وما زالوا يلاحقونني، ولكني أظن بأن الخطر تراجع وهدأ قليلاً، لم يجدوني ولن يجدوني، وعندما أعود إلى حمص وإلى منزل جدّتي الدافئ سأختفي نهائياً، أنا أعرف كيف أتخفّى. ستساعدني أمل التي اشتقت إليها كثيراً.

تلك الليلة غفا سعيد وأنا كنت ما أزال أفكر بسبب عودة الكوابيس إليه؟ لم يقل لي ما هو الكابوس الذي سبّب له هذا الرعب كله، كان يصرخ فقط، ثم تمتم بخوف وهو يلهث: «مرعب!». كرّرها ثلاث مرات ثم سكت. (مغعب). إذا سمع شخص ما لا يعرف سعيدًا من قبل ويستمع إليه أول مرة فإنه سيسمعه يقول هذه الكلمة غير المفهومة: مغعب. سعيد يلثغ بحرف الراء، أقوى وأشد لثغة سمعتها في حياتي، عرفت عدة أشخاص يلثغون منذ طفولتي، وحتى الآن لم أسمع مثل لثغة سعيد، حرف الراء غير موجود في قاموسه أبداً، هناك حرفا (غ): واحد للغين والآخر للراء. من يعرفه يفهم كلامه ويعتاد عليه وعلى طريقة لفظه، ولكن الغريب لا يفهم. أنا لست غريباً، بتنا أصدقاء، لا مجرد زميلين في مهجع واحد في مستشفى، ولا مجرد مريضين يشتركان بمرض واحد -طبعاً أقول هذا تجاوزاً، فالجميع هناك كانوا يعتبرونني مريضاً وأنا لست كذلك، ولكن دعهم هكذا فهذا أفضل - بل صرنا صديقين حقيقيين وخاصة بعد أن أدركت أن سعيدًا متعلّم ومثقّف. هو

ليس متعلّماً بالمعنى التقليدي المتعارف عليه، ذلك المعنى التافه الذي يقول إن المتعلّم هو من حاز شهادة جامعية أو أكاديمية ما، بل هو متعلّم تعلّماً ذاتياً. أتذكّر باسماً عباس العقاد عندما أفكر بذلك! سعيد ترك الدراسة قبل أن يحوز الشهادة الثانوية كي يعمل دهّاناً، وتعلّم الصنعة بسرعة وتفوّق لا يتناسبان مع عمره المتقدّم نسبياً الذي بدأ به تعلم تلك المهنة. علمت منه بعد أن تعرّفت عليه بمدة قصيرة، وعندما بدأنا نصبح صديقين، أن سبب براعته في مهنة الدهان هو السبب نفسه الذي شكّل مأساة حياته. لم يكن يريد الكلام في الموضوع في البدء، ولكنه بعد أن وثق بي وحكيت له عن حياتي - طبعاً أحتفظ بأشياء سرية لا أحكيها لأحد، ومن البديهي أن الكتاب واحد منها، وأشياء أخرى أيضاً - بدأ يحكي لي عن نفسه. سعيد فنّان، عشق الرسم منذ الطفولة، وكان في المدرسة الابتدائية أفضل من يرسم ليس في صفّه فقط بل في المدرسة كلها، وعندما صار في المرحلة الإعدادية صار يبحث عن كتب ومجلات تتعلّق بالرسم ويقرأها حتى أصبح شبه موسوعة في ما يتعلّق بفن الرسم. كما بدأ يتعلّق بفن النحت كذلك، كان يصنع من معجون اللعب الخاص بالأطفال، ومن الطين أحياناً، منحوتات وتماثيل رائعة يحتفظ بها لفترة، ثم يعيد عجنها ليصنع غيرها. مأساته بدأت في المرحلة الثانوية عندما صرّح لأبيه بأنه عندما يحوز البكالوريا فإنه سينتسب إلى كلية الفنون الجميلة وليس إلى أيّ كلية أخرى، فهو لا يطيق الرياضيات ولا الفيزياء، ولا أي شيء له علاقة بالأرقام، ولا يهوى سوى الرسم والفنون. جنّ جنون والده الموظّف بشهادة السرتيفيكا في أرشيف منسيّ في إحدى الدوائر المنسيّة والذي لم يكن غنياً ولا فقيراً، كان ميسور الحال، وكان متديّناً جداً، سأصحّح، لا يصحّ أن أقول إنه كان متديّناً فأنا لا أريد أن أسيء إلى الدين، كان متزمّتاً، هذه هي الكلمة الصحيحة.كان من أولئك الذين يؤلّهون القشور والمظهر، ولا يعرفون شيئاً عن الجوهر، وكان يحلم بأن يكون ولده الوحيد على خمس شقيقات طبيباً، وإن لم يستطع

ذلك فليكن شيخاً! قال له إن لم تكن تحب العلوم ولا تريد أن تدرس في كلية علمية فليكن، كما تريد، عندها ستذهب إلى كلية الشريعة وتصبح شيخاً وإمام مسجد، أما غير ذلك فلا، هل تريد أن تفضحني بين الناس؟! أنا الحاج وليد زنزن يصبح ابني على آخر الزمن رسّامًا كافرًا؟! هكذا كان والده يقيس الأمور، الفنان كافر، الرسّام كافر، النحّات كافر بشكل مضاعف لأنه لا يصنع صوراً فقط، بل والعياذ بالله أصنام! حكى لي سعيد ذلك كله وهو يحاول أن يبتسم ولكنه لم يكن يبتسم، كان وجهه ينوء تحت حزن بالغ. عندما لم يستطع سعيد تجاوز إرادة والده ويئس من متابعة الدراسة بما كان يحلم به، ترك الدراسة وعمل دهّاناً. وجد أن هذه المهنة أقرب شيء إلى ما تهواه نفسه، قال لي بسخرية مُرّة: «هنا طلاء وهناك طلاء، الفرق بين قماشة وحائط، هذا هو الفرق!». تعثّرت علاقته بوالده بعد ذلك وبدأت الكوابيس تزوره، وكردّ فعلٍ غير واعٍ ضد والده بدأ يبتعد عن الدين كذلك، وبات لا يصوم ولا يصلّي بعد أنّ كان متديّناً ويحافظ على العبادات كلها. طبعاً والده لم يكن يعلم ماذا يجري مع ابنه الذي ازداد انغلاقاً على نفسه. مع مرور الوقت ازدادت كوابيس سعيد سوءاً وبدأ يرى الناس شياطين وملائكة. شياطين قريبون يحيطون به، وملائكة بعيدون عنه في أماكن قصيّة في الزمان والمكان.كانت حالته تزداد تفاقماً ولا أحد يحس به، وخاصةً والده الغارق في أوهامه الخاصة، حتى اليوم الذي حاول فيه الاعتداء على جارٍ لهم في البناء الذي يقطنون فيه. عندما سألته عن تلك الحادثة في ما بعد قال إن ذلك الرجل السافل كان شيطاناً متنكراً، والشياطين يجب أن تُقتل! سألته ومن أخبرك بذلك؟ أشار إلى ما وراء أذنه اليسرى وهمس: «هو من يخبرني بكل شيء، يعلم كل شيء!». كان حينها يتلقّى علاجاً مكثفاً، أدوية وكهرباء وجلسات تحليلٍ وكل شيء، ولم يتحسّن بشكل جيد بعد. بعدها تحسّن وشُفي تقريباً، بحسب كلام الأطباء والممرّضين. قال لي الدكتور معروف ذات مرة: «أنت وصديقك ستخرجان من هنا قريباً، كلاكما حمصي وذلك

أمر غير قابل للمعالجة!». وضحك إحدى ضحكاته النادرة فهو يحب المزاح عن الحماصنة، ويحب النكات التي تروى عنهم، وكلما قابلني يسألني عن نكتة جديدة. أقول له: «لا أعرف نكاتاً ولا أحفظ أياً منها، ولا أعرف الطريقة الصحيحة لرواية نكتة، ولو أعطيتني نكتة جيّدة سأرويها بشكل سيئ وأدمّرها». يبتسم ابتسامته الصغيرة ويقول: «وكأنك لستَ حمصياًا!». سعيد أيضاً لا يعرف نكاتاً ولا يرويها ولكنه يحب سماعها، الممرّض طلعت يروي لنا بعض النكات عن الحماصنة ونضحك عليها. نسيب وحده لا يضحك، يقول:»كثرة الضحك تُذهِب الهيبة!». سألته ذات مرة: «نسيب بِك متى ستخرج من هنا؟ ألا تريد الخروج؟». نظر إلي ببرود لحظات طويلة ثم قال بهدوء: «إلى أين تريدني أن أخرج؟ إلى عالم اللصوص والمنافقين في الخارج؟! هنا أفضل!». سألت نسيبًا هذا السؤال منذ زمن طويل، حين كنت في المستشفى، كنت أمرّ حينها بحالة من الحزن والكآبة، تلك الأنفاق الطويلة المعتمة التي أدخل فيها فجأةً وأخرج منها بصعوبة، أجد ضوءاً في نهاية المطاف، ولكن رحلة الخروج صعبة ومضنية.

كنت حزيناً وزادني جواب نسيب حزناً. عالم اللصوص والمنافقين في الخارج. يا لهذه الجملة المريعة، يا للحقيقة المرعبة. الدنيا مليئة باللصوص، وبعضهم خطر جداً، لا يسرق فقط بل يقتل أيضاً، الأشرار الذين أختبئ منهم على هذه الشاكلة، يريدون سرقتي ثم قتلي، لن أسمح لهم. أحمد الله دوماً على أني حصلت على الكتاب وصرت المؤتمن عليه والمكلّف بحلّ ألغاز شيفراته وكلماته في الفترة التي عادت فيها أمل إلى حمص بعد تخرّجها في الجامعة. كنت ما أزال أحاول وبصعوبة أن أتخرّج في هذه الكلية الملعونة، الكلية التي عشقتها وكرهتها، كما عشقت وكرهت ما أدرسه فيها. أحببت الفلسفة منذ صغري وقبل أن أعرف أمل ودرست فيها برغبتي وأحببتها أكثر بعد أن عرفت أمل

ووقعت في حبّها على الفور. كنا في السنة الجامعية الأولى، كم كانت أياماً جميلة. بعد تخرّج أمل وتعثّري أنا عادت أمل إلى حمص وحاولتُ أن أتخرّج في الدورة التكميلية وأخفقت، كنت سأعود إلى حمص كي أحتمي في دفء منزل جدّتي وحنانها ومحبتها - ما زالت الدموع تملأ عينيّ عندما أتذكّرها - وأستعد لامتحانات النصف الأول من العام الدراسي التالي علّني أنتهي من كابوس الجامعة، ولكن، وقع الكتاب بين يدي... وصرتُ شخصاً آخر.

– 16 –

شعرت بالامتلاء بعد انتهائي من تناول الطعام في ضيافة فريد هذا اليوم. ففي هذا الصباح هاتفني فريد وقال بصوته الهادر: «أنا وأم مهند ندعوك اليوم إلى الغداء، ستتناول طعاماً حقيقياً! ارتح قليلاً من الطعام الجاهز ومن ذلك التخبيص الذي تدعوه طبخاً! الطبخ خُلق للنسوان وليس لنا يا رجل!».

ضحكت وقلت له إنني سأكون عندهم في المنزل عند الساعة الثانية بعد الظهر. أعرف تمام المعرفة أن فريدًا كان يمزح عندما تكلّم عن الطبخ والنساء. فريد ليس من ذلك النوع من الرجال الذين ينظرون إلى النساء على أنهن أدوات لصنع الطعام يومياً، ولصنع الأطفال بين الحين والآخر. فريد كان مثقفاً ومنفتح الذهن ولكنه يحب المزاح، وخاصةً مع زوجته دعد حول هذه الأمور.

فكرت وأنا أعبث بقدّاحتي الـ«كليبر» السوداء أن معظم الطهاة المشهورين في أوروبا هم من الرجال، أليست هذه مفارقة؟ ولكني كنت مقتنعاً بأن لا شيء يضاهي طعام امرأة تطبخ في منزلها ولعائلتها بحب. سلمى لم تكن تحب الطبخ وليست ماهرة فيه، كانت أمي هي المسؤولة

عن المطبخ وتمضي معظم نهارها فيه، بينما أنا في عيادتي وسلمى في صيدليتها، ثم وبعد وفاة حماتها صارت سلمى تطبخ ولكن طعامها كان سيئاً. هل الحب له علاقة بالأمر أم إن ذلك مجرّد عمل يبرع فيه من يحبّه ويخفق من لا يحبّه؟ أصبحنا نعتمد على الطعام الجاهز وعلى تناول الغداء في المطاعم وعلى ما تطبخه أم سلمى وترسله لنا بحجّة أنها تريد أن نذوق هذه الأكلة أو تلك. أحياناً أدخل إلى المطبخ أيام العطلات وأعدّ بعض الأطباق الفرنسية البسيطة التي تعلّمتها خلال إقامتي هناك، والتي تعتمد على اللحوم بالدرجة الأولى لأن إعدادها سهل.

قال فريد وهو يتأمل زوجته دعد وابنته هنادي بحب وهما تجلبان أدوات المائدة والأطباق وتعدّان المائدة: «أحمد الله أنه رزقني زوجةً نَفَسَها طيب في الطبخ، فأنا أحب بطني كما تعلم!».

قلت وأنا أبتسم: «ما نسميه في بلادنا النَفَس الطيب في الطبخ يقوم على أربعة عناصر محدّدة إذا ما اجتمعت معاً كان الطعام لذيذاً أياً كان من حضّره».

«هات أتحفنا بآرائك المطبخية!».

«أتكلم جادّاً. اسمع، أولاً النظافة أمر مهم جداً لطيب المأكل؛ ثانياً المقادير الصحيحة من كل مادة تدخل في طهو هذه الأكلة أو تلك؛ ثالثاً احترام الوقت اللازم لكل خطوة في عملية الطهو إذ يجب إعطاء كل شيء حقّه مقداراً ووزناً صحيحاً؛ رابعاً وأخيراً، وبرأيي هذا أهم شيء في الموضوع، الحب! إن لم يطبخ المرء بمحبة للطهو ولمن يطهو لهم على حدّ سواء فلن يكون الطعام طيباً».

هتف فريد: «الله... الله... هذه فلسفة خالصة، إنها فلسفة الطبخ!».

بعد قليل كنا نأكل وأنا أثني على طبخ دعد الطيّب. كان هناك على المائدة، كبّة مقلية وكبّة لبنية ومقلوبة الباذنجان وملوخية بالدجاج مع الأرز، عدا عن حساء العدس والسلطة الخضراء والمخلّلات.

كان الجالسون حول الطاولة فريد وزوجته دعد وابنه مهند وابنته هنادي التي تصغر أخاها بسنة وأنا. يأكلون ويتحدّثون ويمزحون وأنا أشاركهم ذلك كله وعقلي في مكان آخر. الإحساس بالعائلة، دفء الوجود مع ناس تحبّهم ويحبّونك. شعرت بوحدتي الطاغية هذه الأيام وكأنها فراغ يمتصّني إلى المجهول، ثقبٌ أسود يبتلع كل شيء في طريقه. هل فقدتُ كل شيء؟! كان هذا السؤال المرعب يدور في عقلي عندما سألني فريد: «ما لك لا تأكل؟! بماذا تفكر؟ إياك أن تقول إن الطعام لم يعجبك؟».

ابتسمت: «على العكس، الطعام شهيّ جدّاً، لم آكل هكذا منذ فترة طويلة، سلمت يداك يا أم مهند».

قالت دعد مع ابتسامة ودودة: «صحتين، الأكل على قدر المحبّة».

«إذا كان الأمر هكذا سأفتق معدتي ولن أتوقف!».

كان هذا هو الضرب من الكلام الذي يدور حول مائدة الطعام.

بعد الانتهاء من تناول الغداء جلسنا أنا وفريد في الصالون الكبير وقد جلبت لنا هنادي الشاي. قال فريد وهو يصبّ الشاي في الكأسين الصغيرتين: «خلال اليومين الماضيين استطعت الحصول على معلومات جديدة».

تنبّهت وكنت قد بدأت أشعر بالخدر والنعاس بعد الغداء الدسم. أشعل فريد سيجارتي وسيجارته ورشف من الشاي ثم بدأ بالكلام: «أنت تتذكّر المحامي محجوب عبدالحق، أليس كذلك؟».

«طبعاً، إنه المحامي الذي اشتريت منه المنزل بالوكالة العامة التي يحملها عن مالكيه السابقين، وتبيّن لي الآن أنهم أخوال حامد».

«بالضبط، التقيت به البارحة في غرفة استراحة المحامين في السرايا، فدعوته إلى فنجان قهوة وتحدّثنا طويلاً، لقد تجاوز الستين من عمره

ولكنه ما زال نشيطاً ويعمل بهمّة عالية، هو من الصنف الثرثار والفضوليّ من الناس ويحب معرفة كل شيء عن كل شخص، ويتفاخر بأنه يعرف حمص وأهلها جميعهم! سألته، فحكى لي عن عائلة حامد، يعرف عنهم كل شيء حتى إنه يعرف أين يقيم أخوال حامد في أستراليا بالضبط، وماذا يشتغلون. وهو يعرف عن حامد الكثير ويتذكّر القضية تماماً،كما قلت لك همّة عالية ونشاط وذاكرة قوية وفضول لا حدود له، والجيد أكثر هو حبّه للكلام والثرثرة، محامٍ نموذجي!». ضحك فريد بسرور عندما قال ذلك وتابع: «وقد أخبرني عن أمل قيشانجي!».

كنت أصغي بجوارحي كلّها. رشف فريد من كأس الشاي ثم مجّ سيجارته متمهّلاً وكأنه حكواتي مخضرم يتقصّد إثارة فضول مستمعيه، ثم تكلم ببطء: «إنها تعمل حالياً في مديرية التربية والتعليم في حمص، هي الموجّهة الأولى لمادة الفلسفة وقد تزوجت ورزقت بولدين». سكت قليلاً، نظر في عينيّ وتابع: «زوجها ضابط شرطة متقاعد اسمه محسن زكريا، ليس من حمص ولكن أصله من المنطقة الشرقية،من الرَقّة أو دير الزور، لم أعرف بالضبط ولكنهما يقيمان هنا منذ نحو ثلاث سنوات، كانا يسكنان في حلب، فقد كان عمل زوجها هناك، كان عقيداً في الأمن السياسي آنذاك، ثم أصيب برصاصة في ظهره خلال إحدى المواجهات أثناء اقتحام بيت تحصّنت فيه مجموعة من الإرهابيين المسلحين خلال فترة الاضطرابات فسبّبت له شللاً نصفياً، وهو يعيش على كرسي متحرك منذ ذلك الوقت، رفّعوه إلى رتبة عميد وأحالوه إلى التقاعد مع معاش تقاعدي كامل ووسام الجمهورية، عادا إلى حمص بعد تقاعد زوجها وتدبّر لها نقل عملها وأن يكون إدارياً بدلاً من التدريس في الثانويات والمدارس».

سكت فريد وأفرغ ما تبقى في كأس الشاي في جوفه ثم أخذ يملأ كأسه مرة أخرى بتأنٍ.

سألته: «وماذا أيضاً؟».

ضحك فريد: «ألا يكفي هذا حالياً؟ ألم تكن مهتماً بمعرفة ماذا جرى لأمل بعد موت حامد؟».

«وعائلتها؟ أبواها وأخواها؟».

«أبوها شبه عاجز ولا يخرج من منزله أبداً، وأمها هي من تعتني به، وهما يسكنان بمفردهما في بيتهما القديم في بستان الديوان، أخوها الأصغر توفي بحادث سيارة منذ سنوات، أما أخوها الأكبر فهو الذي يدير أعمال العائلة حالياً، محلّهم في السوق المسقوف، مكان ضخم يوازي خمسة محلّات معاً، وأعمالهم في الأنتيكات مزدهرة، كانوا أغنياء وصاروا أغنياء جداً».

بعد فترة من الصمت والشرود قلت: «يجب أن أقابل أمل!».

– 17 –

التدوينات (7)

لم أقابل أبي بعد خروجي من المستشفى قطّ. آخر مرة رأيته فيها كانت عندما اصطحبني إلى هناك وسلّمني إلى الدكتور معروف. طلبت من جدّتي وقتها أن تأتي معنا فصحّتها لا تزال جيّدة بعض الشيء وتستطيع السفر، وهي زارتني في ما بعد بمفردها على أية حال. ولكنها رفضتْ، وكنت أتوقع ذلك، فهي تكره أبي ومن غير الممكن أن تصاحبه في سفر. لا تستطيع أن ترى وجهه فكيف بمرافقته في سفر طويل؟ كانت فكرة ساذجة خطرت لي حينها وطلبت منها ذلك وأنا أعلم أنها لن تتحقّق. اكتفيت بطرح الفكرة، هذا يكفي أحياناً. سافرنا لوحدنا أنا وأبي، ولم نتبادل كلمة واحدة طوال الطريق، مع أني كنت أشعر برغبة في الحديث، ولكن ليس مع أبي أو مع أي شخص مثل أبي. بقيت طوال مدة السفر أنصت إلى نصائح من أعطاني كتاب الأسرار وأؤكد له، من دون أن يسمعني أحد طبعاً، أني أخفيه جيداً في منزل جدّتي في مكان لا يصل إليه أحد حتى الجنّ الأزرق. غضب مني عندما قلت (الجنّ)

وطلب مني ألا أكرر هذه الكلمة مرة ثانية. لا أدري لماذا ولكني التزمت بالتعليمات، أنا ألتزم بتعليماته دوماً، وحتى الآن وبعد عودتي إلى المنزل وبعد أن أصبح نادراً ما يزورني أو أسمع صوته يأتيني من خلفي وفي أذنيّ الاثنتين معاً وكأنني أسمع صوتاً مجسّماً من فونوغرافين متماثلين يعملان معاً لحظة بلحظة، ما زلت ملتزماً بتعليماته. مضت مدة طويلة لم أسمع صوته، ولكني ألتزم بتعليماته ونصائحه. لولاها لقضى عليّ أولئك الأشرار الذي يريدون تدمير الكتاب، وقتلي طبعاً قبل ذلك. وجود الكتاب معي ينقذني ويحميني، ما دام معي الكتاب ولا يعلم به أحد إذن أنا بخير، هذه هي المعادلة ببساطة.

رأيت أمي آخر مرة عندما ماتت جدّتي، وبعد انتهاء فترة العزاء لم أعد أراها، ولا أريد ذلك أصلاً. لست متشوّقاً لرؤيتهما، هذان الكائنان اللذان جاءا بي إلى هذه الدنيا ثم أدارا ظهريهما لي، يا للجحود!بسبب تراجعي في دراستي على مدى أكثر من سنة وإخفاقي في التخرّج في الجامعة برفقة أمل، ثم امتلاكي لكتاب الأسرار، وبعد رفضي من قِبَل عائلة أمل عندما تقدّمت لخطبتها بمفردي، وهي خطوة كنت أظن بأنها خطوة عظيمة فلم أخبر أمل مسبقاً بها، ولكنها فوجِئَتْ وغضبت جداً مما فعلتُ، فقد كانت تريد مني أن أحصل على تلك الشهادة الجامعية التافهة أولاً... في ذلك المساء المشؤوم الذي خرجتُ فيه من منزلها شبه مطرود ولكن رافع الرأس، طلبت جدّتي من أبي، عبر والدتي طبعاً وليس مباشرةً، أن يصطحبني إلى طبيب يكون (يفهم في هذه الأمور) بحسب تعبير جدتي التي صارحتني وبخجل بذلك في ما بعد. الأمور التي كان يجب على الطبيب الذي سيراني أن يفهمها كانت تقلق جدّتي ولكنها لم تكن تقلقني. لست مريضاً. كنت أصرخ بذلك وأرى دموعها تترقرق في عينيها الحانيتين ولا أفهم السبب. كانت تقول لي: «أنت تغيّرت يا روحي، لم تكن هكذا، نومك، طعامك،

كلامك، شكلك، لونك، كله تغيّر». وما كان ممكناً أن تفهم أن ذلك كله أمر طبيعي بعد أن صرت شخصاً فائق الأهمية باختياري، الرجل المؤتمن على الكتاب والمكلّف باكتشاف أبجديته العجيبة واقتحام مغاليقها وترجمتها إلى لغة مفهومة، مفهومة للعامة من الناس أقصد، أولئك الغوغاء الذين يملأون الطرقات والشوارع والأسواق والمنازل ويلوّثون الأمكنة كلّها بهرائهم وقذاراتهم. أبتسم الآن عندما أتذكّر كلامها وهي تقول: «أنا خائفة عليك يا روحي». فيما كنت آنذاك أفكّر بيني وبين نفسي أنه من الجيد والمريح أنها لم تذكر من جملة ما ذكرته من تغيّرات طرأت عليّ، بحسب زعمها، كثرة دخولي إلى الحمّام للاستحمام عدة مرات في اليوم الواحد. لا أحب أن أتكلم عن هذا ولكن لا أدري ما هو الرابط العجيب بين تحوّلي إلى إنسان مميّز ومهم وبين كثرة ممارستي للعادة السرية!- كنت أفعلها سابقاً مرة كل ثلاثة أيام، وبعدها صرت أفعلها ثلاث مرات في اليوم - ولكن ذلك لم يستمر سوى بضعة أشهر أو بضعة أسابيع، ثم عدت إلى الإيقاع الذي اعتدت عليه. الاستحمام عدة مرات في اليوم الواحد أمر مملّ ومضيعة للوقت، ولكني كنت مضطراً لذلك، كنت مضطراً للاستحمام مباشرةً بعد ذلك الأمر المعيب حتى ولو كنا في عزّ الشتاء، فأنا لا أستطيع أن أهمل ذلك. الأمر ليس بيدي ولكن أخشى أن يحدث لي شيء ما وأنا لست متطهّراً! ماذا سيحلّ بي حينئذٍ؟! أفضّل أن أبقى محتاطاً للأمر، فإذا ما متُّ فجأة، وكل شيء وارد في هذه الدنيا الغادرة، لن أخجل من الوقوف أمام الملائكة وأنا لست طاهراً. الملائكة الذين يتحدّث عنهم سعيد دائماً، ويتحدّث عن الشياطين طبعاً فلا يمكن الحديث عن الملائكة من دون الحديث عن الشياطين، هكذا يقول سعيد وأنا أوافقه على ذلك. يقول لي: «يا جبريل، أنتم الملائكة طيبون، ولكن تحتاجون إلى بعض المساعدة كي تواجهوا الشياطين الشريرة، ربما ليس أنت، فأنت لا تحتاج إلى المساعدة، ولكن البعض يحتاج،

لذلك أقوم بمساعدته. إذا رأينا شيطاناً، فعلينا قتله، الشياطين تموت، الملائكة لا تموت، وهذا شيء جيّد في نهاية المطاف».

عندما رآني سعيد في المستشفى للمرة الأولى وكان قد أُدخل إليها قبلي بفترة قصيرة، أطلق عليّ اسم جبريل! سألته: «لماذا جبريل؟». قال: «أنت ملاك، أنت جيّد وطيّب، أنت جبريل الملاك!». ضحكت وقلت له: «أنا إنسان واسمي حامد وقد أكون أبعد الناس عن الملائكة». لم يتأثّر بكلامي بل تابع بحماسة: «أعرف أن اسمك حامد ولكن بالنسبة إلي أنت جبريل، أنت الملاك الخاص بي، أنت جبريلي!». عبست في وجهه وقلت بحدّة: «وهل تعتبر نفسك نبيّاً؟!». اصفرّ وجهه وقال بخوف: «أنا؟! أعوذ بالله، أستغفر الله، لا أبداً، سبّع فمك، اغسل فمك سبع مرّات يا رجل، لا، أنا إنسان يخاف الله، ولكنك ملاك أرسله الله لي كي يحفظني من الشرّ، أنا إنسان طيّب أحب الملائكة وأكره الشياطين، ولكن الملائكة طلبت مني مساعدتها على قتل الشياطين وأنا لا أخالف أمراً للملائكة الطيّبين، أنت طيّب، ألستَ ملاكاً؟ أنت جبريلي!».

طبعاً، في ما بعد لم يعد يقول هذا، استطاع الدكتور معروف بأدويته وكهربائه - المقيتة - أن يلجم أفكار سعيد، الغريبة والجميلة في الوقت ذاته، ولكنه بقي يسميني جبريلًا بيني وبينه فقط عندما نكون لوحدنا. وحتى الآن عندما يزورني في منزلي، أقصد منزل جدّتي رحمها الله، فما زلت لا أستطيع أن أقول منزلي ببساطة فهي لا تزال تملأ المنزل وتملأ كياني أيضاً، يخاطبني أحياناً بجبريل أو جبريلي. لا أعلّق ولا أناقشه بالأمر، من الجيد أن يراك الناس ملاكاً! ولكن المضحك في الأمر أن من يسمعه ينطق الكلمة لا يسمع جبريل بل يسمع (جبغيل) أو (جبغيلي)، فلثغة سعيد بحرف الراء تجعله ينطقها هكذا، كلمة لا معنى لها لمن لا يعرف سعيدًا. سعيد الطيب والمسكين الذي يؤمن بواجبه في مساعدة الملائكة على قتال الشياطين، والذي ظلمه أبوه الذي يظن نفسه متديّناً

بينما هو مجرّد شخص متزمّت وتافه لا يملك في جمجمته سوى الظلام. سعيد الذي اختار أن يعمل دهّاناً كي يبقى على اتصال بعالم الألوان التي عشقها والتي كان يحلم أن يملأ قماشات لوحاته بها وبأطيافها التي تحقّق وتعكس أحلام روحه التي تتوق إلى الجمال، وبات يرسم على الجدران الصمّاء البلهاء التي لا تعكس شيئاً سوى الصمت الغبيّ والثقيل الذي يعمّ العالم.

- 18 -

صباح اليوم التالي خرجت من المنزل قرابة الساعة العاشرة. تركت منى في العيادة بمفردها وقلت لها إني سأغيب ساعة واحدة على الأكثر. ذهبت ماشياً فالمسافة قريبة، ورغم البرد القارس إلا أن الجو كان صحواً والشمس تسطع بين الحين والآخر على فجوات لازوردية في السماء بحسب حركة الغيوم البيضاء، وشدّة هبوب الريح التي كانت ضعيفة ذلك الصباح. مشيت محاذياً سور محطة القطار، ثم اجتزت المبنى الكبير لمؤسسة الكهرباء وبعدها انعطفت صوب تقاطع شارع الكورنيش مع شارع طريق طرابلس حيث يقع مبنى مديرية التربية والتعليم على زاوية التقاطع راسخاً وهادئاً رغم كثرة المراجعين.

سألت موظف الاستعلامات عند المدخل عن مكان عمل السيدة أمل قيشانجي، فأخبرني الموظف إن مكتبها يقع في الطابق الثاني. صعدت الدرج على مهل وأفكاري تمور في عقلي. عندما وقفت أمام باب مكتب المرأة التي قرأت عنها كثيراً في الأيام القليلة الماضية كنت أشعر ببعض الرهبة وكأنني أتأرجح بين عالمين وزمنين. تنفّست عميقاً وطرقت الباب ودخلت.

كانت واقفة أمام خزانة للملفات قرب النافذة ترتّب بعض الأوراق، أشارت لي بالدخول وتابعت عملها. أمل قيشانجي امرأة طويلة ونحيلة، تملك جمالاً أخّاذاً وجاذبية واضحة، وجهها بيضوي وبشرتها بيضاء وصافية من دون أي أثر لمساحيق التجميل، عيناها زرقاوان واسعتان وجدّيتان، تملكان تلك النظرة التي توحي بعمر أكبر من العمر الحقيقي لصاحبتهما، شعرها أشقر غامق مقصوص بشكل قصير يمنحها هيئة حازمة. كانت ترتدي تايّوراً بنّياً أنيقاً وتحته قميصًا أصفر باهتًا، وتعقد حول عنقها الطويل والنحيل منديل حرير برتقالي اللون، ولا تضع أي حليّ سوى خاتم الزواج الذهبي في يدها اليسرى، ودبوس ذهبي صغير على شكل فراشة تزّين به صدر جاكيت التايور. امرأة جدّية وصارمة. هذا هو الانطباع الأول الذي تكوّن لديّ.

عندما انتهت من ترتيب أوراقها التفتت نحوي فعرّفتها على نفسي. ابتسمت ابتسامة مقتضبة من دون حرارة وأشارت إليَّ بالجلوس أمام مكتبها، وجلستْ خلف مكتبها على مقعدها الجلدي الوثير.

«كيف أستطيع أن أخدمك يا دكتور؟». البحّة التي خلبت لبّ حامد وتغزّل بها في تدويناته كانت واضحة في صوتها، ورغم الجدّية البالغة في كلامها ومظهرها. كانت البحّة اللطيفة، والتي من الممكن أن تصبح مع قليل من الخيال مغوية بعض الشيء، تجعل من صوتها أليفاً ومريحاً بشكل غامض.

تنحنحت ثم قلت: «مدام أمل، المصادفة البحتة كانت السبب في مجيئي للقائك هذا اليوم».

رفعت حاجبها الأيمن قليلاً بتساؤل ولم تتكلّم. انتظرَتْ أن أكمل كلامي وأوضّح لها. بدت وهي جالسة بهدوء وراء مكتبها شابكةً يديها بأصابعهما الطويلة والنحيلة، والخالية من الخواتم عدا خاتم الزواج، وبحاجبها الرفيع والمرفوع قليلاً بتساؤل لا فضول حقيقيًا فيه، ونظرتها

الباردة تجسيداً للجدّية والصرامة. تابعت بصوت حاولت جعله هادئاً قدر المستطاع ولا يعكس جيشان مشاعري في صدري: «منذ عدة أشهر غيّرت مكان سكني واشتريت منزلاً قديماً رمّمته وسكنته بمفردي، وبالمصادفة عثرت فيه على بعض الأوراق القديمة التي تعود إلى أكثر من عشرين عاماً».

سكتّ قليلاً ملتقطاً أنفاسي. لم تنطق أمل بحرف وعاد حاجبها إلى مكانه، ولكن التساؤل بقي في عينيها الواسعتين. خيّل إليّ وأنا أنظر في عينيها قبل أن أتابع كلامي أن لونهما الأزرق أصبح داكناً أكثر، ظننت أن ذلك قد يكون بتأثير غياب أشعة الشمس التي تدخل عبر النافذة العريضة بعد تكاثف الغيوم في السماء. لحظة الصمت كانت ثقيلة ومتطاولة. قلت أخيراً: «اسم حضرتك مذكور في هذه الأوراق!». لم تهتزّ فيها شعرة، ازدادت قتامة عينيها فقط. فتابعتُ: «هذا الأوراق تعود إلى حامد ابراهيم، كتبها قبل موته بمدة قصيرة».

شعرتُ بأن الزمن قد توقف، وأصبحتْ أمل كتمثال من الشمع أمامي، الشيء الوحيد الذي تغيّر فيها هو شحوبها، صار وجهها شمعياً تماماً.

أخيراً همستْ بصوت خافت كمن يكلم نفسه: «لم أكن أعلم أنه يكتب يوميات أو أي شيء من هذا القبيل!». وبعد لحظات من الصمت أغمضت فيها عينيها استعاد صوتها وضوحه وقوّته: «أظن بأن من المناسب أن تعطيني إياها إذًا!».

«من الممكن أن نتكلّم في هذا لاحقاً».

«لاحقاً؟!». كان الاستنكار لاذعاً في نبرتها: «ماذا تقصد؟!».

«أحب أن أطمئنك مدام أمل، لا شيء في اليوميات يسيء إليك».

كان صوتها جليدياً وهي تقول: «وكيف تسمح لنفسك بأن تقرأ يوميات تعود لشخص لا تعرفه؟! شخص مات منذ زمن طويل؟!».

قلت بهدوء: «هذه الأوراق، وهي في الحقيقة مجموعة من الدفاتر كانت مخبأة منذ 22 سنة ولا يعرف عنها أحد، ووقعت في يدي بالصدفة وقراءتها أمر كان سيفعله أي شخص في مكاني، الأمر المهم ليس قراءتها بل النتيجة!».

«ماذا تعني؟!».

«أودّ أن أسألك بضعة أسئلة عن حامد وعن تلك الفترة من حياتك».

همّت بالنهوض وهي تقول: «أظن أن المقابلة يجب أن تنتهي هنا لأنه...». قاطعتها: «أنا متأكد أن القاتل ليس سعيد زنزن!».

تجمّدت أمل ثم عادت لتجلس ببطء وهي تهمس: «هل كتب عن سعيد أيضاً؟!».

«كتب عن كل شيء».

«كل شيء؟!».

«مدام أمل اعذريني، القصة مؤلمة ومحزنة وفيها ظلم وظلمة، المرحوم حامد كان مريضاً نفسياً ولكني أعتقد بأنه لم يكن مصاباً بالفصام، ربما كان تشخيصه خاطئاً، أمور كثيرة خاطئة تم طيّها ونسيانها على نحوٍ متعمّد، أبحث عن الحقيقة فقط لا غير وأتمنى أن تساعديني بذلك».

همستْ: «لماذا؟ لماذا ننكأ الجروح القديمة؟!». ثم علا صوتها وعاد إلى طبيعته: «وما همّك أنت من ذلك كله؟! لماذا أنت مهتم بالأمر؟».

«كما قلت لك، القصة أثارت فضولي الإنساني والعلمي كذلك، لا أريد إزعاج أحد وبالذات حضرتك، ولكن من حق حامد علينا ومن حق سعيد أيضاً، عليّ أنا على الأقل، الشخص الوحيد الذي قُدّر له أن يطّلع على ما كتبه حامد أن أنصفهما».

قالت بصوت ضعيف فقد سطوته بعض الشيء وهي تحدّق في الفراغ: «ننصفهما! لا يوجد في الحياة أي إنصاف، إنها مجرّد كلمة لا معنى لها!».

«ساعديني كي أضع فيها بعض المعنى! شيئاً قليلاً منه على الأقل».

تنهّدتْ ونظرتْ في عينيّ بشكل مباشر. اختلفت عيناها تماماً عن اللحظات القليلة السابقة، غابت الصرامة، وغابت القتامة، كان هناك الماضي والحنين فقط، ثم إنها مدّت يدها إلى درج مكتبها وأخرجت علبة تبغ من نوع «كنت» وقدّاحة ذهبية صغيرة، وأشعلت سيجارة بهدوء وأناقة، عندئذٍ أشعلت سيجارة بدوري. غابت الصورة التي بدت جافّة في البداية لتحل محلها صورة تلك الفتاة العاشقة والمتمرّدة التي كانتها... وكان ثمّة الكثير من الكلام.

خرجت من مبنى مديرية التربية والتعليم بعد أكثر من ساعتين ومشيت عائداً إلى منزلي على مهل. الأفكار والمشاعر تصطرع في قلبي وعقلي بينما كانت السماء تحشد الكثير من الغيوم الرمادية القاتمة. لمع فجأةً برقٌ خاطف أضاء شيئاً من القتامة التي فرضتها الغيوم الداكنة، ثم سُمع صوت رعد عميق وبعيد، كانت السماء تستعد لجولة جديدة من المطر.

- 19 -

عدت إلى عيادتي، وفور أن دخلت طلبت من منى أن تحضر لي فنجاناً من القهوة وتذهب إلى منزلها، فقد حان وقت خروجها. بعد قليل كنت جالساً وراء مكتبي فيما أخذت الوقائع التي عرفتها من قراءة الدفاتر ومن فريد تمتزج بحكاية أمل التي روتها لي في مكتبها ونحن نحتسي القهوة وندخن، لتشكّل حكاية كنت أراها بعين الواقع بقدر ما أراها بعين الخيال. أخذ الضباب ينقشع شيئاً فشيئاً، وبدأتِ الصورة تتضح ببطء وبدأتُ أفهم تدريجياً ما جرى. كنتُ كمن يشاهد فيلماً سينمائياً قديماً فُقِدَ الكثير من لقطاته، أو كمن يستعيد ذاكرةً مفقودةً بصعوبة وألم.

في الأيام الأولى من خريف عام 1956 خطت أمل قيشانجي أولى خطواتها في كلية الآداب - قسم الدراسات الفلسفية، في دمشق. فتاة جميلة ومتفائلة تفيض حيويةً وثقة بالنفس، الحياة كلها أمامها وتفتح ذراعيها لها، هكذا كانت تظن. ابنة عائلة ثريّة من حمص، رضخ أبواها اللذان كانا يعتبرانها اللؤلؤة الأغلى في عقد حياتهما المشتركة لرغبتها في الدراسة الجامعية، بعد أن رفضت اقتراحهما في أن تنتسب إلى دار المعلّمات في حمص لتصبح معلّمة ابتدائي بعد سنتين لا غير، بدل

أن تبتعد عنهما أربع سنوات تستغرقها الدراسة الجامعية. واستطاعت بأسلوبها المقنع في الكلام وقوة حجّتها ورغبتها الشخصية القوية إضافة إلى حب والديها اللامحدود أن تحقّق أحلامها، جاعلةً شقيقها الأكبر فايز يتميّز غيظاً بعد أن انصاع أبوه لرغبة أخته المدلّلة، وسمح لها بالسفر إلى دمشق ومتابعة دراستها الجامعية، ولم يأخذ برأيه القائل بأن تقعد في المنزل بعد حصولها على البكالوريا إلى جانب أمها كي تتعلّم الطبخ والتدبير المنزلي بانتظار العريس المناسب. أخوها الأصغر فوّاز لم يوافق ولم يرفض. لم يكن له رأي يعتدّ به. عندما أخبرته بموافقة والدها على سفرها ومتابعة دراستها في كلية الآداب في دمشق سألها ما إذا كانت هذه رغبتها حقاً، أومأت برأسها فابتسم راضياً.

فايز لم يكن بتلك الأريحية. كان غاضباً جداً وارتبكت علاقتهما بعد ذلك أكثر من المعتاد، وعندما كانت ترجع في الإجازات إلى منزل أهلها كان ما يتبادلانه من كلام يقتصر على عبارات التحية المقتضبة التقليدية.

فايز كان اليد اليمنى لوالده في إدارة أعمال العائلة في مجال الأنتيكات والشرقيّات، وهو من يدير فعلياً المحل الكبير الذي يملكونه في السوق المسقوف، وقد ترك الدراسة في بداية المرحلة الثانوية وعمل مع أبيه، بينما فوّاز الأصغر من أخيه بسنتين حاز البكالوريا ولكنه توقف عندها والتحق بالعمل مثل ظلّ باهت لأبيه وأخيه. فوّاز بقي ظلّاً طيلة حياته القصيرة وحتى وفاته بحادث سير على أوتوستراد حمص - طرطوس عندما كان ذاهباً في إجازة صيفية مع أسرته الصغيرة في شهر آب من عام 1972. تحطّمت السيارة التي كان يقودها بسرعة بعد اصطدامها بجرّار زراعي محمّل بروث البقر، مات مباشرةً بينما نجت زوجته المتعجرفة، والتي قال النمّامون الذين شهدوا الحادثة إنها خرجت من السيارة المحطّمة وهي غاضبة من أكوام القذارة التي اندلقت عليها أكثر من جزعها على زوجها المصاب، وعلى ابنهما الوحيد الذي نجا. وعادت

الزوجة مع ابنها كي يعيشا مع أهلها، ولم يعد فوزي قيشانجي وزوجته مديحة المفجوعان بموت ابنهما الأوسط المفاجئ والمؤلم في عزّ شبابه يريان الحفيد الصغير إلا في الأعياد المتباعدة. بعدها بدأ فايز يستأثر بكل شيء، خاصةً بعد أن صار أبوه زاهداً في الحياة والعمل، وبات يفضّل الانعزال في منزله الكبير والعتيق والفخم في حيّ بستان الديوان بشكل دائم. في تلك الفترة كانت أمل تعمل مدرّسة لمادة الفلسفة في المدارس الثانوية، وتعيش في حلب مع زوجها ضابط الشرطة الذي نُقل حديثاً من الأمن الجنائي إلى الأمن السياسي، وتسلّم منصباً مهماً في ذلك الجهاز المهم في حلب. وحتى بعد وفاة فوّاز وبقاء فايز وأمل شقيقين لا ثالث لهما ظلت العلاقة بينهما فاترة، وحتى علاقته بزوجها ذي المنصب المهم كانت تتسم بذلك الفتور نفسه. ولطالما قالت أمل لنفسها إن أخاها وزوجها شعرا بالنفور المتبادل منذ اللحظة التي تقابلا فيها للمرة الأولى، وذلك عندما قام الملازم أول محسن زكريا، المولود في إحدى قرى الرقّة، والذي يعمل ضابط شرطة والمعيّن في مدينة حمص آنذاك، بالتقدّم إلى أهلها خاطباً أمل المتخرّجة حديثاً في الجامعة والمعلّمة في مدرسة ثانوية للبنات.لم يوافق أهلها وقتها عليه، بل رفضوا مباشرةً ومن دون تفكير الضابط الشاب ذي الأصول الريفية من المحافظة البعيدة، ولم يروه نِدّاً لهم ومكافئاً لابنتهم سليلة العائلة الغنية والنسَب العريق، ولكن رفضهم في ذلك الوقت لذلك الضابط الشاب الأسمر والطويل بلهجته المميّزة ونظرته القاسية والطاغية كان يناسب أمل تماماً، التي كانت تخطط حينذاك مع حبيبها حامد ابراهيم كي يتزوجا سراً، ورغماً عن إرادة الجميع، وأولهم عائلتها. ولكن تبدّل كل شيء فجأة، وكأنما يد عملاقة وخفيّة تدخّلت وغيّرت أماكن قطع الشطرنج كلها على الرقعة التي كانوا يعيشون عليها، وذلك بعد مقتل حامد المفاجئ والمأساوي. وعاد محسن ليطلب يدها ووافق أبوها وأخوها فايز عندئذٍ على طلبه بشكل مفاجئ وغير مفهوم لأمل، التي ما كانت تملك القدرة في تلك

الأيام الكالحة بالذات، والتي تلت مصرع حامد، على الرفض أو المقاومة أو الصراع، أو حتى مجرّد النقاش. كانت تعيش دوّامةً من الحزن واليأس، ورضيت أن تتزوج الشاب الأسمر المثابر والطموح بعد الضغط الذي مارسه عليها أبوها وأمها وهما يعدّدان لها صفاته الحميدة وميزاته الجيدة، ويقنعانها بأن زواجها من ضابط يُتوقَّع له مستقبل باهر أمر أكثر من جيد بالنسبة إليها، وإليهم أيضاً.

في تلك الأيام الفاترة من شهر أيلول من عام 1956، وعندما كانت أمل تخطو على الممرات المبلّطة في حدائق الجامعة السورية كما كانت تسمى آنذاك، متجهةً صوب كليّتها كي تبدأ دراستها في قسم الدراسات الفلسفية، وقعت عيناها المتعطّشتان إلى الحياة الجديدة التي ستحياها في دمشق، على حامد ابراهيم وهو يجلس بمفرده على أحد المقاعد الخشب في الحديقة، يدخّن بهدوء متأمّلاً السماء التي كانت خالية من الغيوم ذلك اليوم. لم يخطر ببال أمل في تلك اللحظات أن ذلك الشاب الأسمر والنحيل ومتوسّط الطول، والذي بدا بعينيه السوداوين والحالمتين والمندهشتين على الدوام، مختلفاً عن الجميع من حوله سيكون تذكرة مرورها إلى عالم من الآلام المتواصلة، التي لم تتوقف يوماً عن تذكيرها بأنها كانت ضحية عالم قاسٍ يمجّد القوة والكراهية أكثر من أي شيء آخر. التفتَ ببطء فالتقتْ عيناه السوداوان بعينيها الزرقاوين وهي تمشي بجدّية وسرعة، ولم تشعر حينها سوى ببعض التساؤل عن ذلك الشاب الذي لم تره في الكليّة من قبل. والذي قال لها لاحقاً إنه أحبها من النظرة الأولى.

«كنتِ مثل هيلين طروادة تجسّدتِ أمامي فجأةً، وكان لزاماً عليّ أن أكون باريسك الخاص! كنتِ تستحقين أن تبحر من أجلك أكثر من ألف سفينة!». هكذا قالت إنه وصف لها في ما بعد شعوره عندما رآها للمرة الأولى. كان حبّه لها مثل صاعقة صيفية مفاجئة أصابت غابةً جافة

فأضرمت فيها ناراً لا تنطفئ، فيما تشرّبت هي حبّه ببطء مثل إسفنجة جافة امتصّت ماءً محلّى بعسل يذوب على مهل. لم تدركها مشاعر الحب إلا في النصف الثاني من العام الدراسي بعد أن رأته عشرات المرات في قاعات المحاضرات وفي أروقة الكلّية وفي حدائق الجامعة متسائلةً عن تلك المصادفات التي تضعه في طريقها دائماً! ولم تكن تعلم حينها أن حامدًا كان يصنع مصادفاته بيديه بعد أن خلبت لبّه ابنة مدينته، تلك الفتاة الشقراء الصامتة والمتكبّرة والواثقة.

منذ أن تعارفا وتحادثا بعد أن اعترف لها حامد بحبّه بعد ظهر يوم بارد جداً من أيام شهر شباط، الشهر ذاته الذي أُعلنت فيه، وبعد عام كامل بالضبط على ذلك الاعتراف الجريء والسعيد، الوحدة بين سوريا ومصر، تلك الخطوة المفاجئة التي أشعلت بينهما نقاشات مطوّلة في ما بعد، وبادلته الاعتراف بمشاعرها التي نمت ببطء طيلة شهور، أدركتْ أن علاقتها به ستكون بداية صراع طويل وقاس مع عائلتها المحافظة، فقد كان حامد ولداً وحيداً لأبوين مطلّقَيْن، تخلّى عنه والداه ويعيش مع جدّته لأمه، ورغم أن عائلة أمه تعتبر من العائلات العريقة والغنيّة، إلا أن أباه كان ينحدر من عائلة فلاحين بسطاء يعملون بالأجرة في بساتين أغنياء حمص المتناثرة بين الميماس والوعر. توقعت ردّة فعل أبيها وأمها واستعدت لها، لم تحسب حساب فوّاز، فأمره سهل، ولكنها كانت تدرك شراسة الصراع الذي ستخوضه مع فايز. ولا بد أنها رأت السواد يجلّل الأيام القادمة، ولكنها لم تخَف ولم تتراجع، فالصلابة والعناد، اللذان يميّزان روحها المتوثّبة، جعلا من شخصيتها القوية سوراً متيناً يمكن الاحتماء خلفه عندما تهبّ العواصف المرتقبة. ولا شك أن ذلك السور كان مهماً جداً لهما معاً بعد أن أدركت وخلال مدة قصيرة أن حامدًا لا يملك ما تملكه من قوة وصلابة.كان عليها أن تكون

آرتميس[1] الخاصة به، إذ كان عليها أن تكون الحامية لهما معاً. كانت تكتشف حامد على مهل ولكن بوضوح. روح رقيقة، يعشق الفلسفة والموسيقى الكلاسيكية، مزاجي جداً وحسّاس للغاية، وعندما كان يمرّ بإحدى نوبات اكتئابه المتكرّرة كان حبّها له وصبرها وصلابتها وتماسك روحها هو ما يساعده على تجاوز تلك الفترات من الحزن واليأس، وهي فترات كانت قصيرة المدة بدايةً. وما يساعدها هي أيضاً على الاستمرار في الدرب الذي وجدت أنها تستطيع المضيّ فيه بشجاعة وإصرار. كانت متفوقة في دراستها وتنجح في مقرراتها دائماً وبعلامات جيدة. ولكن الغريب، أن حامدًا الذي كان في السنتين الأولى والثانية متفوقاً أكثر منها، وعلاماته أفضل من علاماتها، بدأ بالتراجع في السنة الثالثة، كما ازدادت فترات السواد التي يمرّ فيها طولاً وعمقاً. لم تكن تعلم ماذا يدور في ذهنه المتأجّج دائماً رغم تأكيده الدائم أنه يحبها ويثق بها ثقة عمياء، ويحكي لها عن كل شيء في حياته، ويكرّر لها أنها الأمر المشرق الوحيد، إضافة إلى جدّته، في أيام حياته العاصفة والمكفهرّة. كان يتغيّر بشكل بطيء وغير مدرَك بوضوح، ولم تنفع مشاويرهما الطويلة، والتي كانت في بعض الأحيان تجرّه إليها جرّاً في شوارع دمشق الهادئة، ولا نزهاتهما في مقاهي الربوة والغوطة، ولا أحاديثها المطوّلة التي ترسم بها حياتهما المشتركة مستقبلاً، في إعادته إلى ما كانت تظن بأنه كان عليه في بداية علاقتهما. ولرفع معنوياته المحبطة دائماً كانت تتعمّد أن تحدّثه وتحاوره عن الموسيقى الكلاسيكية، التي يعشقها رغم أنها هي نفسها ما كانت تستمع إليها ولا تتذوّقها كما كان حامد يفعل.

لقد قرأت الكثير عن الموسيقار الألماني ريتشارد فاغنر لكي تستطيع

---

(1) آرتميس: إحدى الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية، تقابلها ديانا في الميثولوجيا الرومانية، تعتبر الإلهة الحامية للنساء والأطفال الصغار والنباتات والكائنات الضعيفة وإلهة الصيد والبراري.

أن تتحدّث عنه لساعات مع حبيبها عاشق فاغنر وكارهه في آنٍ واحد. قرأت القصة الحزينة للأسطورة السلتية القديمة التي تحكي قصة حب تريستان وإيزوولد، وتعلقت بالقصة المأساوية وحاولت، في منزلها في حمص، الاستماع للأوبرا التي تحمل الاسم ذاته من دون نجاح كبير لقلة صبرها على المدة الطويلة التي تستغرقها الأوبرا، التي كتبها فاغنر استناداً إلى تلك الأسطورة بواسطة الفونوغراف الجديد بعد أن طلبت من والدها أن يشتريه لها مع مجموعة كبيرة من الأسطوانات، فجلب لها ما طلبته من بيروت مسروراً باندفاع ابنته للاستماع إلى الموسيقا الراقية كما كان يصف الموسيقا الكلاسيكية! فعلت ذلك كلّه لكي تجاري ما كان حامد يحكي عنه على الدوام. كان يعشق تلك الأوبرا ويستمع إليها مراراً عندما يكون في منزل جدّته البارد، والأكثر من واسع بالنسبة إلى جدّة وحفيدها. يحب تلك الأوبرا البالغة الطول بفصولها الثلاثة ويكره القصة، يجلّ الموسيقا ويزدري الحكاية. أمل تعتبر أن تريستان هو العاشق المسكين وإيزوولد هي العاشقة التعسة. فيرد غاضباً أن تريستان ما هو إلا غادر، وإيزوولد ما هي إلا خائنة! وأنه يجب تسمية الأشياء بمسمّياتها الحقيقية. فاغنر العبقري موسيقياً والمنحطّ أخلاقياً، هكذا كان يصفه عندما يتكلّم عنه. وعندما قالت له ذات مرة إن من الطبيعي إذاً أن يكون الموسيقي المفضّل لدى هتلر! قطّب حاجبيه ازدراءً ورفضاً، وتمتم بأن من المستحيل المقارنة بينهما.

إلى أن جاءت تلك الأسابيع، حينما كانا في السنة الرابعة، وأخبرها ذات يوم إنه يشعر بسعادة غامرة بادئاً بذلك شهراً من النشاط المحموم والثرثرة اللانهائية، والخروج في نزهات طويلة ومتكرّرة رغم الطقس البارد، وحديثه عن أحلامه وعن حياتهما المشتركة معاً في المستقبل. كان مندفعاً بسعادة ومتحمّساً بتهوّر إلا في دراسته، فقد أخذ يغيب عن معظم المحاضرات ولا يدرس شيئاً من المقرّرات والدروس

المتراكمة عليه، وعندما عاد إلى حامد القديم الذي تعرفه، عاد بشكل أسوأ من السابق. كان حزنه عميقاً وكآبته مضاعفة، الأمر الوحيد الذي لم يتغيّر فيه هو حبّه لها وحرصه على مشاعرها، وعلى أن تكون راضية على الدوام، ولكنه لم يكن يفلح في ذلك دائماً. كانت تغضب وتحزن ولكن ليس منه بل من أجله، كانت تحبّه وتخشى عليه، وعندما كانت تعبّر عن قلقها كان يتبسّم ويقول لها إن الفلاسفة كلّهم هكذا. فتؤكّد له أن ما يهمّها حالياً ليس الفلسفة، بل أن يكون هو إلى جانبها رجلاً تعتمد عليه، فتغيب ابتسامته الصغيرة عندما تقول ذلك، ويؤكّد لها بتجهّم أنه سيكون كذلك على الدوام وحتى يموت. هذه الدوّامة المدوّخة التي استمرت حتى امتحانات السنة الرابعة الأخيرة لم تمنعها من أن تحلم بحياة سعيدة مع الشاب الوحيد الذي أحبته في حياتها، كانت تحلم بأن يتخرّجا معاً في الجامعة، وأن يعملا معًا بالتدريس، وأن يتزوجا ويسيرا في طريق واحدة جمعتهما لأنهما كانا يجب أن يجتمعا. ولطالما همستْ له وهي ترنو إلى عينيه الواسعتين والحزينتين أنها تؤمن بأن هذا مكتوب منذ الأزل.

كان المؤشر الأول على أن الحياة لئيمة وغادرة وتحمل المآسي فقط، وليست جميلة وواعدة كما يظن بعض السذّج، هو عدم قدرة حامد على التخرّج، فقد رسب في مقرّراته الدراسية كلها في الامتحان النهائي! وكان قد مرّ قبيل ذلك الامتحان بفترة من الكآبة واليأس لم تستطع أمل رغم كلامها كله ورغم تشجيعها المتواصل أن تخرجه منها، وكانت النتيجة المنطقية هي الإخفاق الذريع. أما هي فقد تخرّجت بتفوّق يتيح لها أن تكون معيدة في الكليّة، لكنها رفضتْ ذلك وفضّلت أن تعود إلى حمص لتعمل معلّمة في المدارس الثانوية. وتدبّر لها والدها عن طريق معارفه الكثيرين تعيينها مدرّسة وكيلة في إحدى ثانويات المدينة مباشرةً وليس في الريف، كما جرت العادة عند تعيين المدرّسين الجدد.

عندما عادت أمل إلى حمص واستقرت فيها أصبحت لقاءاتها مع حامد قليلة وصعبة، فمدينة حمص كانت صغيرة في ذلك الزمن ويكاد الجميع يعرفون بعضهم بعضاً فيها. ولكنها التقت به مرات عدّة بعد انصرافها من المدرسة عقب انتهاء الدوام المدرسي، فكانا يمشيان في الشوارع الفرعية والأحياء الحديثة الناشئة، يتبادلان الحديث بسرعة قبل عودتها إلى منزلها في بستان الديوان في المدينة القديمة. كانت تشجّعه باستمرار على مواصلة الدراسة بجدّ كي يتخرّج في الجامعة ويستطيع أن يتقدم لخطبتها بعد حيازته الشهادة الجامعية والحصول على عمل، وكانت تدرك أنه حتى لو حدث هذا بسرعة كما كانت تتمنّى وتأمل، فإن إقناع أهلها بالموافقة على زواجها من حامد سيكون أمراً صعباً جداً، ولكنها كانت في ذلك الوقت لا تزال تتمتّع بالتفاؤل والصلابة المميّزَيْن لروحها المتوثّبة التي لم تكن قد بدأت بالتشقّق لتتحطّم في ما بعد. كان حامد يبدو آنذاك متحمّساً ليس فقط للدراسة والتخرّج بل لكل شيء. كان يبدو سعيداً جداً وواثقاً بنفسه وبالمستقبل معاً. ولكنها مع ذلك فوجئت وأصيبت بنوبة من الغضب الشديد طالت كل شيء، وطالت حامد نفسه الذي تسبّب بتلك المفاجأة وذلك الغضب، بعد أن أقدم على خطوته الجنونية وغير المفسّرة عندما زار منزل عائلتها ذات مساء خريفي بارد، بمفرده ومن دون أن يرافقه أحد، وتقدّم طالباً يدها من أبيها وأخويها بثقة لا يتمتع بها فارس مغوار وشاعري من فرسان العرب القدماء. صُدمت بما فعله كما صُدمت أكثر بردّة فعل أخيها فايز بالذات أكثر من بقية أفراد أسرتها. كانت تتوقع ردّة الفعل ولكنها لم تكن تتوقّع أن تكون بتلك الحدّة والقسوة، كانت تتوقّع أن يرفض أهلها حامد كصهرٍ لهم في البداية، فموضوع الأصل والفصل والنسب وشجرة العائلة شيء مهم جداً لهم. العرق دسّاس، ذلك كان مثَل والدها المفضّل، ولكنها لم تتوقّع أن يُعامل حامد بالطريقة التي عامله بها فايز على وجه الخصوص، فايز الذي كانت تشك عندما كانت طفلة صغيرة

بأنه لا يحمل بين ضلوعه قلباً مثل باقي البشر بل قطعة من الحجر. كان قاسياً جداً معه، وخاطبه بطريقة مهينة وألفاظ جارحة بينما كان والده صامتاً معظم الوقت، ومكتفياً برسم تعبيرات القرف على وجهه المترفّع. وفيما لم ينطق فوّاز بحرف طيلة ذلك اللقاء الكارثيّ تولّى فايز مهمة الحديث والإهانة والرفض والتحقير، وهو يحاول لجم غضبه المتزايد بأن يزيد من سرعة تحريك الكريّات الكهرمانية الكبيرة لسبّحته في يده اليمنى ويرفع من صوت طقطقتها، تلك السبّحة التي لا تفارق يده أبداً منذ أن اشتراها من تاجر يمني قبل سنوات، ويعتبرها الدرّة الثمينة في أنتيكاته الغالية. حامد، عملياً، طُرد طرداً من منزل محبوبته.

بعد خروج حامد من المنزل ذليلاً وحزيناً إلى درجة أنه بقي يمشي في الشوارع طيلة الليل، ولم يرجع إلى منزله إلا صباحاً، حيث وجد جدّته تكاد تموت خوفاً وقلقاً. أغار فايز على غرفتها كثورٍ هائج. كان تصرفاً غبياً من حامد أن يلمّح لذكور عائلتها في بداية حديثه أنه وأمل متحابان منذ السنة الجامعية الأولى. إذ بعد خروجه دخل فايز غرفتها بعينين تقدحان شرراً، وكان يريد ضربها، ولولا تدخل أبيها وأمها لكان صبغ جلدها صبغاً بالضربات كما كان يصرخ مهدّداً، فيما فواز مع والديه الخائفَين من شدّة غضب فايز يمنعونه من الوصول إليها. عاشت في ذاكرتها طوال السنوات الطويلة التي مضت مثل وشمٍ غير قابل للمحو، صورة يد فايز الغليظة وهي ترتفع محاولاً أن يهويَ بها على وجهها والسبّحة الكهرمانية بكريّاتها المدوّرة الكبيرة واللامعة بين أصابعه، حتى وهو يحاول ضربها والغضب يعمي عينيه لم تفارق تلك السبّحة يده! وذلك ما جعلها تكره السبّحات ومن يحملونها طوال حياتها. كانت أسوأ ليلة مرّت في حياتها حتى ذلك الحين، وكانت تتمنى لو ترى حامدًا أمامها كي تخنقه غضباً بسبب هذا الموقف الذي وضعها فيه. ما الذي دفعه كي يتقدّم لخطبتها، ولوحده من دون أي شخص من عائلته معه،

ومن دون أن يخبرها مسبقاً بما ينوي فعله، وقبل أن يتخرّج من الجامعة كما كانت تلحّ عليه أن يفعل؟ كان الأمر محيّراً وغامضاً، كما كان محيّراً وغامضاً لها أكثر حديثه المقتضب معها عندما استطاعت لقاءه بعد أيام عدة على ذلك المساء المشؤوم. لم يكن حامد الذي تعرفه، ازداد نحولاً وازداد توتراً، عيناه السوداوان الواسعتان لا تثبتان على مكان واحد، ولم يكن كلامه مترابطاً على الإطلاق. بدأت بالهجوم عليه لائمةً إياه على الكارثة التي تسبّب بها تصرّفه الأرعن ذاك، ولكنه لم يكن يبدو أنه مدرك تماماً لما فعله. تفوّه ببعض الكلمات السيئة بحق أهلها، نهرته ولكنه تابع شاتماً فايز وحده، وعندما هدّدته بأنها ستتركه وتمضي إذا ما استمر على ذات المنوال، قال بهدوء، وكأنه كان يتكلّم عن الطقس قبل لحظات، إنهما قريباً سيكونان دائماً معاً ولكن بعد أن ينجز مهمته! وعندما استوضحته عمّا يقصده سكت تماماً كمن أصابه الخرس فجأةً. قال لها أخيراً قبل أن يستدير وينصرف تاركاً إياها واقفةً كتمثال مصنوع بمقدارين متساويين من الدهشة والحزن،إنه رجل مختار، وإن عليها أن تنتظره، وإنه سيعود حال إنجاز مهمته العظيمة!بعد ذلك بأسابيع علمت أن والد حامد أدخله إلى مستشفى الأمراض النفسية في ضواحي دمشق. كان الخبر صادماً لها، ولولا صلابة روحها التي ولدت معها كهبة إلهية تساعدها على اجتياز دروب الحياة القاسية، ولولا عملها الذي كانت تبذل فيه جهدها ووقتها كله لانهارت وتشظّت إلى قطع صغيرة يصعب جمعها. بعد أن غاب حامد طويلاً ولم تسمع منه أو عنه شيئاً منذ ذلك اللقاء الغريب الذي تكلّم فيه بغموض عن شيء ما بصدد إنجازه، وبما أن منزل جدّته لا هاتف فيه كي تتواصل معه، اضطرت إلى القيام بخطوة ما كان من الممكن أن تقوم بها لولا القلق المتزايد الذي كان ينهش قلبها بأكثر مما تحتمل. استنجدت بجرأتها وقوّتها كلّها وقررت أن تزوره في منزله. رمت مخاوفها كلّها وراء ظهرها وذهبت وطرقت الباب ذات ظهيرة باردة عقب انتهائها من العمل، وأخبرتها الجدّة الحزينة بالأمر.

ولم تره إلا بعد عشرة أشهر. وجدته ذات يوم من أيام أيلول الماطرة يقف منتظراً خروجها من المدرسة على الرصيف المقابل، متوارياً خلف شجرة الكينا الضخمة التي اعتاد الوقوف عندها عندما كان ينتظرها. فوجئت بشدّة ولكنها تماسكت واتجهت صوبه. أمضت معه ساعة مشيا خلالها بهدوء تحت المطر محتمين بمظلتها الصغيرة، التي لم تستطع منع قطرات المطر العابثة من أن تبلّلهما. حكى لها باختصار عن المدة التي قضاها في المصحّة، وقال لها بتأكيد جازم وقاطع مثل جندي مطيع يؤكد لقائده إن الأوامر نُفّذتْ حرفياً، إنه قد تجاوز تماماً ما كان يعانيه. وعندما سألته عن السبب الذي دعاهم لإيداعه المستشفى، ابتسم بغموض وقال بنبرة غريبة بعض الشيء إنه لم يكن مريضاً بل مختبئاً! أحست بأن الأرض تميد بها عندما شعرت والخوف يجتاح قلبها أن حامدًا الذي يكلّمها الآن هو حامد نفسه الذي تحدث معها لآخر مرة قبل شهور عشرة، وكأن ذلك كان منذ ساعة فقط! حامد ليس غبياً، وإحدى الصفات التي جعلت أمل تتعلّق به في المقام الأول ذكاؤه اللمّاح. أكّد لها عندما انتبه إلى شحوبها أنه بخير، وأنها ستفهم كل شيء في ما بعد، وعاد فأكّد أنه يحبّها ويريد أن يتزوجها رغماً عن الجميع. قال الكلمة الأخيرة بصوت شابَهُ شيء من الحقد، وعندما أكّدت عليه أن يدرس ويتقدم إلى الامتحانات النهائية للحصول على الشهادة الجامعية لأن ذلك أمر حيوي جداً لهما ولخططهما، كانت الثقة تفيض من وجهه وهو يؤكد لها أنه سيفعل.

استمرت لقاءاتهما المختلسة بعدها لأكثر من شهرين. وقفت إلى جانبه وشدّت من أزره عند وفاة جدّته بعد أن كاد ينهار. حينها قال لها ذات مرة بصوت متهدّج إنه لولاها لكان أصيب بالجنون! كان من الغريب أن يستخدم مفردة جنون، فهو لم يستخدمها من قبل قطّ، كما لاحظتْ أمل. كانت في تلك الفترة سعيدة وتشعر بالفخر عندما كانت

تراه متماسكاً بفضلها، وعندما كان يخبرها أنه يدرس جيداً استعداداً للامتحانات، رغم أن البيت الفارغ والبارد بعد وفاة الجدّة الطيبة كان يسبّب له الألم والحزن. يبتسم ويقول لها إنه عندما يراها ولو دقيقة واحدة فإنه يتطهّر ويعود نظيفاً وقوياً من أجلها. لطالما كانت تشبيهاته واستعاراته تثير إعجابها وحيرتها معاً. حكت له وهي تضحك عن السرقة التافهة التي حدثت في المدرسة التي تعمل فيها، طالبة سرقت مبلغاً ضئيلاً من المال من حقيبة إحدى المعلّمات ولم يُعرف الفاعل على الفور. غضبت تلك المعلّمة كثيراً وكان زوجها يعمل شرطياً، فطلبت الشرطة على غير إرادة المديرة بعد أن اختلفتا حول طريقة التعامل مع الأمر. واستطاع الضابط الشاب برتبة ملازم أول الذي جاء على رأس الدورية أن يعرف السارقة بسرعة. ثم حكت له بعد أسبوع، ولكنها لم تكن تضحك هذه المرة بل كانت غاضبة ومستغربة بشدة في آن، أن ذلك الضابط الشاب الذي حقّق في حادثة السرقة في المدرسة فاجَأها وعائلتها معاً عندما زارهم خاطباً إياها. رآها في المدرسة وأعجب بها، هكذا قال لأهلها، وقال إنه كان يبحث عن عروس مناسبة تؤنس وحدته في غربته في حمص بعيداً عن أهله في قرية بائسة من قرى ريف الرَقّة. قالت لحامد لتطمئنه إن أهلها رفضوه من دون أن يسألوها عن رأيها بالأمر أصلاً.

بعث لها برسالة في مظروف مغفل من اسم المرسل إلى عنوان المدرسة عندما لم يرها لفترة طويلة، وكان ذلك في الفترة التي تلت خروجه من المستشفى وقبل وفاة جدته. فرحت بها كثيراً ومازحته عندما تقابلا بأنها سترسل له رسالة هي الأخرى ولكنها لم تفعل. وقبيل رأس السنة، وكانت الامتحانات الجامعية قد اقتربت، أرسل لها رسالة أخرى إلى المدرسة: قال فيها إنه يبذل جهداً كبيراً في الدراسة كي يحققا الحلم ويتزوجا ويعيشا في منزل جدّته الكبير والخالي إلا منه حالياً، وكي تحقّق

إرادتها بالزواج ممن تحبّ رغماً عن الإرادة المتخلّفة للعائلة المتزمّتة التي تعيش في كنفها، وخصوصاً ذلك الأخ النزق والأرعن والوقح المدعو فايز! وقد وجدت أمل في كلماته صلافة وعدم احتراس. ومع أنها غضبت من الكلمات والأوصاف التي استخدمها حامد من دون تبصّر وعاتبته عليها في ما بعد، إلا أنها احتفظت بالرسالة كما الرسالة السابقة بين أوراقها الخاصة، وبقيت طيلة السنوات اللاحقة تعتبر تصرّفها ذاك أحد أكبر الأخطاء التي ارتكبتها في حياتها.

إذ لم تكن لتتصور أن يصل الأمر بفايز، وهو في الثلاثين من عمره ومتزوج، أن يعبث بالأشياء الخاصة لأخته البالغة 23 عاماً من عمرها، وخرّيجة الجامعة والمدرّسة في مدرسة ثانوية. ولكن فايزًا كان هكذا، رجلًا لا تتوقّع ماذا سيفعل. هذه كانت كلمات أمل لتوصيف ما فعل. لكن فايزًا، وبعد قدوم حامد كفارس صعلوك ومغامر ليخطب ابنة زعيم القبيلة بمفرده معتمداً على عواطفه وخيالاته فقط، دخل في ذلك المساء المشهود إلى غرفة أخته في غيابها ليفتش بين أشيائها وفي كتبها وأوراقها. وهكذا، ومن دون أن تتوقّع أمل شيئاً على الإطلاق عثر على رسالة حامد الأخيرة لها. واجهها بمفرده ومن دون أن يخبر أباه أو أمه بالأمر. لم يحاول ضربها هذه المرة، وكانت المواجهة بينهما كلامية فقط، ولكنها قاسية ومؤلمة وجارحة. أكّدت له أمل أن ما فعله يعتبَر تصرّفاً غير أخلاقي، وأنها إنسانة بالغة وحرّة ومن حقّها أن تفعل ما تريد. غضب بشدة وصاح وأرغى وأزبد. ووصفها بأنها فاسدة ومدلّلة، وأن والديه أفسداها بالدلال، ولو فعلت ما تنوي فعله فإنها ستسبّب الخزي له ولأبيها وللعائلة بأكملها، وأنها ستنكّس رؤوسهم أمام الناس وتجلّلهم بالعار. لم تهتم بما قاله كلّه، وتماسكت أمامه بقوة وشجاعة كلبؤة تدافع عن أشبالها، ولم تتراجعِ أو تضعف. تركها أخيراً ووجهه محمرٌّ من الغضب، وخرج وهو يتفّ اللعاب من فمه، ويصرخ بأنها جاحدة وقليلة

التربية، وأنه إذا مات مجلوطاً بنوبة قلبية ستكون هي السبب وستحمل حينها وزر موته طوال حياتها!

بعدها انتظرت أياماً طويلة أن يأتي حامد لينتظر أمام المدرسة كي يقوما بمشوارهما المعتاد وتخبره بما جرى. ولكنه لم يظهر، ولم تره بعد ذلك قطّ.

– 20 –

انهارت أمل أخيراً. لم تستطع القوة التي حباها الله بها مذ خلقت، ولا الصلابة التي اكتسبتها في سنوات عمرها البالغة ثلاثة وعشرين عاماً، أن تحميها من ذلك الانهيار الذي لم تكن هي نفسها تتوقّعه.

عندما علمتْ أن حامدًا قُتل على يد صديقه سعيد في منزله، وقد نقل لهم الخبر فايز عن صفحة الحوادث في الجريدة المحلّية ذات يوم بارد وهو يحاول كتم سروره، سقطتْ على الأرض مغشيّاً عليها ولم تستوعب ما جرى إلا بعد أسبوعين أمضتهما في سريرها لا تعي شيئاً من حولها. وبعدها بقيت أسبوعين آخرين لا تنطق بحرف. هذا الشهر كان مفصليّاً في حياتها. عادتْ بعد ذلك إلى حياتها وعملها، ولكنها لم تكن أمل السابقة. أمل تلك التي أغمي عليها عندما سمعت الخبر ذهبتْ إلى الأبد، ووُلدت أمل جديدة تملك الأعصاب الحديدية نفسها، والقلب الجريء ذاته، والثقة والتماسك السابقين ولكنها فقدت المشاعر. اختفى أي شيء يمتّ إلى العاطفة من روحها.

لم تقل ذلك بحرفيّته واكتفتْ بالكلام العام والعائم. ولكنني عندما كنت جالساً في عيادتي أستعيد ما سمعته منها وأفكر فيه، استنتجتُ

ذلك وأدركته تدريجياً، واستطعتُ أن أرى عبر الأزمنة والأمكنة الهيكل الجميل والفارغ من الداخل الذي تحوّلت أمل إليه. استعدتُ حديثها وتذكّرته كلمة كلمة. تذكّرت نظراتها ولفتاتها، ونبرة صوتها المتغيّرة بحسب مجرى الكلام. كانت امرأة حزينة ووحيدة. هكذا رأيتها، رغم أنها متزوجة وأمٌّ لولدين وأمّها وأبوها وأخوها الأكبر على قيد الحياة وتراهم باستمرار، إلا أنها كانت في الحقيقة امرأة وحيدة تعيش داخل نفسها ومع ذاتها فقط. كان عملها هو الشيء الوحيد الذي تهتم به حقّاً، وربما كان طوق النجاة الذي أنقذها طيلة هذه السنوات. رزقت بصبيين اقتربا من مرحلة الشباب الآن وكانت تحبهما بالطبع كأي أمّ، ولكنها كانت تشعر دوماً بأن ثمّة جدرانًا من الزجاج الرقيق والشفّاف ولكنها صلبة جداً ولا تُكسَر تفصلها عن الجميع من حولها، حتى ولديها. كانت أمل الأخرى التي وُلدت منذ اثنين وعشرين عاماً، ويفصل بين الاثنتين وادٍ سحيق ومظلم اسمه حامد ابراهيم الذي قُتل بينما كانا يخططان للزواج.

جمعتُ الخيوط التي استخلصْتها من الدفاتر مع النسيج الرقيق، الذي حاكته أمل في مكتبها في مديرية التربية وهي تحكي وتدخن سجائر الـ«كنت» وترشف من فنجان قهوتها، بعد أن طلبت لنا فنجانين من القهوة الثقيلة من دون سكّر، واستطعتُ أن أرسم صورة شبه واضحة لما كان عليه حامد منذ ربع قرن. بتّ أعتقد، وأكثر من أي وقت مضى، بأن حامدًا كان مصاباً باكتئاب ثنائي القطب مع هلوسات هذيانية في الطور الهوسي، وليس بالفصام أياً كان نوع الفصام الذي شُخّص له، وأُدخل بسببه إلى مستشفى الأمراض النفسية. ولم يكن من المستغرب أن يتحسّن خلال بضعة أشهر ويغادر المستشفى لأن الأدوية المستخدمة في هاتين الحالتين سابقاً هي نفسها تقريباً. لم يذكر حامد في دفاتره أسماء الأدوية التي كان يتناولها، ولكنه قال إنه كان يعالَج في المستشفى

مثل صديقه سعيد بالصدمات الكهربائية، وهذه المعالجة قد تكون مفيدة في بعض الحالات الشديدة من الذهان المصاحب للاكتئاب ثنائي القطب، ولكنها على العموم ليست مستخدمة حالياً، وبات الاعتماد على المعالجة الدوائية بالدرجة الأولى، وقد كنت من مؤيدي التركيز على جلسات التحليل النفسي، على عكس الكثيرين من زملائي. فهل أدّى التشخيص الخاطئ والمعالجة غير الدقيقة بالتالي إلى تراجع حالة حامد بعد خروجه من المستشفى، وأسهم في ما جرى لاحقاً؟ ربما، هذه الـ(ربما) مفعمة بكثير من الاحتمالية المشوّشة. هكذا دارت الأسئلة الكثيرة مع الإجابات المبهمة في ذهني، وفي الحقيقة لم أكن أملك إجابات دقيقة على الإطلاق.

عندما سألتني أمل قبيل انصرافي أنه ما دمت أقول إنني متأكد من أن سعيدًا ليس القاتل فمن هو إذًا؟ قلت لها إني لا أعلم، وليس لديّ أدنى فكرة عن ذلك. بدا أن جوابي القاطع أحبطها. نظرتْ إليّ بعينيها الزرقاوين المعتمتين وقالت بهدوء: «إذا ظننت في أي وقت أنني أستطيع مساعدتك فعد إلى زيارتي». شكرتها وخرجت من الغرفة المدفّأة جيداً بالتدفئة المركزية وأنا أفكّر بأني ما زلت أتخبّط في الظلام رغم كل ما سمعته من أمل الحزينة حزناً يبدو أبدياً.

عدت إلى الدفاتر أقرأ فيها بتمعّن محاولاً قراءة ما بين السطور ومحاولاً ترجمة الكلمات المراوغة والعبارات الملتبسة التي خطّها حامد بيده ذات الأصابع الطويلة والنحيلة، وبخطه الصغير والجميل والمقروء بسهولة رغم التواء الحروف وكثرة منحنياتها. حروف تدور وتنحني وكأنها تريد إخفاء معانيها داخلها وعدم كشفها بسهولة. تخيّلت الشاب التعِس يكتب وهو يستمع إلى موسيقاه المفضّلة عن طريق الفونوغراف القديم الذي خلّفه وراءه مع كثير من الأسطوانات أحد أخواله المهاجرين. يستمع ويعيد الاستماع وطوال ساعات الليل

أحياناً إلى الأسطوانات الأربع ذات الـ 33 لفّة بالدقيقة والمسجّلة عليها أوبرا تريستان وإيزوولد التي يستغرق عزفها أكثر قليلاً من أربع ساعات.

ومثل سفينة شراعية تبحر في بحر ساكن بلا رياح مرّ الوقت بطيئاً وهادئاً.

كنتُ جالساً في غرفة المكتبة وراء مكتبي الصغير، وقد تجاوزت الساعة العاشرة ليلاً، والكهرباء عادت لتعمل منذ قليل بعد انقطاعها طيلة ساعات العصر وبداية المساء، وقد أشعلتُ المدفأة الكهربائية الصغيرة ذات الوشيعتين وغارقاً في أطياف الزمن القديم، الذي عاش فيه من سكن هذا المنزل منذ أكثر من ربع قرن. وكنت أتساءل عمَّ يدعونني للعيش دائماً في الماضي؟! ألم يكن ذلك بالضبط ما دعاني إلى بيع الفيلّا القديمة في حيّ الملعب والتخلّي، أو محاولة التخلّي، عن ذكرياتي كلها؟ عشت فيها وحيداً بضعة أشهر بعد الطلاق، ولكن الصمت المعشّش في زواياها، والظلال الممتدة في غرفها العديدة الموزّعة على طابقين، لم يتركا لي المجال كي أستعيد أنفاسي بعد السنوات اللاهثة الأربع التي مرت بي بعد عودتي من فرنسا، ثم افتتاحي العيادة، ثم موت أبي، ثم زواجي، ثم موت أمّي، ثم خلافاتي مع سلمى، ثم طلاقي... هذا كله عدا عن وضع البلاد التي كانت تعاني كثيراً في هذه السنوات المجنونة، وتسير على حافة الهاوية، لكن متى سننتهي من السير على تلك الحافة؟ نعيش على حافة الهاوية منذ قرون فهل سيستمر الأمر قروناً كثيرة أخرى ونحن لا ندري؟ تساءلت وأنا أشعل سيجارة جديدة. أحسست بآلام ظهري تزداد، وعمودي الفقري لا يتوقف عن تذكيري بأني مصاب بفتق نواة لبّية قطنية تسبّب لي آلاماً في ظهري وساقي اليمنى وخدراً في قدمي. صديقي مفيد، جرّاح الأعصاب، حذّرني من إهمال حالتي ونصحني بإجراء عمل جراحي رفضته حالياً، واكتفيت بالمعالجة

الدوائية والراحة والاستلقاء لأطول وقت ممكن. ابتسمتُ بسخرية. الراحة، تلك الكلمة الغامضة والمضحكة. من أين نجلب الراحة؟ وهل أستطيع الاستلقاء طيلة الوقت؟ نفّذت النصائح الطبية لبعض الوقت، فتراجع الألم وأصبح خفيفاً ومتباعداً، ولكنه الآن عاد ليذكّرني بنفسه بعد أن ازدادت فترات جلوسي الطويلة وراء مكتب عيادتي، أو مكتبي في غرفة المكتبة لأقرأ وأفكّر.

توجهت إلى المطبخ وتناولت حبّتين من دواء مسكّن للألم مع كأس من الماء، ثم عدت متمهّلاً. توقفت في الممر أمام باب غرفة المكتبة. الباب المواجه له هو باب غرفة النوم الرئيسية في المنزل، غرفة نومي حالياً. دخلتها ووقفت أتأمل ليس أثاثها الحالي الذي يخصّني وأغراضي الشخصية، بل كنت أتأمّلها عبر الزمن. ترى هل كانت هذه غرفة نوم الجدّة؟ تلك الجدّة التي لولاها لضاع حامد طفلاً قبل ضياعه شاباً؟ هل كانت تنام هنا؟ تنحني ببطء الشيخوخة أمام خزانتها العتيقة كي ترتّب الثياب الداخلية والملاءات المغسولة والمطويّة بعناية، والأغطية والمناديل الحريريّة المكويّة بحرص، والتي تفوح منها رائحة الصابون؟ هل كانت تستلقي هنا على سريرها النحاسيّ القديم والكبير وهي ترتّل قبل أن تنام محرّكةً شفتيها من دون صوت ما تسعفها به ذاكرتها من آيات قرآنية وأدعية، بينما عقلها يسافر عبر الأماكن البعيدة وهي تحاول أن تتذكّر وجوه أولادها الثلاثة المهاجرين إلى أستراليا، والذين رفضت دعواتهم المتكررة لتسافر وتقيم معهم في بلدهم المستعار الجديد؟ هل كانت تفكر بابنتها عامرة التي تزوجت ثانيةً وأنجبت عدة أولاد ونسيت ابنها حامد بعد أن تخلّت عنه كما تخلّى عنه أبوه؟ هل كانت تشعر بالحزن يغمرها وهي ترى حامدًا أمامها يروح ويجيء، ثم يسافر إلى دمشق ليدرس الفلسفة التي يحبها، ويعود في الإجازات مشتاقاً لها ولمحبتها ولطهوها اللذيذ، وللمعمول بالفستق الحلبي والمعمول

بالعجوة، الذي كانت تعدّه خصيصاً له لأنه يحبه ويأكله بشغف؟ كيف أمضت الأيام والأشهر الباردة بمفردها عندما كان حامد نزيل مستشفى الأمراض النفسية وهي تحلم بعودته معافى من جديد؟ هل كانت تلوم عامرة، ابنتها الوحيدة العنيدة وقاسية القلب، التي تحدّت أسرتها وتزوجت ثائراً ومقاوماً عشقته عندما كان مصاباً وهارباً من الفرنسيين، وخلب لبّها بشجاعته ووسامته وطوله الفارع، ومعرفته الوثيقة بنظير النشيواتي وخيرو الشهلا وغيرهما من الثوار، الذين كانت بطولاتهم في قتال الفرنسيين على كل لسان في حمص، بعد أن كان فلّاحاً يعمل في البساتين، ثم أصبح تاجراً للقماش بمساعدتها بعد زواجه منها، ثم أصبح رجلاً مكروهاً وزوجاً سابقاً لا تريد رؤيته والاتصال به على الإطلاق؟ هل كانت تتساءل فيما عيناها تتوسّلان النوم على السرير الواسع في الغرفة الكبيرة والباردة في المنزل الخالي إلا منها عند سفر حامد إلى جامعته، كيف تحوّل الحب الجارف، الذي جمع البستاني الثائر والفتاة الرقيقة ابنة الأكابر، إلى كراهية متبادلة وطاغية إلى درجة أن هذه الكراهية شملت الحصيلة الوحيدة التي خرجا بها خلال سنوات خمس من الحياة المشتركة الحافلة بالخلافات والمشاحنات، وهي ابنهما الوحيد حامد؟ خرجتُ من غرفة النوم وعدت إلى غرفة المكتبة، أطفأت المدفأة الكهربائية ودسست علبة التبغ والولّاعة في جيب بنطالي وخرجت من الغرفة. وضعت معطفي المعلّق على المشجب بجانب باب المنزل على كتفيّ من دون إدخال ذراعيّ في الكمّين، ثم دخلت إلى العيادة. الباب الوحيد المفضي إلى الحديقة موجود في غرفتي في العيادة. كان ثمّة بابان في المنزل قديماً يفتحان على الحديقة، واحد في الصالون الذي بات الآن غرفة العيادة، والآخر في غرفة الطعام التي صارت غرفة الانتظار. أغلقتُ هذا الباب الأخير نهائياً وتركت الباب في غرفتي لينفتح على الحديقة الصغيرة. ألسنا متسرّعين بقراراتنا دائماً؟ هل يوجد مخلوق على وجه الأرض يشعر بشعور اسمه الندم

سوى الإنسان؟ تركت أفكاري تتبعثر في رأسي وخرجت إلى الحديقة. مصباح الشارع ينير جزءاً منها فقط، هبطت الدرجات القليلة إلى القبو وفتحت بابه غير المقفل ودخلت إلى البرد ورائحة الرطوبة، مددت يدي وبحثت متحسّساً الحائط لأضغط زرّ تشغيل المصباح الكهربائي الوحيد المتدلّي من السقف، والذي يعطي نوراً أصفر باهتاً. أغلقت الباب ورائي ووقفت أتأمل المكان وكأني أراه للمرة الأولى. اتجهت صوب خزانة الخشب الكبيرة والعتيقة حيث وجدت الحقيبة القديمة. علمت مما قرأته في الدفاتر أن هذه الخزانة موجودة في القبو منذ أن كان حامد يسكن في المنزل، فقد ذكر في إحدى الصفحات أنه يخبئ دفاتره في حقيبة قديمة ويضعها في خزانة في القبو ويقفل عليها بقفل اشتراه خصيصاً لذلك، رغم أنه كان يسكن لوحده في المنزل، ولم يكن تصرّفه ذاك مفهوماً، وربما كان مفهوماً في نهاية المطاف. حامد كان يخبئ أسراره وأوهامه عن الناس. هكذا دار في ذهني وأنا أتأمّل الخشب البنّي الباهت والمتآكل الذي نخره السوس. ولكن... أيّ ناس؟! حامد كان يعيش متوحّداً وبعيداً عن الجميع، لم يكن يقابل في الأشهر الأخيرة من حياته سوى أمل وسعيد وفي أوقات متباعدة، حامد كان وحيداً وحدة ممضّة لم تكن تناسب وضعه النفسي على الإطلاق. ذكّرت نفسي بهذا وأنا أُخرج علبة التبغ والقدّاحة من جيبي وأشعل سيجارة. ترى هل كان حامد يكتب هنا في القبو أم في المنزل؟ لم يذكر في دفاتره أي شيء يتعلّق بهذا، ولم يذكر سوى مخبأ حقيبته ودفاتره الغالية، وهو أمر ربما يكون غريباً بعض الشيء إلا إذا أخذنا في الاعتبار أنه كان متأكداً أن ما من إنسان غيره سيقرأ ما يكتبه في أوقاته الطويلة التي يمضيها في المنزل وحيداً إلا مع أفكاره وأوهامه والموسيقا التي يستمع إليها مراراً وتكراراً من دون ملل.

تلك الوحدة وذلك الملل كانا زادي في الشهور التي أمضيتها في

الفيلّا القديمة قبل أن أحرق مراكبي كلها وأبيعها لأشتري هذا المنزل الأصغر منها بكثير، والذي جعلت مكان عملي فيه لكي أضيّق الأماكن التي تحيط بي. كانت الفيلّا كبيرة وواسعة جداً، مؤلّفة من طابقين فسيحين من الفراغ والذكريات، واستعادت ذاكرتي كل شيء. الحديقة الكبيرة الملتفّة حول الفيلّا كلّها، والمزروعة بأشجار السرو والصنوبر في الجانب المطلّ على الشارع وأشجار الرمّان والأكي دنيا وعرائش العنب الأحمر في الخلف، وفي الحدائق الجانبية تنتشر شجيرات الياسمين والفلّ الأبيض، وبينها تتوزع شتلات الورد الجوري والقرطاسيا الوردية والحمراء. تلك الحديقة التي أُهملت بالتدريج بعد وفاة والدي الذي كان يحبها ويعمل فيها كي يتسلّى ويخفّف من ثقل الوقت بعد أن تقاعد عن العمل، وأعطاني عيادته لأجعلها عيادتي، ثم أُهملت أكثر وبات شجرها لا يطرح سوى الأوراق الجافة والثمار اليابسة. الدرج الرخاميّ العريض المؤدّي إلى الصالون الكبير بكنباته العتيقة ذات القماش المخمليّ الزيتونيّ اللون، والموشّى بلون الذهب، وثريّاته الكهربائية ذات عشرات المصابيح، وأرضيته من الرخام الشطرنجيّ النموذج بتناوب الأبيض والأسود، رخامٌ بارد وكثير جداً، وفرة من الرخام. الأدراج وبلاط الصالونات وغرف الاستقبال والجلوس والحمّامات وحواف شرفات الطابق الثاني الحاملة لدرابزينات الحديد المشغول بأناقة وجمال، ورخام كثير في المطبخ الواسع جداً والمطل على الجانب الخلفي من الحديقة. الأثاث المتراكم في غرفة الجلوس، وغرفة الاستقبال الملحقة بالصالون الكبير، وغرفة الطعام الفسيحة، وغرف النوم في الطابق الثاني، أثاثٌ جميل وفاخر ومتنوع، جُمع عبر السنين الطويلة وفائضٍ عن حاجة ثلاثة أشخاص أصبحوا اثنين، ثم أصبح الشاغل الوحيد تائهاً بين الغرف العديدة، والخشب العتيق، والقماش المخمليّ الملوّن، والثريّات الكبيرة، ونحاس الأدوات والمواعين المطبخية، وأواني الزينة المبعثرة في الأبهاء والزوايا، والخزائن المطعّمة بالصدف المليئة بأطباق القيشاني

والبورسلين الأبيض، والخزف الصيني، وأدوات المائدة الكثيرة جداً والتي تغصّ بها دروج الخزائن.

في الليالي الباردة والتي تهبّ فيها رياح حمص التي لا تنقطع، وفيما الستائر المخمليّة الخضراء الثقيلة تهتزّ رغم ثقلها أمام النوافذ محكمة الإغلاق،كانت العتمة المعشّشة في الزوايا والتي لا تفلح أيُّ إضاءة في إزاحتها من أماكنها الغابرة والغامضة، تحرّك في نفسي المخاوف والذكريات المعجونة معاً. وعلى قدر اشتياقي إلى ذلك كله عندما كنت في باريس أصبح ذلك كله ذاته ثقيلاً على نفسي. عندما كانت سلمى تتأفّف وتقول، وخصوصاً بعد وفاة أمي، إن هذه الفيلّا كبيرة علينا لوحدنا فقط، وإنها لم تحبها منذ سكنتها أول مرة عروساً متفائلة بالحياة ككل العرائس السعيدات، كنت أسخر منها قائلاً: أتريدين أن تستبدلي بهذه الفيلّا شقة صغيرة كعلب الكبريت؟ وعندما انسحبت سلمى من حياتي مرغمةً، كما كانت تؤكّد، تاركةً زوجاً عجز عن منحها ما اعتبرته هدف حياتها الحقيقي، وحيداً مع أحزانه وحيرته، بات المكان الذي شهد كل أمر طيّب وجميل في حياتي عبئاً ثقيل الوطأة على روحي التي باتت تضيق من كل شيء. الذكريات لا أمان لها. هكذا قال لي ذات يوم بعيد مريض عجوز كنت أجري معه جلسات مطوّلة من الحديث، محاولاً مساعدته بتحليل ما يؤرّق ذلك العجوز الفرنسي، الذي لم يمنعه عمره المديد من التماس مساعدة أطباء النفس الشبّان، الذين لم يعيشوا ربع ما عاشه من سنوات. فهمتُ تلك الجملة أخيراً عندما كنت أهيم على وجهي ليلاً، والرياح تصفّر عبر شقوق النوافذ وفرجات الستائر المسدلة وتحرّك الظلال الساكنة. العتمة والريح والبرد وألم الهجران والخيبة، خيبة الأمل بكل شيء. خاب أملي حتى بجسدي ذاته الذي كانت آلامه غير المفهومة تزداد باضّطراد، صداعٌ شبه دائم لا مبرّر له، وعمودٌ فقريّ لم يحافظ على فقراته متماسكة ويرسل رسائله المؤلمة

إلى ساقيّ وقدميّ. أردت في أعماقي أن أغيّر كل شيء، فكان أن التقيت، وعلى غير إرادة مني، ذات ليلة لم أفهم كيف وصلت إليها تماماً مع شبح رجل مات في بداية شبابه منذ سنوات طويلة وهو يبحث عن العدل في عالم يفتقر إلى العدالة بشكل مطلق.

أحسست بأن جدران القبو المطلية بالكلس، الذي كان أبيضَ ذات يوم وبات أصفر متسخاً، تضغط على صدري، فصعدت إلى المنزل كي أحاول، ولو مجرد محاولة، النوم في هذه الليلة التي ختمتْ يوماً طويلاً للغاية.

- 21 -

وضعت منى فنجان القهوة أمامي وخرجتْ من الغرفة. تأمّلتُ الرغوة البنيّة على سطح الفنجان الصغير. قلت لها منذ اليوم الأول إني أحب القهوة غير مغليّة كثيراً ومع رغوة، وباتت تحضّرها لي كما أحب. رشفتُ الرشفة الأولى المزبدة الساخنة بعد أن تنشّقتُ رائحة القهوة التي طالما كانت مخلصة بإدخال الحبور إلى نفسي وأشعلت سيجارة. بعد المجّة الأولى وضعت السيجارة على طرف المنفضة الزجاج الكبيرة الموجودة أمامي إلى جانب فنجان القهوة، تأمّلت البخار المتصاعد من الفنجان والدخان المتصاعد من طرف السيجارة، بخارٌ أبيض ودخانٌ رماديّ، دخان أبيض شفّاف ينساب برقّة من سطح الفنجان إلى الأعلى بشكل مسالم، ودخان السيجارة الرمادي الأزرق يتلوّى صاعداً بحدّة وقوّة بشكل عدواني. دخانٌ مسالم ودخانٌ عدوانيّ. هكذا فكرت وأنا أتأمل تصاعدهما معًا.

مرّ الوقت بطيئاً جداً. قرأت في بعض الكتب الطبية، واحتسيت عدة فناجين قهوة أخرى، وغرقت في تأملات عميقة وطويلة حتى أخرجني جرس الهاتف فجأة من أفكاري. هدر صوت فريد في سماعة الهاتف

السوداء: «مرحباً، كيف حالك؟». لم يترك لي مجالاً للرد. وتابع بسرعة: «أريد أن أراك، هل تأتي إلى المكتب؟».

«متى؟».

«عندما تفرغ من عملك».

بدا فريد مستعجلاً ومهتماً كما لو أنه يريد إطلاعي على أمر مهم. أصبح ذهني يعمل بطريقة أكثر بوليسيةً هذه الأيام إذا جاز التعبير، فابتسمتُ عندما خطر لي هذا. ولكنني لم أكن مخطئاً في ظني، كان فريد يملك فعلاً شيئاً جديداً يطلعني عليه.

استقبلني فريد ممازحاً: «لم أرك منذ ثلاثة أيام، هل ما زلت تشعر بالتخمة حتى الآن؟!».

ضحكت وجلست واضعاً ساقاً فوق ساق وقلت: «خيراً يا أبا مهند؟».

«ألن نشرب القهوة أولاً؟».

بعد دقائق كنا نحتسي القهوة وندخّن. اعتدل فريد في جلسته كمن سيدلي بقول مهم، وبدأ بالكلام: «اسمع يابن العم، البارحة مساءً زارني في المكتب العميد نادر، مساعد قائد الشرطة في المدينة، وقد تعرفتُ إليه منذ مدة، رجلٌ لطيف وهادئ وحديثه ممتع، أتى من أجل استشارة قانونية تخصّ أحد أقربائه، بعد أن قلت له الرأي القانوني في ما سألني عنه تجاذبنا أطراف الحديث، فاغتنمت الفرصة وسألته إذا كان من الممكن أن أطّلع على محضر جريمة حدثت منذ سنوات طويلة، وبرّرت له الأمر بدراسة قانونية أقوم بها، وأني أحتاج إلى الاستشهاد فيها بقضايا قديمة لا تزعج أحداً إذا ما تم الإشارة إليها في الدراسة. فقال لي إن ذلك ممكن وإنه سيرسلني إلى الأرشيف وهناك سيساعدونني. طبعاً لم أُضِعِ الفرصة ولا الوقت، اليوم صباحاً ذهبت إلى مبنى قيادة الشرطة وتوجّهت إلى الأرشيف، وساعدني مساعد أول على وشك التقاعد اسمه أبو عبدو يعمل هناك، بعد أن أوصاه العميد نادر بي، استغرق منا

أنا والمساعد أبو عبدو وقتاً طويلاً جدّاً حتى عثرنا على ما أبحث عنه، واحزر ماذا؟!». سكت فريد من أجل زيادة التشويق في حديثه. تمتمت: «وجدت محضر قضية حامد؟!». هتف فريد وهو يضرب ركبتي براحة يده مؤكداً: «بالضبط!». ثم تابع: «طبعاً لا أستطيع إخراج إضبارة القضية من هناك، ولكني كتبت المعلومات على دفتري، ثم نقلتها لك على ورقة، وها هي».

مدّ يده عبر المكتب والتقط ورقة كبيرة وناولني إياها.

- 22 -

خرجت من مكتب فريد مسرعاً. عندما ركبت سيارتي أحسست بألم في معدتي، وتذكرت أنني لم آكل شيئاً منذ غداء يوم أمس، وكي لا أضيّع وقتاً توقفت عند مطعم العرّاب للوجبات السريعة، واشتريت شطيرة سجق والتهمتها وأنا أقود السيارة عائداً إلى المنزل. عندما دخلت المنزل خلعت معطفي وأعددت إبريقاً صغيراً من الشاي وجلست في غرفة المكتبة. تركت الشاي يختمر في الإبريق وأشعلت سيجارة وعدت لأقرأ الورقة بعد أن كنت قد قرأتها بسرعة في مكتب فريد، وتحدّثنا قليلاً، ثم انصرفت. الآن أقرأها بتمهّل فيما عقلي يعمل بسرعة مستعيداً الكثير مما قرأته في الأيام الماضية، ومحاولاً ربط الأحداث ببعضها.

قُتل حامد ابراهيم ما بين الساعة السابعة مساءً والساعة الحادية عشرة ليلاً من يوم الجمعة الموافق 5/ 1/ 1962 بحسب تقرير الطبيب الشرعي.

ما زلت مندهشاً من تلك المصادفة. عثرت على الحقيبة مخبأة في الخزانة منذ اثني عشر يوماً، حيث لم يمسّها أحد منذ المرة الأخيرة التي أودعها صاحبها هناك، وكان يوم عثوري عليها هو الثلاثاء بتاريخ 5/ 1/ 1984 بعد مرور اثنتين وعشرين سنة بالضبط على مقتل حامد،

اليوم الخامس من الشهر الأول! هل هي مجرّد مصادفة أخرى؟ كنت أتأمّل الشاي بلون العقيق الأحمر وأنا أصبّه في الكأس الصغيرة وأسائل نفسي.

سبب الوفاة ضربة قوية على مؤخرة الرأس بشمعدان برونزي ثقيل وُجد إلى جانب الجثة، كما وُجد إلى جانبه فردة قفاز رجالية من الصوف مشبعة بالدم. شاهد أحد الجيران في البناء المجاور من نافذة مطبخه المطلّة على الشارع، حيث مدخل منزل حامد، شاباً يخرج مسرعاً نحو الساعة التاسعة ليلاً، لم يرَ وجهه ولم يستطع التعرّف عليه سوى أنه رجل متوسط الطول ونحيل، وكان يركض كالممسوس. ذلك الجار الفضولي ظنّ أنه «حرامي» فخرج ليتفقّد الأمر. اقترب من مدخل البناء، فرأى باب منزل حامد موارباً، وعندما استجمع شجاعته ودخل المنزل منادياً على حامد، وجده على الأرض مضرّجاً بدمائه في غرفة الجلوس الموصوفة في المحضر بأنها الغرفة الأولى إلى اليسار بعد المطبخ، فاتّصل بالشرطة على الفور.

تساءلت وأنا أشعل سيجارة: كيف تسير الأمور في هذه الدنيا؟ لاحظت أنني، ومنذ عثوري على الحقيبة وقراءتي للدفاتر، لم أعد أجلس في غرفة الجلوس إلا نادراً، اقتصر جلوسي أثناء القراءة على غرفة المكتبة وغرفة العيادة، ولم أعد أهتم بالجلوس في غرفة المعيشة المجهّزة بالأرائك المريحة، ومدفأة المازوت الكبيرة، وتلفزيون سيرونيكس الملوّن 20 بوصة، والذي يقبع تحته بفخر على الرف السفلي من الطاولة الزجاج الخاصّة به جهاز الفيديو الذي اشتريته حديثاً من نوع سوني بيتاماكس، والذي بدأ يملأ منازل المدينة مع شرائطه التي تكاثرت محلّات بيعها وتأجيرها، ليسلّي الناس خلال سهراتهم الطويلة بعد أن يتوقّف التلفزيون الوطني عن البثّ في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً. أخذت، ومن دون سبب واضح، أتجنّب الجلوس في هذه الغرفة

بأرائكها الضخمة والمريحة، وسجّادتها العجميّة الحمراء الثمينة، ونافذتها الكبيرة بستائرها السميكة، والتي اكتشفتُ الآن أنها الغرفة ذاتها التي قُتل فيها حامد منذ اثنتين وعشرين سنة.

كيف تسير الأمور؟ من يمسك الخيوط المرئية وغير المرئية؟

قبل منتصف تلك الليلة كان رجال الشرطة يملأون المنزل، وكان المسؤول عن التحقيق ضابط شرطة برتبة ملازم أول يدعى محسن زكريا. كيف تسير الأمور؟! محسن زكريا هو ذاته الذي صار لاحقاً زوج أمل قيشانجي، حبيبة القتيل وزوجته المستقبلية الافتراضية قبل أن يجهض القدر حلمهما الافتراضي الجميل ذاك.

لدى استجواب الجار الفضوليّ في تلك الليلة الباردة تبيّن أنه يعرف بعض الأمور عن جاره القتيل. قال إنه يعيش لوحده بعد موت جدّته، وإنه لا يخالط أحداً من الجيران أو سكان الحيّ، وإنه منعزل دائماً ولا يزوره أحد سوى شخص واحد لا غير يأتي لزيارته بين الحين والآخر. تبيّن طبعاً أن ذلك الزائر الوحيد هو سعيد زنزن، والذي تبيّن أيضاً أن فردة القفاز الملوّثة بالدم والتي وُجدت إلى جانب الجثة تعود له. تركّزت شكوك الملازم أول محسن زكريا على سعيد، وفي الصباح الباكر كان على رأس قوة من الشرطة يداهم منزله في حيّ الإنشاءات. عندها هرب سعيد إلى سطح البناء ثم رمى بنفسه منتحراً ليموت بعد بضعة أيام في المستشفى من دون أن يسترجع وعيه، ومن دون أن تتمكّن الشرطة من استجوابه، وأُقفلت القضية بموت المتهم الوحيد الذي اعتُبر هو القاتل بوجود دليل ماديّ، هو فردة القفّاز الملوّثة بالدم، والتي وجدوا فردتها الأخرى في منزل سعيد، وبوجود شاهد هو الجار الفضولي، الذي عاد وقال إنه يظن بأن الرجل الذي رآه يهرب هو سعيد ذاته، وهذا كان كافياً لإنهاء كل شيء. جريمة قتل تم التوصّل إلى مرتكبها خلال أقل من أربع وعشرين ساعة، ونجاح كبير للضابط الشاب محسن زكريا ولجهاز

الشرطة بأكمله، هكذا كانت الأمور. ولكن، كيف سارت الأمور؟! كان هذا السؤال يطرق عقلي الذي أرهقه التفكير.

أشعلت سيجارة واستندت بظهري مرجعاً رأسي إلى الخلف في غرفة المكتبة، وتساءلت:كيف استطاع الضابط محسن تحديد هويّة سعيد بهذه السرعة حتى يداهم منزله صباح اليوم التالي مباشرةً؟ كيف رُبط ذلك الصديق التعس بشبح رجل يهرب مسرعاً وقفّاز ملوّث بالدم وزائر وحيد للمغدور ولا يعرفه أحد؟

تذكرت أنني قرأت في دفاتر حامد، وقد أخبرتني أمل بهذا أيضاً، أن محسن زكريا تقدّم لخطبة أمل بعد أن رآها في المدرسة خلال تحقيق روتيني في سرقة تافهة، وأنه قد رُفض من أهلها على الفور. محسن ضابط شرطة ولديه الإمكانية، سلطةً ورجالاً، كي يصل إلى ما يريده من معلومات. ملازم أول في تلك الأيام كان يستطيع ذلك، باستطاعته أن يهزّ مدينة بأكملها، من المؤكد أنه تحرّى عن أمل قبل أن يتقدّم لخطبتها، وربما اكتشف علاقتها بحامد، وقد يكون حصل ذلك بعد رفضه من قبل أهلها، وهكذا علم كل شيء. وكما يفترض برجل شرطة حقيقي وفضولي، بحث عن كل ما يخصّ حامد، وربما ما يخصّ صديقه سعيد. هكذا ربط معلوماته ببعضها خلال فترة قصيرة وتمكّن من معرفة القاتل، الأمر الذي أضاف ولا شك نقاطاً إيجابية كثيرة إلى ملفّه الوظيفي، وربما استخدم معلوماته تلك وتميّزه ذاك كي يعود ويخطب أمل ويجعل أهلها يوافقون هذه المرة.

الأمور ملتبسة وغامضة وتتشابك في ذهني كخيوط كرة من الصوف، ولكني ما زلت متأكداً أن سعيدًا ليس القاتل، فما قرأته في دفاتر حامد يؤكد أن سعيدًا لا يمكن أن يفعل ذلك. سعيد كان مصاباً بالفصام وأعتقد، وبحسب ما كتبه حامد عن صديقه، بأنه من النوع الزوراني. كان مهووساً بفكرة الملائكة والشياطين، وهو لم يكن يعتبر حامدًا صديقاً

فقط، بل يعتبره ملاكاً، حتى إنه كان يدعوه جبريل، ولا يمكن لسعيد أن يقتل حامدًا، وخصوصاً بهذه الطريقة الوحشية والغادرة. حامد قُتل غدراً بضربة على مؤخرة الرأس وعلى يد شخص يعرفه على الغالب لأنه استدار وأعطاه ظهره، بحسب ما يبدو من طريقة حصول الجريمة. طبعاً هذه النقطة ليست في صالح سعيد، ولكني ما زلت مقتنعاً بأن سعيدًا مات مظلوماً مثل حامد بالضبط. صديقان شابان مريضان ويحتاجان للمساعدة ماتا مظلومين. هذا ما كان يبقي الحماسة مشتعلة في نفسي تجاه هذه القضية.

– 23 –

التدوينات (8)

الميت لا يتكلّم، أليس كذلك؟ هم يريدونني كذلك، ولكني لم أمت بعد! لم يتمكّنوا من إيجادي كي يتمكّنوا من قتلي. وكتاب الأسرار ما زال يوليني ظهره! أقصد ما زال مستغلقاً عليّ حتى الآن. كتاب عجيب ولا بدّ أنه مهم، والدليل أولئك الأشرار الذين يلاحقونني بسببه. ضلّلتهم، لا يعلمون أين أنا، أنا مختبئ هنا، في منزل جدّتي رحمها الله، أعمل ما يجب عليّ عمله. كم أشتاق إلى أمل، قابلتها مرات قليلة بعد وفاة جدّتي الغالية، أنتظرها عند خروجها من المدرسة ظهراً، نمشي على مهل في الشوارع المنزوية والموحلة وعلى الأرصفة المظلّلة بالأشجار التي يقطر منها ماء المطر ونتكلم طويلاً، نحكي عن كل شيء، حكينا عن كل شيء. لو كان عندي هاتف في البيت لكنت تحدثت معها يومياً، وسأجد وقتاً مناسباً لذلك، رغم أنها تسكن مع والديها وأخويها في بيتهم الكبير. فايز متزوّج ويسكن مع زوجته وولديه الصغيرين في بيت أهله، وفواز لم يتزوّج بعد. الغوريلّا فايز والسعدان فوّاز، لا أحب أن اسمّي ابنيْ حمويَّ

المستقبَلِيَّين هكذا، غوريلّا وسعدان، ولكنهما كيف أقول؟ إنهما غوريلّا وسعدان! عليّ أن أطلق الأسماء على المسمّيات، ولكني لا أقول هذا أمام أمل أبداً، ستغضب طبعاً وأنا لا أريد إغضابها، ليس الآن ولا في ما بعد، ولا في أي وقت. أنا أطلق على فايز اسماً آخر أيضاً، عندما أكون غاضباً أقول فايز الغوريلا، وعندما أكون رائقاً أدعوه تريستان. أعتبره مثل تريستان، خوّاناً وغدّاراً. أنا أكره تريستان منذ زمن طويل. أستمع إلى أوبرا تريستان وإيزوولد منذ زمن بعيد، منذ أن اكتشفت الفونوغراف والأسطوانات الكثيرة في زاوية مهملة في صالون منزل جدّتي عندما كنت مراهقاً خجولاً ليس لديه أصدقاء. كانت هذه الأشياء تعود إلى خالي الأوسط زياد الذي هاجر إلى أستراليا وترك كل شيء وراءه، ثم لحق به أخواه بعد فترة وجيزة وصارت جدّتي وحيدة، بعد أن كان جدّي قد مات منذ سنوات بعيدة، وقبل أن أولد. أخذت أستمع إلى ما وجدته من أسطوانات ووقعت في هوى الموسيقا الكلاسيكية التي صارت صديقتي المفضّلة. كانت الأسطوانات كثيرة جداً ومن بينها أربع تحوي أوبرا تريستان وإيزوولد للرائع والكريه في آنٍ معاً، ريتشارد فاغنر! أحبه كعبقري، موسيقياً، وأكرهه كإنسان منحطّ أخلاقياً. ما علينا، لا يهمني الحديث عن فاغنر الآن. استمعت إلى هذه الأسطوانات آلاف المرات، وعندما قرأت قصة الأسطورة التي استلهمها فاغنر لتأليف الأوبرا، قصة الأميرة إيزوولد التي أحبت ابن عمّ زوجها الأمير تريستان، وتريستان الأمير(الحقير) الذي خان ابن عمّه الملك وأحب زوجته، تلك الزوجة الخائنة لزوجها الطيّب والمخدوع، القصة كلها خيانة في خيانة على فكرة! كرهت تريستان كثيراً، لا أعتبر تلك القصة قصة حب مأساوية مثل قصص الحب التاريخية الجميلة والحزينة، قيس وليلى مثلاً، أو جميل وبثينة، أو روميو وجولييت، بل أعتبرها قصة غدر وخيانة.

عندما دخلتُ منزل آل قيشانجي لأخطب أمل قبل هروبي واختبائي

في المستشفى بعد أن تخرّجتْ هي في الجامعة -كنت أتوقّع أن أتخرّج بعدها بأشهر قليلة، ولكن هذا لم يحصل للأسف... أصحّح... لستُ آسفاً، ففي الدنيا أمور أهم بكثير من الشهادات الجامعية، ولم أكن أعلم هذا قبل أن أحصل على كتاب الأسرار العظيم- كان فايز يجلس مع أبيه هو وأخوه فوّاز، رفضوني وخرجت من بيتهم شبه مطرود، احتقروني، وكرهتهم وكرهوني، ولكن فايزًا كرهني أكثر من الجميع. ما زلت متأكداً من هذا، كانت الكراهية تشعّ من عينيه الصغيرتين والقريبتين من بعضهما تحت جبينه الضيّق، ألهذا ذكّرني بالغوريلّا؟ عندئذٍ تذكّرت تريستان في منتصف تلك الجلسة البائسة وسيّئة الذكر، لمعت المقارنة في ذهني فجأةً، وربطت بين فايز وتريستان ولا أدري لماذا. ربما لأن فايزًا طويل وعريض، ويملك شيئاً من الوسامة رغم أنه غوريلّا، عليّ أن أعترف بهذا، مع أنه لا يشبه أمل أبداً، فواز يشبهها بعض الشيء وهو لم يتكلّم طيلة الوقت، والدها تكلّم كلمات قليلة وبقرف. من تولى الكلام كان فايز، الغوريلّا تريستان هو الذي تكلّم، لا يعجبني كثيراً الدمج بين غوريلّا وتريستان، ولكني أتجاوز عن هذا الآن بيني وبين نفسي فقط. الآن عندما تذكّرت هذا كله، الاحتقار، البرود، السخرية المبطّنة، الرفض القاطع والمترفّع، الخروج من عندهم ذليلاً، الغضب ثم البكاء لاحقاً، البكاء من الغضب وليس من الحزن، الآن أعود وبغباء فأشعر بالحزن هذه المرة، هل سأدخل في أحد تلك الأنفاق السود مرة أخرى؟ عندما ماتت جدّتي خفت أن أفعل، أن أعود إلى تلك الحالة الموجعة من الطفو بألم فوق الأشياء كلّها وعدم القدرة على فعل أي شيء. ولكن ذلك لم يحدث وتابعت حياتي. الآن أحس بأن الظلام يزداد، مع أني ما زلت مواظباً على الدواء، حذّرني الدكتور معروف من تركه، وقال بلهجة حاسمة: «عليك أن تتناول أدويتك بشكل دائم بعد خروجك من هنا، مفهوم؟». ما زلت أفعل رغم أني لست بحاجة إليها، وأسهو عن تناولها بين الحين والآخر، ولكني أخشى الدخول في نفق مظلم كما كنت أفعل

من قبل: الأرق، الصحو متأخراً، التعب الدائم، كراهية الطعام وكراهية فعل أي شيء آخر. لا أحب هذا وأبتعد عنه بمداومتي على القراءة في كتب الفلسفة التي أحتفظ بها، صديقي شوبنهاور دواء جيّد ضد الأنفاق المظلمة. وأيضاً القراءة -أقول هذا تجاوزاً وأقصد محاولة القراءة- في كتاب الأسرار دواء، وأيضاً كتابة هذه التدوينات، ما زلت مصراً على تسميتها تدوينات، فأنا أكره كلمة مذكرات أو ذكريات، الذكريات لا تفيد شيئاً سوى المزيد من الغوص في مستنقع الماضي الكريه، من يحب الماضي؟! أحاول أن أعمل على المستقبل، مستقبلنا أنا وأمل. يجب أن أراها. قالت لي: «قف بعيداً عن باب المدرسة قرب شجرة الكينا، إذا مرّرتُ يدي في شعري بيدي الحق بي إلى الشارع المجاور، وإذا لم أفعل استدر وانصرف فوراً». سأذهب إلى المدرسة غداً، اشتقت إليها، علينا أن نخطط للمستقبل، مستقبلنا. لقد قال العبقري شوبنهاور، الإرادة وليس العقل، الإرادة هي ما يسيّر الحياة كلها، وعليّ أن أمتلك الإرادة كما ينبغي، وكما ينبغي أن يفعل الجميع، ولكن ما همّني من الجميع؟! يجدر بي أن أهتم بنفسي وبأمل فقط، نحن اثنان في واحد، أو واحد في اثنين، هكذا صرنا عندما تقابلنا فيزيائياً بعد أن تقابلنا روحياً قبل آلاف السنين، وقت كنا نهيم في السديم البارد ننتظر لحظة اللقاء المتجسّدة في الحياة، هذه الحياة البهيمية التي نحياها جميعاً! أكانت أرواحنا أسعد قبل أن نلتقي أم ستصبح أسعد بعد أن نموت؟ تلحّ عليّ الأسئلة، تلك الأسئلة التي لا إجابات لها. لم يتمكن أحد من معرفة الأجوبة، يبدو أنه علينا أن نموت كي نجد أجوبتنا الضائعة بين المجرّات الساكنة ببرود والمتحركة بجبروت. يجب أن أرى أمل غداً، عليّ أن أحاول على الأقل، يجب أن أتحدّث معها فلا شيء يسعدني هذه الأيام الباردة والكئيبة سوى الحديث معها. الحديث مع سعيد يجلب لنفسي بعض السرور أيضاً، لكن ليس بدرجة السرور والارتياح نفسها التي أجدها مع أمل، هذا طبيعي بعد كل شيء. أمل حبيبتي وتوأم روحي -هل هذه

العبارة مبتذلة؟ سأبقي عليها على أيّ حال- وسعيد صديقي، صديقٌ عزيز، ولكن لا أقارنه بأمل. سعيد خرج من هناك بعدي، ربما بشهر أو شهرين، وربما أقل، ليس مهماً، كنت أتوقّع خروجه قبلي ولم يحدث هذا، يبدو أني كنت ماهراً في أداء دور المريض، وماهراً كذلك في أداء دور المريض السابق الذي شُفي وعاد طبيعياً. على فكرة، من يملك القدرة على وضع مقياس يصنّف البشر إلى طبيعيين وغير طبيعيين؟! ما هذه الصفاقة؟! ما هذا الغرور؟! أرسطو نفسه لم يجرؤ على هذا النوع من التهوّر، أفلاطون حاول أن يفعل ولكن، من يهتم بأفلاطون؟ أعود إلى سعيد، إنه يزورني هنا في منزلي، زارني أول مرة بعد خروجه وقبل وفاة جدّتي، صنعتْ لنا الشاي بيديها وقدّمت لنا من المعمول اللذيذ الذي خبزته قبل يومين. قال لي سعيد بيقين من يقرر حقيقة علمية ثابتة منذ الأزل: «جدّتك إنسانة طيبة». وزارني بعد وفاة جدّتي مرتين. هو يزورني وأفرح بزيارته. أقول له: «تعال دائماً، متى شئت، كلما أحسست بالملل، بالغضب، بالحزن تعال نتحدث، الحديث بين الأصدقاء يغسل هموم الروح». سعيد مثقل بالهموم، عاد ليعمل دهّاناً وما زال يسكن في منزل والده الذي أصبحت علاقته به فاترة، ليست سيئة وليست جيدة، بل على الحدود غير الواضحة والمتغيّرة باستمرار بين ما هو سيّئ وما هو جيّد، وهو يفكّر بأن يعود ليصلي ويصوم، رغم أن إيمانه ما زال مزعزعاً بسبب والده، هكذا اعترف لي وهو يهمس بخوف واضح عندما كان عندي آخر مرة وكأنما يخشى أن يسمعه أحد، حتى الله! قلت له: «أنت مؤمن، أنا أعرف هذا، لا ترتبك، أنت تشعر ببعض الحيرة فقط، لا تفكر كثيراً بالأمر، وعلى أيّ حال أنت تعبد الله وليس والدك، أليس كذلك؟». ابتسم مرتاحاً، يبدو أنه فهم ما قصدته تماماً. أشعل سيجارة ورشف رشفة كبيرة من الشاي الذي أعددته بنفسي، وقال: «رحم الله جدّتك، كانت تصنع معمولاً لذيذاً جداً». أيّ شيطان ذكّره بمعمول جدّتي؟! لم أقل شيئاً، سكتنا ولم نتابع حديثنا حول الإيمان واليقين. جلسنا ندخّن وكل

واحد منا يتأمّل كأس الشاي نصف الممتلئة أمامه كراهبَيْن بوذيين -هل يدخّن الرهبان البوذيون يا ترى؟- يحاولان استكشاف مغزى الحياة القابع في أسفل كأس شاي صغيرة. في ذلك المساء استمعنا معاً إلى الأسطوانة الأولى التي تضم الفصل الأول من أوبرا تريستان وإيزوولد. سعيد لا يحب الموسيقا الكلاسيكية ويفضّل عليها أغاني أم كلثوم، ولكنه يجاملني ويستمع معي. وكي أردّ له جميل الاستماع معي، الدنيا أخذ وعطاء أليس كذلك؟ أخذت أحكي له قصة تريستان وإيزوولد. كنت قد ذكرتها له سابقاً باختصار خلال أحاديثنا الممتدة في المستشفى حين كنا نحتار كيف نمضي أوقاتنا الطويلة والمملّة، الآن حكيت له القصة بالتفصيل وكان مبهوراً بها. شعرت وكأني حكواتي شاطر يحكي قصة عنتر وعبلة، أو الزير السالم لأطفال متشوّقين للسماع، كما حكيت له عن مؤلف الأوبرا التي نستمع إليها، ريتشارد فاغنر، وكيف أنه كتب هذه الدراما الموسيقية ذات الفصول الثلاثة والتي تمتد لأكثر من أربع ساعات -هكذا كان فاغنر يفضّل أن يسمّيها بدلاً من أوبرا، دراما موسيقية، يا للعجرفة!- متأثراً بحبه لعشيقته ماتيلدا بعد أن شابهت قصة حب تريستان الغادر وإيزوولد الخائنة حالته آنذاك، حالة ريتشارد الغادر وماتيلدا الخائنة زوجة التاجر السويسري الثري أوتو فون فيسيندونك الذي رعاه وشمله بعنايته وكرمه المالي ومنحه فيلّا يسكن فيها مع عائلته قرب قصر أوتو الكبير في زيوريخ، حيث كان فاغنر لاجئاً في ذلك الوقت -أجل فقد كان فاغنر متزوجاً آنذاك من زوجته الأولى مينا التي جُنّت في ما بعد- وقابل فاغنر ذلك كله بالغدر، إذ عشق زوجة أوتو وأقام علاقة غير شرعية معها. فاغنر خان زوجته وغدر براعيه الكريم، وماتيلدا خانت زوجها وغدرت بالقيم كلها.

سعيد كان غاضباً جداً من فاغنر وماتيلدا، ولكنه أحب الموسيقا وأصوات الغناء الأوبرالي. وبعد فترة طويلة من الاستماع صامتين عقب

انتهائي من حكاية القصة سألني متأملاً: «هل تشفع الموهبة الموسيقيّة، أو أيّ موهبة مميّزة أخرى لصاحبها أن يكون منحطّاً أخلاقياً؟!». قلت له: «هذا السؤال يحيّرني منذ زمن طويل». ولكي أضحكه وأخرجه من الجو المعتم الذي أدخلتنا فيه القصة المقيتة والموسيقا الحزينة أسرّيت له -وهو الإنسان الوحيد الذي قلت له هذا- أني بيني وبين نفسي فقط أطلق اسم تريستان على فايز، شقيق حبيبتي أمل. كان يعرف كل شيء عن علاقتي بأمل وعن خططنا للزواج رغماً عن الجميع. ضحك مستغرباً، وسألني: «ولماذا؟». هززت كتفي وقلت: «لا أدري، عندما رأيته أول مرة في صالون منزل والده الفخم جالساً يتكلّم معي بصلف مغلّف بالكراهية لم يخطر على بالي حينها سوى تريستان! أنا أكره تريستان وكرهت فايز، عمل العقل عجيب، يبدو أن الكراهية هي الرابط بينهما». هزّ سعيد رأسه متفكّراً وهو يقيس المسألة في ذهنه، ثم تمتم: «معك حق، عمل العقل عجيب». صمت برهة، ثم وبنقلة غريبة وغير متوقّعة وبعيدة عن محتوى حديثنا. تابع: «انظر إلى أعمال سلفادور دالي مثلاً، عبقري وفنان رائع، ويراه الناس مجنوناً، عمل العقل عجيب، أعرف الكثير عن العباقرة المجانين، يبدو أنك واحد منهم!». ضحكنا معاً وتابعنا التدخين والاستماع إلى أوبرا تريستان وإيزوولد الجميلة رغم قصتها البائسة.

كان سعيد صديقي وكنت أفرح بزيارته.

- 24 -

خرجت من منزلي قرابة السابعة مساءً. كانت منى قد أغلقت العيادة وانصرفتْ قبل ساعة. بعد انصرافها دخلت إلى غرفة المكتبة في المنزل وبحثتُ في شرائط الكاسيت التي أملكها حتى عثرت على ما أريد. وضعت في جهاز التسجيل الكاسيت الثاني من مجموعة الكاسيتات الثلاثة التي تضمّ أوبرا الفالكيري لفاغنر. وفيما كنت أستمع إلى مقدمة الفصل الثاني أغمضت عينيّ وتذكرت متى سمعت هذه الموسيقا المميّزة أول مرة. كنت في فرنسا قبل نحو سنة من عودتي. ذهبت في إحدى الأمسيات مع أحد أصدقائي من الأطباء الفرنسيين في العمل إلى إحدى دور السينما. شاهدنا فيلم القيامة الآن للمخرج فرنسيس فورد كوبولا، حيث في أحد المشاهد يقوم كولونيل أميركي مهووس ويعشق رائحة النابالم -لعب دوره الممثل الكبير روبرت دوفال- بقصف إحدى القرى الفيتنامية بالحوّامات، فيبيدها ويقتل أهلها على أنغام موسيقا حماسيّة يبثّها بصوت مرتفع من مكبّرات الصوت المثبّتة في طائرته. جذبتني الموسيقا الحماسية والجميلة والمشهد المأساوي، عدا عن الأداء الرائع للممثلين وطريقة الإخراج المبدعة. أبديت إعجابي بتلك الموسيقا، فأخبرني زميلي الذي كان على دراية بالموسيقا الكلاسيكية، إنها مقطع

من أوبرا الفالكيري لفاغنر، وتدعى هذه المقطوعة القصيرة بدقائقها الخمس ركوب الفالكيري، وهي المقدمة الموسيقية للفصل الثاني من الأوبرا. بعد خروجنا من السينما وفي طريقي إلى شقتي، توقفت عند أحد محلات بيع التسجيلات والأسطوانات الموسيقية، وبحثت عن أعمال فاغنر في قسم شرائط الكاسيت ووجدتها كلها. اشتريت أوبرا الفالكيري مسجّلة على ثلاثة كاسيتات من نوع سوني باللون الأخضر، كل واحد بطول تسعين دقيقة، كما لفت نظري اسم إحدى الأوبرات الأخرى وتدعى «السفينة الشبح»، فاشتريت التسجيل، وكانت أربعة كاسيتات سوني ذات اللون الأحمر بطول ستين دقيقة للواحد، جلبتها معي عندما عدت إلى الوطن مع بقية مجموعتي من الكاسيتات مع جهاز التسجيل الحديث الذي كان عندي في شقتي الصغيرة في باريس.

في الحقيقة لم أكن مستمعاً منتظماً للموسيقا، أستمع إلى الموسيقا الهادئة أو الكلاسيكية القليلة التي أقتنيها بين الحين والآخر لتهدئة أعصابي حين أشعر بالتعب والإرهاق أو الملل. نسيت فاغنر منذ زمن طويل، وعدت الآن لأتذكّره وأنا أقرأ ما كتبه حامد، المعجب الكبير بالموسيقي الألماني الشهير والكاره الكبير له في الوقت نفسه.لم أكن قد استمعت إلى أوبرا تريستان وإيزوولد من قبل، ولكني أعرف قصة هذه الأسطورة السلتية القديمة، قصة الحب المأساوية التي تتحوّل إلى ملحمة شعبية حزينة مثل كثير من القصص والأساطير والملاحم الموجودة لدى شعوب الأرض كلها، والتي استلهمها فاغنر في تأليف أوبراه التي سمّاها دراما موسيقية، وشعرت بالفضول للاستماع لها والتعرّف عليها.

استمعت إلى موسيقا الفالكيري قرابة نصف الساعة، وعندما شعرت بالهدوء والامتلاء بالموسيقا أطفأت جهاز التسجيل، ثم أكملت ارتداء ثيابي وغادرت المنزل.

أوقفت سيارتي قرب الحديقة مثلثة الشكل مقابل شارع الدبلان،

واتجهت إلى ذلك الشارع. ثمّة محلان للتسجيلات الموسيقية في بداية هذا الشارع التجاريّ المزدحم. في المحلّ الأول استقبلني البائع بابتسامة عريضة، كان رجلاً في منتصف العمر يميل إلى البدانة مبتسماً على الدوام، ولا تفارق السيجارة يده. سألته عن كاسيتات لفاغنر، فقال لي: «للأسف ليس عندي أي شيء لفاغنر، يوجد لبيتهوفن وموزارت وبعض التجميعات للمقاطع الكلاسيكية الشهيرة، فالكلاسيك طلبه قليل، وبالذات فاغنر». اتسعت ابتسامته، وتابع: «منذ افتتحتُ هذا المحلّ منذ سنوات وحضرتك أول شخص يسأل عن فاغنر!». شكرته وخرجت. المحلّ الثاني كان على بعد بضعة أمتار وعلى الجانب الآخر من الشارع، قطعت الشارع إلى الرصيف المقابل ودخلت المحل، كان البائع شاباً في العشرينات يستمع إلى موسيقا روك بصوت مرتفع ويدندن معها، وهو يكاد يرقص جالساً على كرسيه الصغير الدوّار. عندما سألته عن فاغنر علت وجه الشاب مسحة دهشة ممتزجة بالبلاهة، تساءل بعد أن خفّض صوت الستيريو المرتفع: «فاغنر؟! هل هي فرقة موسيقية جديدة؟».

ابتسمت: «لا، إنه موسيقار ألماني قديم، موسيقا كلاسيكية».

ابتسم الشاب بارتياح وازداد منسوب البلاهة على وجهه، فيما كان يقول بالنبرة المترفّعة المميّزة للشخص الجاهل والذي يظن نفسه عارفاً بكل شيء: « لا يوجد عندنا موسيقا من هذا النوع، الأسطوانات والكاسيتات هنا كلها حديثة، ولكن عندي موسيقا هادئة على البيانو لو أحببت، عندي كل تسجيلات ريشارد كلدرمن».

كدت أضحك عندما سمعت طريقة لفظ الشاب لاسم عازف البيانو الشهير، قلت مشدّداً على حروف الاسم: «شكراً، لا أريد كاسيتات ريتشارد كلايدرمان، أريد موسيقا كلاسيكية فقط». وخرجت وأنا أحاول محو الابتسامة عن وجهي. تابعت سيري باتجاه الساعة الجديدة، وقبل

نهاية الشارع بقليل انعطفت في الزقاق الذي يقع مكتب فريد في إحدى بناياته القديمة. بعد دقائق كنا نحتسي القهوة معاً.

سألني فريد: «هل أفادتك المعلومات التي في الملف بأي شيء؟».

«بالتأكيد، ولكني ما زلت بحاجة للكثير وأتمنى أن تساعدني مرة أخرى».

ضحك فريد وقال: «حاضر، ماذا تريد أن تعرف هذه المرة؟».

«هل بإمكانك أن تستعلم لي عن عائلة سعيد زنزن؟ من منهم ما زال حيّاً حتى الآن؟ أين يعيشون؟ بحسب ما فهمت كانت أسرته كبيرة العدد».

قال فريد وهو يحكّ صدغه: «صحيح، أتذكّر أن له عدة شقيقات، وهو كان الابن الوحيد لأبويه، موته كان فاجعة لأمه على وجه الخصوص، كانت في المستشفى عندما أخبروها بوفاته، انهارت وكادت أن تموت، كانت مأساة حقيقية».

«هل عرفت ما حلّ بهم بعدها؟».

«لا، بعد موت سعيد لم يعد لي أيّ علاقة بهم، ولم أعد أعرف عنهم شيئاً». فكّر قليلاً، ثم تابع: «على أيّ حال أمهلني يومين وسأرى ما يمكنني فعله».

بعد قليل كنت أعود ماشياً في شارع الدبلان متجهاً إلى سيارتي. توقّفت قرب نهاية الشارع عند مطعم الشباب الشعبي، وابتعت سندويشة فلافل، واشتريت زجاجة «كراش» بطعم البرتقال من محل «مندو» للكازوز المجاور، وهو معمل صغير لتعبئة زجاجات المياه الغازية ويبيع بالمفرّق أيضاً. أكلت السندويشة وشربت المياه الغازية واقفاً على الرصيف مثل كثيرين غيري من الرجال المتوحّدين، ومن مجموعات المراهقين العابثين والضاحكين، كانت أضواء المحلات وأنوار مصابيح

السيارات، التي لا ينقطع مرورها في الشارع تنعكس على الجدران الكامدة والإسفلت المبلّل، وتجعل البخار المنبعث من الأفواه بتأثير البرد يكتسب لوناً أصفر باهتاً وكثيفاً أكثر من الحقيقة. أعدت الزجاجة الفارغة إلى البائع في المحل وأشعلت سيجارة، واتجهت ببطء صوب سيارتي. عندما كنت أقود على مهل عائداً إلى منزلي كنت أفكّر بالمسافات بين الحقيقة والخيال... من يدركها على وجه الدقة فعلاً؟

– 25 –

التدوينات (9)

بكيت طويلاً هذا المساء. من النادر أن أبكي. حتى عندما توفيت جدّتي رحمها الله ذرفت قليلاً من الدموع رغم حزني الشديد، ولكني اليوم كنت حزيناً جداً، واكتشفت ليس مدى حبي لجدّتي فقط، بل وأيضاً مقدار الارتباك والألم اللذين أعيشهما بعد غيابها، مع أنها حاولت مساعدتي حتى بعد وفاتها بأن تركت لي مبلغاً محترماً من المال يساعدني في تدبير عيشي. وعندما نعيش أنا وأمل معًا سنتدبر أمورنا جيداً. خرجت من المنزل هذه الظهيرة وتوجّهت إلى السوق، ذهبت ماشياً صوب الساعة القديمة في مركز المدينة، كنت أحتاج إلى أن أشتري تبغاً، فلم يعد عندي في المنزل سوى بضع لفافات. مشيت على مهل وأنا أفكر في هذه الدنيا، هذه الحياة التي قال عنها شوبنهاور إنها ليست إلا بندولًا يتأرجح ما بين الألم والملل.(ما بين الألم والملل!). يا لها من جملة هائلة تضم العالم في كلمتين. فكرتُ في الملل ذلك الذي اعتبره برتراند راسل المحرّك الأول وراء أقوى الرغبات. قال إن الإنسان

تحرّكه رغباته، الرغبة في القوة، الرغبة في السلطة، الرغبة في الظهور، الرغبة في التملّك، ذلك كله مهم وحيويّ، ولكن الرغبة الأقوى هي الرغبة في مدافعة الملل وإبعاده عن النفس. الحروب تقوم بدافع كسر الملل، هكذا كتب! القدرة على الإحساس بالملل هي الفارق الأهم بين الإنسان وغيره من الكائنات، ما يميّز الإنسان حقّاً هو القدرة على الملل ثم الرغبة في إبعاده، كسره، تحطيمه، وقتله.

الملل، الضجر، الكره البارد المقيت لكل شيء، يا لها من رغبة حدّدت مسار التاريخ بأكمله! هذه هي العقول المدهشة، هذا هو العقل الحقيقي الذي يفهم فيفكّك. يفكّك كل شيء في الحياة والماضي، بما في ذلك الآلهة والأوثان. أهي سلسلة تتألق من النجوم اللامعة والرائعة؟ يقفز عقلي تلك القفزات، أقفز من أرسطو، قفزة. إيمانويل كانط، قفزة. آرثر شوبنهاور، قفزة. فريدريك نيتشه، قفزة. برتراند راسل، قفزة. أنا، قفزة. الزمن كله، قفزة. الزمن الدائري الذي لا فكاك منه، هنا لا قفزات، زمن دائري يحيط بنا ولا نستطيع اختراقه، لا يمكن النفاذ منه، نحن محكومون بالزمن، لسنا آلهة، الله وحده خارج الزمن.

أدرك أني أناقض نفسي أحياناً، فأنا أذكر أنني كتبت ذات مرة في مكان سابق -ولا رغبة لي بالرجوع إليه أو تصحيحه- أن الإنسان سيطوّع الزمن ذات يوم، وكنت مقتنعاً بذلك. الآن أدرك أن هذه القناعة كانت غير صحيحة، قناعة زائفة، فلا أحد بميسوره أن يطوّع الزمن، لا الآن ولا في المستقبل. لا يستطيع أن يطوّع الزمن إلا من خلق الزمن، الله وحده بمقدوره أن يفعل هذا، فهو الذي خلق كل شيء بما في ذلك الزمن. لا أخجل من تغيير رأيي ولا من تناقضاتي فهذا أمر طبيعي في البشر، كما أني لست فيلسوفاً، مع أنني أحب أن أفكّر أني كذلك، والفلسفة عندي هي فن تغيير الآراء. ها قد ابتكرت تعريفاً للفلسفة، (الفلسفة هي فن تغيير الآراء). أراه تعريفاً مبتكراً، قد أكون فيلسوفاً وأنا لا أدري، من

يعلم؟! غرقت في أفكاري متأمّلاً أشجار الكينا والزنزلخت المزروعة على الأرصفة، وأنا أمشي ساهياً إلى درجة أني لم أنتبه إلا وأنا أقف قبالة دكّان بائع التبغ المطلة على ساحة الساعة القديمة. طلبت منه بشكل آلي كروز سجائر «لاكي سترايك» من دون فلتر، وكروز سجائر بافرا بالفلتر الأبيض، دفعت ثمن الكروزين، وحملتهما في كيس ورق، ثم اتجهت إلى سوق الخضار والفواكه القريب من الساحة، والممتد على مساحة واسعة في بداية شارع الحميدية، واشتريت كيلوغرامين من البرتقال وعدت ماشياً إلى المنزل. عندما دخلت المطبخ وأخرجت المشتريات من الأكياس انتبهت إلى خطأي، إلى ألمي الذي جعلني أفعل ما فعلت، كان ذلك ما سبّب لي هذه النوبة من البكاء الذي أزعجتني كثيراً، رغم أنني أحسست في ما بعد بأني كنت بحاجة إليها. جدّتي كانت تدخّن سجائر بافرا، وكنت أشتري لها مؤونتها منها كلما ذهبت أشتري تبغاً لنفسي، تنبّهت والدهشة والألم يمتزجان في نفسي أني اشتريت لها سجائرها بعد وفاتها! غاب عن بالي أنها ماتت وتركتني وحيداً. عقلي اللاواعي -ذلك القاسي- يرفض موتها. هكذا كان الأمر، كنت أرفض الواقع، هل بإمكاننا ذلك؟! وانفجرت بالبكاء.

عندما ذهبت حاملاً أحلامي كلها، وربما غروري أيضاً، إلى منزل آل قيشانجي طالباً يد أمل، ومن دون أن أخبرها مسبقاً بما نويتُ فعله كي أفاجئها مفاجأة سعيدة كما كنت أتوهّم، الآن أقول أتوهّم بينما حينها كنت واثقاً ثقة مطلقة أنني سأحقّق ما أتمناه كله وكل شيء أريده وأرغب فيه، كنت أعتمد على المقدار الكبير من السعادة التي كنت أشعر بها وأستمدها من كوني عاشقاً لأمل، وكنت متأكداً أن ما سيحصل لاحقاً سيؤكد ما قاله الكبير شوبنهاور من أن المرأة التي تتزوّج من تحب، كما كانت أمل ستفعل، هي امرأة يجب علينا أن نقدّرها ونحترمها، لأنها حقّقت روح الواقع، ولم تستمع إلى أهلها الذين ينصحونها بتحقيق روح

الأنانية. كم كنت متحمّساً آنذاك! وكم كنت متأكداً أن كل شيء سيحصل كما أريد. الآن لست هكذا، انحرف السهم إلى الجهة المعاكسة، توقف البندول في الجهة الأخرى، الجهة المظلمة. أين ذهب ذلك كله؟! هل يستطيع آرثر شوبنهاور أن يجيبني؟ هل يستطيع الدكتور معروف دبّاك أن يجيبني؟ هل يستطيع أيُّ إنسان أن يجيبني؟ لا أحد بمقدوره ذلك، عليّ أن أجد إجاباتي بنفسي، وسأجدها في كتاب الأسرار الذي أهملته في الفترة الماضية وكان ذلك خطأً مني. أستعيد اهتمامي وهمّتي الآن، أنا في مأمن هنا، في مدينتي، في منزلي، في غرفتي، في قبوي، أحتفظ بكل شيء في القبو، في الخزانة العتيقة التي لن تلفت انتباه أحد، لا أحد يعلم شيئاً، لا أحد يدرك شيئاً، العلم والإدراك يحتّمان عليّ أن أعمل.

أقرأ، أكتب، أستمع إلى الموسيقا، أستمع إلى كثير من الأسطوانات، تلك التي تركها مع الفونوغراف القديم خالي زياد عندما هاجر مع أخويه إلى أبعد مكان ممكن من هنا. أولئك المعتوهون، هل يظنون أن من الممكن الهروب من التعاسة؟ البشر مجبولون بالتعاسة وليس بالإمكان التخلّص منها. الأسطوانات كثيرة جداً وهي موسيقا كلاسيكية كلّها، وهكذا أحببت هذا الضرب من الموسيقا منذ صغري. موزارت، بيتهوفن، باخ، هايدن، هاندل، فيفالدي، شوبان، فيردي، بوكيريني، شتراوس، ليست، شوبرت، برامز، شومان، كورساكوف، تشايكوفسكي، ولكن المدهش حقّاً وأكثر من الجميع هو فاغنر، ذلك المجنون، ذلك العبقري، ذلك المنحطّ أخلاقياً، كم أحتقره، وكم أعشق موسيقاه المهولة والعظيمة والتي تنعش النفس. لحظة، مفردة «تنعش» لا أجدها مناسبة في هذا المقام، موسيقاه لا تنعش النفس، ربما شتراوس يفعل ذلك، بينما ذلك الألماني المتعجرف والغادر يفعل شيئاً آخر، موسيقاه تفجّر النفس، أجل، تفجّر هي الكلمة الصحيحة والمناسبة، أحس بروحي تتفجّر وتتشظّى إلى آلاف القطع وأنا أستمع إلى هرائه العبقري

والرائع، ومن ثم تلك القطع تذوب بعد ذلك. يكفي مثلاً أن نستمع إلى Liebestod [1] في خاتمة أوبرا تريستان وإيزوولد، الخائنان الكريهان. تلك الدقائق من الحزن المصفّى، العذوبة المطلقة، الشجن المحطّم لكل مقاومة يبديها العقل الواعي -ذلك الغبي- حتى نذوب. قطعنا تذوب، آلاف القطع تذوب لتصبح ينبوعاً رقيقاً من البؤس والعذاب ينساب بالرقة الممكنة كلها في دهاليز النفس.

أنا حزين هذا المساء. بعد هدوئي قليلاً وتجفيفي لدموعي الخائنة قررت أن أعود فأرجع كروز البافرا إلى البائع، ثم عدت فغيّرت قراري، سأتركه هنا، في مكانه، في غرفة جدّتي الكبيرة التي لم أعد أدخل إليها على الإطلاق. سأضعه حيث كانت تضعه بنفسها قريباً من فراشها على الكومودينو الصغير المطعّم بالصدف، سأتركه هناك في المكان الذي ماتت فيه. ترتعش يدي عندما أكتب هذا، ولكن من المحتّم أن أفعل ذلك، سأدعه هنا إلى وقت لا أعلم كم سيمتدّ.

بعد وفاة جدّتي بأيام كانت آخر مرة رأيت فيها أمي، إذ لم تعد لتخطو في هذا المنزل بعدها، وطبعاً أنا لن أذهب إلى منزلها الذي تعيش فيه مع زوجها، فمن غير الممكن أن أقوم بهذا الفعل المستغرَب، وهي أصلاً لم تدعُني إلى زيارتها. وقد أخبرتني إن أخوالي تحدّثوا معها هاتفياً، ولم يكلّفوا خاطرهم ويأتوا لدفن أمهم، تعلّلوا بأن المسافة طويلة جداً، وأن حجز الطائرة سيحتاج وقتاً طويلاً، وأنّهم سيصلون بعد الدفن بأيام، وربما بعد انتهاء أيام العزاء. يا للحجّة السقيمة! المهم لم يأتوا وتكلموا هاتفياً فقط، قالوا لأمي سنترك المنزل على حاله الآن، دعي حامد يبقى فيه إذا أراد حالياً وسنتكلم في التفاصيل لاحقاً. أيّ تفاصيل؟! لا شيء يهم بعد الآن، لا تفاصيل ولا غير تفاصيل، هذا منزلي وسيبقى منزلي، لا

---

(1) liebestod بالألمانية: الموت حبّاً، وهو عنوان المقطع الختامي للفصل الثالث الأخير من أوبرا تريستان وإيزوولد لريتشارد فاغنر. - الناشر.

أعرف منزلاً غيره على أيّ حال، وسأتزوج أمل ونعيش معاً هنا، وسأفكّر لاحقاً أي غرفة ستكون غرفة نومنا، سأناقش هذا الأمر مع أمل. الأمر الواقع! هكذا سيكون الأمر، سنضع الجميع أمام الأمر الواقع، يا لها من فكرة مثيرة للحبور! أبتسم بسعادة عندما أفكر بهذا، فكرة أن أخوزق أفراد عائلة أمل جميعهم، وأفراد عائلتي أيضاً، وأتزوجها رغماً عن الجميع، وخصوصاً ذلك الدبّ المتعجرف المخبول، تريستان الغدّار، والذي أفكر محتاراً كيف سأقبل أن يكون خالاً لأولادي من أمل في المستقبل، لكن الحياة تجبرنا على قبول الكثير من الأشياء السيّئة أحياناً، ومنها مثلاً أن يكون فايز الحقير -طبعاً لا أصفه بأيٍّ من هذه الصفات أمام أمل، بل أقول وأنا أرسم على وجهي ملامح الطيبة والبراءة... فايز الله يسامحه!- خالاً للأسف لولدٍ من صلبي، يا للمرارة! أحس بالمرارة في حلقي، كتبتها فأحسست بها، المرارة التي لا تفارقني مهما فعلت، مع أني لا أفعل الكثير. وفي كل الأحوال وضعي مع أخوالي ليس أفضل بكثير! ربما أن حسنتهم الوحيدة أنهم كانوا يرسلون المال إلى جدتي، ومن هذا المال جمعت لي ما يساعدني على العيش من دون عمل حتى الآن.

أتعبني هذا المشوار إلى السوق ظهراً، بات كل شيء يتعبني، لا أنام، لا آكل، لا أفعل شيئاً، أحس بالتعب فقط، لولا أمل لما كان لهذه الحياة اللئيمة أيّ طعم وأيّ معنى، حتى الكتاب لم أجد معانيه حتى الآن رغم جهودي كلها. حسناً، مع أنه لا شيء حسنًا ولكنها كلمة والسلام، حسناً، سأتابع في ما بعد، يدي تؤلمني وقد تعبت، وأمر آخر أيضاً... لقد مللت!

– 26 –

ظهر يوم الأربعاء وبعد يومين من حديثي مساءً مع فريد كنت أترجّل من سيارتي أمام البناء القديم ذي الطوابق الأربعة في حيّ الإنشاءات في منطقة الأبنية المرفوعة على أعمدة، والمقابلة لما كان سابقاً مجرّد بساتين وأراضٍ خالية. انتشرت حالياً الأبنية والعمارات في كل مكان وباتت هذه البنايات ذات الأعمدة تعتبر قديمة بالمقارنة مع الأبنية التي بُنيت لاحقاً.

نظرت إلى الأعلى حيث الشقة التي أقصدها وتقع في الطابق الرابع الأخير. كانت السماء رصاصيّة والجوّ معتم، رغم أن الساعة لم تتجاوز الثانية بعد الظهر. لفحتني ريحٌ خفيفة ولكنها قارسة البرودة وكأنها ريحٌ قطبية. شددت معطفي السميك على جسدي واجتزت مدخل البناء ببلاطه المتكسّر. صعدت الطوابق الأربعة على مهل، كل طابق يضمّ أربع شقق. كانت العتمة مخيّمة على الدرج الضيّق والفسحات أمام الشقق. ثمّة رائحة عفونة تختلط برائحة الأطعمة المختلفة المنبعثة من خلف الأبواب المغلقة. كان وقت الغداء ومعظم العائلات تتناول طعامها، امتزجت رائحة العفن الواخزة والهواء الراكد والغبار المتراكم

مع روائح تقلية الثوم والبصل، وروائح طبخ العدس والبطاطا والقنّبيط. توقفت أخيراً أمام الباب الخشب العتيق بطلائه البنّي المتقشّر في الطابق الرابع، أحد أبواب الشقق الأخرى كان لامعاً ومطلياً بلون بنّي فاتح. ويبدو كأن الشقة قد جُدّدت حديثاً. كان الفارق بين البابين كبيراً وكأن الزمن قد توقف عند باب شقة عائلة سعيد زنزن. جرس الباب كان من النوع المدوّر القديم وغير مكتوب عليه أو إلى جانبه أي شيء، ولكن كانت لافتة قديمة من الورق المقوّى ملصقة على الباب كُتب عليها بخط صغير (خياطة للسيدات). ضغطت زرّ الجرس ووقفت أنتظر.

هاتفني فريد قبل ساعة من الآن وأعطاني عنوان المنزل بالضبط وأخبرني أنه لم يعد يسكن فيه سوى شقيقة سعيد الكبرى مع والدتها. بقية شقيقاته تزوجن وسافرن مع أزواجهن إلى الخارج. أخته الكبرى تدعى رباب، وهي عانس خمسينيّة، وتعمل خيّاطة، وهي معروفة لدى نساء المدينة، كانت بارعة في عملها كما كنّ يصفْنها. دعد زوجة فريد سمعت عنها وقالت لزوجها ذلك، وبحسب قول دعد حرفياً: «فنّانة في الخياطة وعملها متقَن».

فُتح الباب بحركة بطيئة، ووقفت أمامي امرأة بدا عمرها وكأنها قد تجاوزت الستين عاماً، طويلة بعض الشيء ونحيلة جداً، تغطي رأسها وكتفيها بغطاء صلاة ناصع البياض. قالت بصوت هادئ وأجشّ: «خير؟».

«هذا منزل الست رباب الخياطة، أليس كذلك؟».

«نعم، هل أرسلتك أم محمد من أجل الثوب؟لم يجهز بعد، قلت لها بعد أسبوع».

«عفواً،لم آتِ من أجل أيّ ثوب، أتيت لأمر آخر».

اكتسى وجهها الجدّي أصلاً بجدّية إضافية وبدت متوجّسة أكثر منها مندهشة، لم تنطق بحرف، انتظرتني كي أوضّح.

قلت: «أنا د. عادل شكري، اختصاصي بالطب النفسي، وقد جئت لأسألك بعض الأسئلة عن... المرحوم سعيد!».

بدت الدهشة واضحة على وجهها. اختفى الخوف، واختفى التساؤل المتوجّس، ولم تبقَ سوى الدهشة وكأنها تسمع هذا الاسم لأول مرة. تمتمت بصوت خافت لا يكاد يُسمع: «سعيد؟!».

«لو سمحت لي بالدخول سأشرح لك كل شيء».

ما زال صوتها خافتاً، لم يستعد قوَّته بعد: «أنا امرأة وحيدة وأقيم مع أمي العجوز بمفردنا، لا أستقبل سوى النساء من أجل الخياطة وأنت رجل...». لم تكمل جملتها، بدا الأمر محرجاً لكلينا.

قلت: «ست رباب، لن آخذ من وقتك طويلاً، ممكن أن نجلس مع السيدة الوالدة، أليست موجودة؟».

ظننت أني لمحت ظلّ ابتسامة حزينة على وجهها ولكني كنت مخطئاً، كان تعبير وجهها يشبه أيّ شيء إلا ابتسامة! قالت بصوتها الأجشّ: «موجودة،لم تغادر هذا المنزل منذ أكثر من عشر سنوات!». مرّت لحظة متطاولة ثم تنحّت بهدوء قائلةً: «تفضل، الغرفة إلى اليمين».

اجتزت العتبة ودخلت. كان الرواق معتماً وبارداً ولا يوجد فيه أيّ قطعة أثاث، مجرد ممر طويل يفضي إلى بقية الغرف. أغلقَت الباب وقالت وهي تمشي أمامي: «لن نجلس في الصالون، سنجلس في غرفة الجلوس مع والدتي». مشت ببطء ثم فتحت باب آخر غرفة في الممر ودعتني إلى الدخول. دخلتُ ببطء. كانت الغرفة دافئة ويوجد في زاويتها اليمنى سرير صغير تجلس فيه امرأة عجوز تغطي رأسها بمنديل أسود وتسندها مجموعة من الوسائد وراء ظهرها. كانت جالسة تحدّق في الجدار ولم يظهر عليها أدنى اهتمام بمن دخل إلى الغرفة. إلى جانب السرير توجد أريكة طويلة مغطاة بقماش بنّي مشجّر بلون أخضر باهت، وقد بدت الأريكة قديمة والقماش مهترئاً وبالياً. في الزاوية الأخرى

مدفأة صغيرة قديمة مربّعة الشكل تعمل على المازوت كانت النار تهدر فيها، وعلى الجانب المقابل ثمّة أريكة أصغر بدت أنها مكان جلوس رباب وعملها، إذ كان يوجد عليها قطع كبيرة من القماش، وأمامها توجد ماكينة خياطة سوداء قديمة من نوع (سنجر) تعمل بدوّاسات القدم، وإلى جانبها طاولة عليها أدوات خياطة مختلفة، ومقصّ كبير وعدّة بكرات كبيرة من الخيوط بألوان متعددة، ونتف كثيرة من أقمشة مختلفة وبضع مجلّات أزياء أجنبية قديمة. دعتني رباب إلى الجلوس على الأريكة الكبيرة.كنت قد خلعت حذائي قبل الدخول إلى الغرفة المفروشة بسجادة عتيقة كادت تبلى تماماً، وغُطيت المواضع الخالية من البلاط بأبسطة حمراء، وبجانب السرير الخشب العتيق الذي جلست فيه العجوز فُرش جلد خروف فوق السجادة. بدا جلد الخروف نظيفاً وجديداً حتى خلت أني قد شممت رائحة دباغته الحديثة تنبعث منه. فوق المدفأة وُضعت علبة سمن نباتي مملوءة بماء يصعد منه بخار رقيق يرطّب جو الغرفة. كانت الغرفة دافئة جداً وتعبق برائحة غريبة هي مزيج من رائحة جلد الخروف ورطوبة بخار الماء ورائحة الأقمشة الجديدة ورائحة أدوية أيضاً... رائحة مخاتلة وحزينة.

جلستْ رباب على أريكتها الصغيرة وشبكت يديها في حجرها وحدّقت في وجهي بصمت. وجهها متطاول وجلدها شاحب يميل إلى اللون الزيتونيّ. بدا وجهها وكأنه قُدَّ من حجر، عيناها السوداوان الصغيرتان تنظران إليّ بثبات وقد زمّت شفتيها الرقيقتين وأصبح فمها كخط رفيع مرسوم بين الوجنتين الغائرتين، كانت تبدو أكبر من عمرها. أخبرني فريد إنها في بداية الخمسينات ولكنها تبدو وكأنها تجاوزت الستين بكثير. تنحنحتُ وقلت: «حضرتكِ الأخت الكبرى للمرحوم سعيد، أليس كذلك؟».

عاد صوتها الأجشّ هادئاً وقوياً: «قبل أن تسأل أي شيء، أريد أن

أعرف من أنت بالضبط ولماذا تسأل عن... سعيد؟». غاب صوتها لجزء بسيط من الزمن عندما لفظت اسم أخيها الراحل، وابتلعت ريقها بصعوبة.

من علبة تبغ الحمراء القصيرة الموضوعة إلى جانبها على الأريكة ومعها القدّاحة البلاستيك الرخيصة ومنفضة السجائر المعدنية عرفت سبب الصوت الأجشّ. شرحت لها بهدوء واختصار كيف علمت بقصة سعيد وحامد. لم يتغيّر في وجهها شيء، بقي بارداً وصخرياً وحزيناً. قالت: «ولماذا أنت مهتم بالموضوع؟! اثنتان وعشرون سنة مضت! وهي ليست مدّة قصيرة!».

«بعد أن قرأت ما كتبه حامد، صار لديّ قناعة بأن سعيدًا بريء وأصبح عندي دافع قوي للبحث عن الحقيقة».

«أعرف أن سعيدًا رحمه الله بريء، كلنا نعرف هذا، أقصد عائلته، أنت لم تأتِ بجديد! أما الحقيقة! فماذا يهم منها الآن؟ ما مضى قد مضى!».

«ألا تريدين أن تعرفي من هو قاتل صديق أخيك الذي اتهم سعيد بقتله ظلماً؟ ألا تحبين أن يُبرّأ اسم سعيد حتى ولو بعد هذا الوقت كله؟».

«وهل تستطيع أن تفعل ذلك؟». لم يكن في صوتها ذرّة من التهكّم أو عدم التصديق. كانت تسأل بشكل جدّي وواضح كمن يسأل سؤالاً جغرافياً سيجد جوابه حتماً في أي أطلس جغرافي.

قلت بهدوء: «أنا أحاول وسأبذل جهدي كله، ولكني أحتاج إلى بعض المساعدة، الموضوع قديم وأحتاج إلى مساعدة الأشخاص الذين عاصروا تلك المأساة وأنتِ واحدة منهم».

«افرض أنك نجحت في ذلك، ماذا يهمّك من الأمر؟! ماذا ستستفيد؟! تعطّل نفسك عن عملك وعائلتك وحياتك من أجل كشف حقيقة حادثة قديمة كهذه، ماذا ستجني؟».

عائلتي؟! حياتي الخاصة؟! عملي؟! ماذا سأحكي لها؟ هل أقول لها إن لا عائلة لديّ؟ بل ولا حياة خاصة؟ أحسستُ بالخواء. حتى عملي الذي أحبه واخترته بإرادتي الكاملة وعملت فيه باندفاع وحماسة ونجاح في فرنسا لا أشعر الآن بأني أملك منه شيئاً. كنت سعيداً وفخوراً عندما اخترت طريقي سابقاً، ولكني الآن، هل أستطيع قول الشيء نفسه؟

كان الخواء يتزايد، عبقتْ رائحة المرض ورائحة الحزن الطاغيتان على الغرفة في أنفي، تجاوزت خلايا الشمّ واستقرّتْ في الدماغ، ورغم دفء الغرفة أحسست بالبرد، كنت أرتعش من الداخل، من الداخل فقط، حيث الخواء والظلمة.

قلت أخيراً بهدوء: «عندي دافع شخصي يتعلّق بعملي نفسه، أنا اختصاصي أمراض نفسية كما ذكرت لك، وثمّة أخطاء كثيرة وكبيرة في هذه القصة القديمة من الممكن إصلاح بعضها، يكفيني هذا».

لم يبدُ عليها أنها فهمت ما أرمي إليه بدقة. مدّت يدها إلى علبة سجائرها وأشعلت سيجارة، فسألتها: «هل أستطيع أن أدخّن؟».

«تفضل».

قلت مشيراً إلى والدتها في السرير، والتي لم تحرّك ساكناً منذ دخولنا: «ألا تتضايق من الدخان؟ نحن في الشتاء والنوافذ مغلقة».

«لا تتضايق من شيء، وهي لم تنقطع عن التدخين إلا منذ سنتين بعد إصابتها بتلك الجلطة».

«مم تشكو بالضبط؟».

«من كل شيء! سكّري وارتفاع ضغط ومرض قلب وروماتيزم ثم (كمل النقل بالزعرور) وأصابتها جلطة دماغية وفالج، كما أنها لم تنطق منذ سنوات طويلة».

«قلتِ إنها أصيبت بجلطة دماغية منذ سنتين فقط!».

«الأمر ليس له علاقة بالجلطة، أمّي اختارت الخرس بعد موت سعيد، كان ابنها الوحيد كما تعلم، ابن واحد على خمس بنات! أم... لم تكن تعلم؟».

قلت معيداً كلماتها بحذر: «أعلم ولكن... قلتِ اختارت الخرس؟!».

«أجل، بعد الحادثة، أقصد موت سعيد رحمه الله، رفضتْ الكلام مع أبي واعتبرته مسؤولاً عمّا جرى لسعيد. حتى مع أخواتي لم تكن تتكلم، كانت تكلمني أنا فقط، وهمساً. ثم توقفتْ عن الكلام نهائياً بعد موت أبي مباشرةً، مات بعد سعيد بسنتين وظننتُ حينها أنها ستعاود الكلام معنا ولكن حصل العكس، سكتتْ نهائياً... وحتى الآن!».

«كيف تتفاهمين معها؟ بالإشارات؟».

«لا... بالعيون!».

كانت كلمتها باترة. صوتها الأجشّ ولهجتها الباردة جعلاها تبدو كطلقة مسدّس، ليست صامتة وليست عالية الصوت، ولكن مؤذية! لم تكن تهزأ بل تتكلم بشكل جدّي تماماً، كل شيء فيها كان جدّياً.

سألتها: «ست رباب، هل تذكرين ليلة انتحار سعيد؟».

ردت بسرعة: «سعيد لم ينتحر! كان يحتاج إلى المساعدة ولم يساعده أحد، فاضطر إلى فعل ذلك! فهمتُ هذا في ما بعد».

«ولكنه رمى بنفسه من على السطح؟».

«صحيح، إذ لم يكن أمامه طريق آخر». تنهّدَتْ وتابعتْ: «قد لا تفهم هذا فأنت غريب ولم تعرفه، لن يفهم هذا أي شخص لم يعرف سعيدًا. أنا لا أبرّر ما فعله، الانتحار حرام ولا يجوز ولكن سعيدًا لم يكن... الله وحده يعلم كم كان يعاني، ربّنا غفور رحيم على أية حال».

سكتت وغرقت في دخان سيجارتها، دخّنتْ بصمت وراحت تمجّ مجّات عميقة متلاحقة. سألتها بعد لحظات الصمت تلك، والتي بدا أنها

أعادتها إلى ذلك الزمن بقسوة: «قلتِ إن السيدة الوالدة كانت تحمّل والدك المسؤولية عمَّ حصل، كيف ذلك؟».

لم تردّ مباشرةً. أطفأت سيجارتها في المنفضة المعدنية إلى جانبها، سحقت العقب بقسوة باردة وبطيئة، ثم عادت لتنظر في عينيّ بشكل مباشر. قالت: «لا أعرف ماذا تعلم بالضبط عن سعيد وعن أبي وعن عائلتنا، ولكن أبي رحمه الله كان متديّناً إلى درجة التزمّت والتعصّب. تعبنا كثيراً معه، كان يتعامل معنا بقسوة شديدة، حتى مع سعيد ابنه الوحيد كان قاسياً جداً، سعيد يحب الرسم منذ صغره وكان يريد أن يدرس الرسم والفنون في الجامعة، ولكن والدي كان صارماً جداً في رفض هذا الأمر، حتى إنه رضي أن يترك سعيد الدراسة ويعمل دهّاناً بدل أن يتابع دراسته! كان أبي يعتبر الرسم حراماً، كل شيء كان حراماً بالنسبة إليه، ولم تتغيّر نفسية سعيد إلا بعد ذلك، قبلها كان شخصاً طبيعياً، أخاً لطيفاً وعطوفاً، محبّاً وشديد الحنان...». غاب صوتها وصمتت، كان انعكاس ذكرياتها على وجهها يزيده شحوباً وجموداً، وجه نحيل أسمر شاحب منحوت من حجر، ولولا بريق عينيها اللتين كانتا في هذه اللحظات تسرحان عبر زجاج النافذة المغلقة في الفراغ الرماديّ تحت السماء الرصاصيّة في الخارج لبدتْ كتمثال يجسّد الحزن، الحزن الصافي والمقطّر عبر سنوات طوال. عادت بعينيها إلى عينيّ، وتابعت: «تخلّي سعيد عن أحلامه، إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة كانت تفصل بينه وبين أبي، كانت السبب في تغيّره، صار مريضاً، هكذا قال الأطباء، مريضاً هنا». رفعت يدها المعروقة بأصابعها الطويلة والنحيلة وأشارت بسبابتها إلى صدغها. انخفض صوتها وهي تتابع: «أمي كانت تقول أبوكِ جنّن سعيد وهو السبب. أقول لها سعيد ليس مجنوناً، بل كان مريضاً وهو يتحسّن، تنحدر دموعها بصمت وتهمس لماذا فعل بنفسه هكذا إذًا؟!».

سألتها: «لماذا دخل سعيد إلى المصحة؟».

«كان يسمع أصواتاً، هكذا أسرّ لي ذات مرة، أخبرني أنا فقط وجعلني أقسم ألا أخبر أحداً، أصوات تطلب منه محاربة الشياطين كي يساعد الملائكة، هكذا قال! أذكر كلماته حرفياً،كم أندم الآن أني لم أخبر أحداً، أقسمت له ألّا أفعل، وبررت بقسمي، ولكني أدركت في ما بعد أني كنت مخطئة، صرت حينذاك أقرأ له القرآن، وقرأت كثيراً ودعوت كثيراً ولكنه لم يستفد. أخيراً حاول الاعتداء على أحد الجيران، كان يسكن في الشقة التي تقع تحتنا وحاول سعيد قتله، حاول حرقه بالكاز، وقال إن ذلك الرجل كان شيطاناً متنكراً، كم بكيت وقتها. عندها عرضه أبي على أحد الأطباء هنا في حمص، وذلك الطبيب قال لأبي إن سعيدًا يحتاج إلى دخول المستشفى، ولكن ليس أيّ مستشفى، وإنما مستشفى المجانين!».

قاطعتها: «ليس مستشفى مجانين، بل مستشفى للأمراض النفسية».

تابعتْ وكأني لم أقاطعها: «هكذا كان الناس يسمّون ذلك المكان، مستشفى المجانين، العصفورية»[1].

بكت أمي كثيراً حينها، صرختْ وغضبتْ ورفضَتِ الأمر، ولكن أبي لم يردّ عليها وأخذه إلى دمشق وأدخله العصفورية أو... مشفى النفساويين كما قلت حضرتك».

«الأمراض النفسية». قلتُ بصبر.

تابعتْ: «كما تريد! المهم بقي سعيد أقل من سنة، وعندما خرج كان قد شفيَ، هكذا كنا نقول بفرح، أنا كنت مقتنعة بذلك، عاد إنساناً طبيعياً وعاد ليزاول عمله، ولكن العلاقة بينه وبين أبي ظلّت سيئة، أبي كان رجلاً قاسياً، ليغفر الله له».

«هل سمعت منه عن حامد، صديقه؟».

(1) العصفورية: كلمة في اللهجة العامية تستخدم في بلاد الشام للدلالة على مستشفى الأمراض النفسية والعقلية.- الناشر

«لا، لم يذكره قط، لم أسمع باسمه إلا عندما حدثت الحادثة».

«هل كان لديه أصدقاء تعرفونهم؟».

«قبل دخوله المستشفى كان أصدقاؤه قلائل جداً، وبعد خروجه لم يعد يقابل أحداً منهم إلا ذلك المدعو حامد كما عرفنا في ما بعد. قبل ذلك لم نكن نعرف عنه شيئاً».

«هل كان لا يزال يرسم في ذلك الوقت؟».

«على الإطلاق، منذ خلافه مع أبي وتركه الدراسة لم يرسم شيئاً، لم يكن يملك أيّ شيء يتعلّق بذلك أصلاً».

«هل كان يحب الموسيقا؟».

لاحت بعض السخرية في صوتها: «الموسيقا؟! أيّ موسيقا؟! ومن أين سنسمع الموسيقا؟ لم نكن نملك أيّ جهاز ممكن أن نسمع منه شيئاً، حتى راديو لم يكن عندنا. رفض أبي إدخال هذا الإبليس، كما كان يسميه إلى بيتنا، كل شيء كان حراماً، الموسيقا والراديو والأغاني،كلها كانت كفراً صريحاً على حدّ قوله!».

«هل كان سعيد متديّناً؟ أقصد هل كان يقوم بالعبادات؟».

«قبل خلافه مع أبيه كان يصلّي ويصوم ويقرأ القرآن يومياً، ولكن بعد تركه الدراسة تغيّر قليلاً، أنا أحسست بهذا، هو لم يُظهرْ ذلك بشكل واضح أمام أمّي وبقية أخواتي، وبالذات أمام أبي، ولكنه تغيّر، بدأ يهمل هذه الأمور، وبعد خروجه من المستشفى ترك كل شيء. كنت أتكلّم معه وأنصحه فيستمع ويبتسم في وجهي، ويقول إن الإيمان في الداخل وليس في الخارج، أقول له اشرح لي، ناقشني، يرفض ويبتسم ويكرّر كلماته نفسها، حتى أمام أبي لم يعد يهتم بهذا، لم يعد يخشى أباه مثل السابق، بات يواجهه ويتحدّث معه بصوت مرتفع ويخرج من المنزل صافقاً الباب خلفه، لقد تغيّر كثيراً».

«هل عاد ليتكلّم عن الملائكة والشياطين؟».

«لا، بعد عودته من المستشفى لم يتحدّث بذلك على الإطلاق، ولكن قبل الحادثة بنحو شهر قال لي ذات مرة، وكنا لوحدنا، جبريل أفضل من الجميع، سألته مَنْ جبريل؟ الملاك جبريل؟ ابتسم وقال أجل، الملاك جبريل، ولكن ملاكي أنا! جبريلي أنا! استفسرت منه عمَّ يقصد ولكنه لم يوضح شيئاً، ولم يتكلّم بالأمر بعد ذلك، ولم أفهم حتى الآن ماذا كان يقصد، شعرت بالخوف وخشيت أن الحالة قد عاودته ولم أخبر أحداً بما قاله لي حتى أمّي، ويبدو أن خشيتي كانت في محلّها، إذ بعدها بشهر... مات!».

«يبدو أن علاقتكما كانت مميّزة».

«أجل، أنا الكبرى بين أخواتي وهو الابن الأصغر، بيننا أربع أخوات وعشر سنوات، كنت أحبه كأخ وابن».

سرحت عيناها عبر زجاج النافذة. مرّت لحظات ثقيلة من الصمت، عادت لتتكلّم من دون أدنى تبدّل في نبرة صوتها، فيما عيناها تحدّقان في الفراغ: «لا أدري إن كنت تعلم هذا أم لا، سعيد كان يلثغ بحرف الراء وهو الوحيد في العائلة الذي كان يلثغ،كانت لثغته شديدة جدّاً، أنا الوحيدة بين أخواتي التي في اسمها حرف راء، منذ صغره كنت أحب عندما كان يناديني... غباب. هكذا كان يقول وكنت أبتسم، كنت أحب هذا».

وللمرة الأولى منذ بداية لقائنا عبرَ ظلّ ابتسامة وجه رباب، ابتسمتْ بحزن ولانت عيناها القاسيتان قليلاً. بدا وجهها وكأنه تحوّل من حجر إلى لحم ودم، كانت ابتسامة ولكنها مشبعة بالحزن إلى درجة تثير الشفقة.

استأذنتُ وانصرفت. العجوز المصابة بالفالج لم تتحرك ولم يبدُ عليها أنها كانت واعية أو مهتمة لشيء، رغم أن عينيها المفتوحتين بقيتا تحدّقان في الجدار المقابل طيلة الوقت. خرجت من البناء ووقفت

على الرصيف، أشعلت سيجارة وسحبت نفساً عميقاً. بدأت قطرات من المطر الناعم تهطل برقة متطايرةً في الهواء الذي اشتدّ قليلاً، أوراق أشجار الكينا القليلة المزروعة بين الأبنية بدأت بالتمايل بلطف. الخواء في داخلي امتلأ بالحزن وبات ثقيلاً جداً. عندما قدت سيارتي عائداً إلى منزلي تحت المطر كانت روحي تئنّ تحت وطأة تعاسة ثقيلة وقاسية لم أشعر بمثلها من قبل. ورغم دراستي الطويلة ومعارفي الطبية وخبرتي واحتكاكي مع آلاف المرضى المعذّبين والبائسين، ورغم حياديّتي التي اكتسبتها بالتدريج عبر سنوات الدراسة والتدريب لم أستطع إلا أن أتساءل بمرارة، كيف تستطيع روح الإنسان، أيُّ إنسان، أن تحتمل هذا الكمّ الهائل والمبهظ من الحزن؟ حزنٌ يتقطّر أحياناً عبر سنوات طويلة جدّاً من الأيام الباردة والليالي الخاوية إلا من الذكريات الموجعة والحيّة على الدوام؟

– 27 –

لم أستطع أن أنام مبكراً كما عاهدت نفسي أن أفعل. كنت طوال عمري، منذ أن كنت طالباً في المدرسة، كائناً نهارياً يستيقظ مبكراً وينام مبكراً، وبقيت هكذا طوال مراحل حياتي إلى أن صرت إنساناً وحيداً وخاوياً إلا من الذكريات، عندها بدأت لياليّ المؤرّقة تطول. ما زلت أستيقظ باكراً، اعتيادي على هذا ومتطلّبات عملي أبقيا على هذه العادة، ولكنها باتت نصف عادة، الاستيقاظ باكراً والسهر ليلاً، نصف عادة ونصف معادلة، أو معادلة ناقصة لا يستوي طرفاها.

في غرفة المكتبة جلستُ إلى ما بعد منتصف الليل بكثير مع أفكاري والدفاتر وموسيقا فاغنر. بمساعدة القهوة المركّزة بلا سكّر وسجائر المارلبورو، حاولت ترتيب ما قرأته وما سمعته وما عرفته خلال الأيام والأسابيع الماضية.

تساءلت وأنا أصغي إلى صوت المطر في الخارج، والذي كان عندما يشّتدّ يمتزج مع الموسيقا المنبعثة بصوت خافت من مكبّرات الصوت في جهاز التسجيل امتزاجاً لطيفاً وحانياً، موحياً وحزيناً في آنٍ معاً... ما الذي يدعوني إلى هذا؟ ما الذي يدفعني إلى أن أفعل هذا بنفسي؟

هل أحاول العيش في الماضي فضولاً لمعرفة ما جرى، أم حنيناً لزمن مفقود وغير مستعاد مهما حاول المرء أن يفعل؟ لم أتوصّل إلى أيّ إجابة صادقة. هل تهرب الإجابات دائماً عندما يتقدّم الإنسان في العمر؟ تتزايد الأسئلة وتندر الإجابات، يبدو أن من الصعوبة بمكان أن يصبح الإنسان بالغاً وناضجاً، الإشراق ليس سهلاً على أية حال. المعرفة ثقيلة إلى درجة أن الروح تنوء تحتها متعبة، هل كانت الأمور هكذا على الدوام؟ هل كانت هكذا عندما كان شعاع ضيّق من نور الشمس تسبح فيه ذرّات الغبار ينير كتف سلمى النائمة في صباح أول أيام شهر عسلنا، جاعلاً شامتها السوداء تبرز متألقةً بفرح على بشرتها البيضاء الناعمة؟ كيف كنت أشعر آنذاك وأنا أراقب عروسي النائمة بسعادة هادئة ومطمئنة؟ هل كان ذلك منذ سنتين فقط؟ أكان ذلك الزمن الطويل كلّه مجرّد ما يزيد قليلاً على السبعمائة يوم؟ ما الذي يحكم انسيابية الزمن وسرعته؟ كيف أعيش في عالم مضى وطواه النسيان -هل طواه النسيان حقّاً؟- منذ أكثر من عشرين عاماً وأكاد ما أراه يمرّ أمام عينيّ كشريط سينما أصفر باهت لحظة بلحظة، وشهقة ألم وراء شهقة ألم، بينما أرى الأشياء التي كانت حيّة منذ ما لا يزيد على سنتين تتفتّت أمامي كتماثيلَ من ملح في عاصفةٍ هوجاء؟تداخلت الأطياف وتعدّدت، المنزل بأكمله بات مليئاً بالألوان والروائح. في زاوية بعيدة من غرفة الجلوس كانت جدّة حامد تجلس إلى جانب مدفأة الحطب التي تهدر نارها، تحوك الكنزات الصوفية لحفيدها في ليالي الشتاء الطويلة وهي تدخن سجائرها البافرا وتحتسي قهوتها المحلّاة بشدّة، وتستمع إلى أغنيات لا تنقطع تنبعث بصوت منخفض من المذياع الصغير إلى جانبها. أراها في المطبخ نهاراً وهي تخبز صواني المعمول بالفستق الحلبي والمعمول بالعجوة في الفرن الكهربائي المدوّر الموضوع على الأرض استعداداً لعودة حامد في إجازاته الدراسية. أرى في زاوية أخرى حامدًا جالساً يستمع إلى الموسيقا التي يعشقها من أسطوانات الفونوغراف القديم الذي تركه

وراءه مهاجر أحرق مراكبه كلها. وفي وقت آخر يجلس ليكتب في دفاتره المدرسيّة الصغيرة المسطّرة آماله وآلامه وأفكاره وهواجسه وتهويماته. في زمنٍ آخر، وفي المكان نفسه، ثمّة شبح مجهول الوجه يرفع شمعداناً برونزياً ثقيلاً ليقتل شاباً كان ذنبه الوحيد أنه عاش في خيالات أشخاص آخرين أكثر مما عاش في حياتهم، وشابٌ آخر يهرب مذعوراً ليموت بعد أيام تاركاً من الأسئلة وراءه أكثر من الإجابات بكثير.

تداخلت الأطياف وتعدّدت، ركوة قهوة وراء ركوة قهوة، وسيجارة عقب سيجارة، وكاسيت بعد كاسيت حتى كاد الفجر ينبلج. المطر توقّف ولكن هبّات الريح الشديدة والقاسية لم تتوقّف. عندما غفوت في سريري البارد أخيراً كنت منهَكاً جدّاً. نمت بعمق إلى درجة أن الأحلام التي زارتني كانت مشوّشة ومتداخلة بشدة، ولم أستطع أن أتذكّر شيئاً منها عندما استيقظت قبيل الثامنة صباحاً بقليل وأنا أشعر بصداع شديد. لم أستطع أن أتذكر سوى أعمدة من نور تسبح فيها ذرّات من الغبار بهدوء، تنير أجساد نساء نائمات، وشمعدانات برونزية يقطر منها الدم ووجه بلا ملامح يصرخ من دون صوت، أنا أنتظرك منذ زمن طويل! كانت مجرّد شظايا أحلام متناثرة. ربما كانت كابوساً متنكّراً! هكذا قلت لنفسي وأنا أحضّر القهوة في المطبخ البارد.

- 28 -

التدوينات (10)

حلمت الليلة الماضية بأمل. رأيتها ترتدي ثوب عرسها الأبيض الطويل، ثم راح ثوبها الناصع البياض يتلوّث بالدم فأخذت تصرخ. كانت تناديني ولم أكن موجوداً، كنت أراها ولم أكن موجوداً، صرختُ فلم يخرج صوتي، ثم استيقظتُ وأنا أصرخ برعب وكنت أتعرّق بشدة. ناديتُ جدّتي، كنت خائفاً، ثم تذكرت أنها ماتت وتركتني وحيداً وأنني بمفردي في المنزل. كان ضوء النهار يدخل بخجل متسلّلًا عبر الستائر المسدلة. بقيت في فراشي طويلاً بعد ذلك، لم أجد القوة كي أنهض، يا إلهي كم أنا متعب. كنت متعباً في الصباح وما زلت حتى الآن في بداية المساء أكتب وأنا متعب، بل مرهق ولا أدري لماذا، لم آكل شيئاً طيلة اليوم، لم يكن لديّ الرغبة ولا الشهيّة لذلك، شربت قهوةً وشربت شاياً ودخنت كثيراً. الساعات تمضي ببطء، اليوم عطلة وأمل ليست في المدرسة، ولذلك لم يدفعني شيء للخروج من البيت، الطقس بارد ولكني لا أشعر بالبرد، أم إنني أشعر ولكني لا أهتم؟! لا

أدري على وجه الدقة. من أعطاني الكتاب يطالبني بالعمل عليه وعدم إهماله، أسمع صوته يقول بشكل متكرّر: أنت المختار للقيام بذلك... فقم بذلك. طلبتُ منه أن يذهب ففعل. فكرت أن أطبخ شيئاً وآكله ثم غيّرت رأيي، لا شهية عندي للطعام. فكّرت في الكتاب، كتاب الأسرار، كيف سأستطيع أن أفكّك تلك اللغة العجيبة لكي أفهم تلك الأسرار؟ لا رغبة عندي بالعمل، أرغب في أن أفكّر بأمل فقط. أتذكّر كيف رأيتها أول مرة، هيلين الطروادية تمشي بخيلاء ضمن هالة من النور الشفّاف على الممرات المبلّطة في حديقة جامعة دمشق، كانت تسمى آنذاك الجامعة السورية في خريف عام 1956 ولم تملك اسمها الحالي إلا بعد عام ونصف من تلك اللحظة الأسطورية وذلك عندما أعلنت الوحدة مع مصر وغيّروا اسمها عندئذٍ إلى جامعة دمشق.

عندما أعلنت تلك الوحدة في شباط عام 1958 وذلك بعد عام كامل بالضبط على اعترافي لأمل بحبي لها، تناقشنا في ذلك الأمر الجلل. كانت أمل متحفّظة على الوحدة بعكسي أنا، الذي كنت مؤيّداً لها بشدّة. لم نعد إلى ذلك الحديث الشائك بعد ذلك، وانشغلنا بأمورنا وأحلامنا الخاصة حول المستقبل، مستقبلنا نحن الاثنين فقط، ولم يكن اختياري كي أكون المكلّف بحماية وتفكيك أسرار كتاب الأسرار قد حدث بعد.

الآن أدرك أنني كنت مُراقَباً، لم أكن أهتم بهذه الأمور حينها، وحتى لو شعرت وقتها بذلك فلم أكن لأعيره اهتماماً كبيراً. بعدها فكرت ذات مرة هل يراقبني رجال المكتب الثاني؟ ثم تذكرت أنهم قد غيّروا الاسم، أصبحوا رجال المباحث. كنا في السنة الثانية من الوحدة حينها، ولكنهم لم يكونوا هم، سواءً أكانوا رجال المكتب الثاني أم رجال المباحث، لا يهم الاسم فلم يكونوا هم أصلاً كما كان نسيب العمّار مقتنعاً بذلك، ويؤكّد أنهم يراقبونه حتى وهو في المستشفى، رغم تأكيداتي له بأنهم لم يعودوا يهتمون بأمره بعد أن خسر ما يملكه كله -بما في ذلك عقله

أيضاً- ولكنه لم يكن يصدقني ويظلّ يؤكّد أنهم وراءه في كل مكان. مطارديّ هم مطاردو كتاب الأسرار والمكلّفين بملاحقة من يملكه وقتله، ولكنهم لم يستطيعوا الوصول إليّ. ما زلت هنا بأمان في منزلي حيث لا يعلمون بوجودي، والكتاب معي ومهمتي ثقيلة ولكني مشغول، أريد أن أنهي مشكلتي مع عائلة أمل قبل التركيز وبشكل كامل على مهمتي المقدّسة. بعد أن أتزوج من أمل سأتفرّغ لتلك المهمة، بعد أن أخوزق فايز السافل، تريستان الغدّار الذي طردني من بيته، وأتزوج أخته رغماً عنه وعن أبيه المتعجرف وأخيه الأبله. يظنون بأنهم أفضل مني لأنهم يملكون المال والنسب ويملكون الغرور أيضاً، ما أشدّ تفاهتهم! أنا أملك الكتاب، أنا أفضل منهم. المطاردون القساة والأشرار لم يثبّطوا همّتي، ولم يتوصلوا إلى إيقاف اندفاعي في مهمتي التي كُلّفت بها، فهل يستطيع أولئك البورجوازيون الصغار والتافهون ذلك؟! أشعر بالأسف لأن أمل ابنة هذه العائلة المتغطرسة، ولكني في الحقيقة لا أهتم، أهتم بأمل فقط وسأتعامل مع عائلتها لاحقاً، وسيعرفون قيمتي في ما بعد، سيعتذر مني تريستان وهو يرتجف من الخجل والخوف وعندها، عندها فقط أقول له: حسناً، سأسامحك يا... فايز. وقتها أقبل أن أعيد له اسمه القديم الذي منحه إياه والداه.

أتمنّى أن يزورني سعيد هذه الليلة، فلم أره منذ أكثر من أسبوعين، هو مشغول بالتأكيد بعمله وبخلافه مع أبيه ذي العقل المتحجّر، قلبه أيضاً متحجّر. يا لسوء حظ صديقي سعيد، للأسف الناس الجيدون ذوو حظ سيّئ كلّهم، ولكني سأغيّر هذه القاعدة، كتاب الأسرار وأمل هما وسيلتي إلى ذلك.

سأستمع إلى بعض الموسيقا، الشيء الحسن الوحيد الذي عرفته في عائلة أمي -عدا جدّتي المرحومة طبعاً- هو الفونوغراف والأسطوانات التي تركها خالي الأوسط عاشق الموسيقا، خالاي الآخران لا أدري ماذا

كانا يعشقان، ربما الخراء! لا أدري، ولا يهمّني أن أعلم شيئاً عن تلك العائلة التي أنجبت المرأة التي حملتني في بطنها تسعة شهور ولكنها نسيتْ ذلك. زوجها الثاني وما زرعه في بطنها في ما بعد من أطفال مسحاني من عقلها وقلبها، هذا إذا كانت تملك أيّاً منهما أصلاً، تسعة أشهر عشتها في بطنها، وخمس سنوات عشتها في بيتها المشترك مع ذلك الرجل الآخر، الذي أجد أنه من المؤلم أن أدعوه أبي. لا أعرف مِنْ عائلة الرجل المدعو أبي أحداً، وهذا جيّد في نهاية المطاف فهم لا يعنون لي شيئاً، فقط أورثوني نسَبهم الذي يلاحقني كوصمة. هكذا جعلني تريستان التافه أشعر عندما كان يكلمني بصلَف في منزله ذلك المساء التعس. أنا وصمة، أبي وصمة، أمي وصمة، عائلتي وصمة، العالم كله وصمة، لذلك لن أنتمي إلى أيٍّ من ذلك، سأنتمي إلى نفسي وإلى أمل وإلى كتاب الأسرار وإلى الموسيقا وإلى سجائر «لاكي سترايك» وإلى ذكرى جدّتي وإلى صداقتي مع سعيد الفنان ذي الموهبة الموؤودة. سيُسأل والده عن هذا يوم القيامة، أنا واثق من هذا، كما ستَسأل ذلك اليوم كل موؤودة عبر التاريخ الذي وأدها: لماذا قتلتني؟! التاريخ لا يحاسِب، الحساب سيأتي لاحقاً في يوم الحساب، ولكني لا رغبة لي الآن بفتح هذا الباب. تكفيني الموسيقا في الوقت الحالي، سأخبئ دفاتري وأعود لأستمع إلى شيء منها.

أنا متعب ومشتاق إلى أمل. غداً يوم دوام في المدارس ويجب أن أراها وأتحدث معها. بدأت أصابعي تؤلمني ولكني مُرغم على أن أسجّل كل شيء ولا أدري لماذا! ما أعرفه أني مكلّف ومختار وأني أيضاً مطارد ومهدّد، ليس من رجال المكتب الثاني، الذين أصبحوا رجال المباحث على الطريقة المصرية، ولا من تريستان الغدّار وأبيه المتعجرف وأخيه المخبول والذي لم ينطق بحرف طيلة وجودي في صالون منزلهم الواسع والمهيب أستمع بحزن إلى الكلام القاسي والمؤلم والجارح

مثل حدّ موسى صدئة، ولا من والد سعيد صاحب القلب الأجوف والعقل اليابس واللحية المنفوشة ولا من... حسناً، يكفي هذا فقد توقف عقلي عن العمل. لن أخاف من مطاردي الكتاب الأشرار، وأنا واثق من نجاتي منهم حتى ولو كانوا أقوى وأشدّ قسوةً من الجميع.

أشعر بالغمّ يثقل أنفاسي وأكاد أختنق، ولكن، Liebestod بالصوت المرتفع وإبريق شاي ثقيل ومختمر جيداً وسجائر لاكي سترايك من دون فلتر... هذا هو الحل والدواء والهواء... هكذا أظن.

– 29 –

كان مساءً بارداً عندما مازحني فريد قائلاً: «هل توصّلت إلى شيء مهمٍّ يا مستر كولومبو؟!».

قلت بهدوء وبنبرة جادة: «هل تظنّ الأمر مزاحاً أو تسلية؟!».

اكتسى وجه فريد بجدّية اعتاد بسبب عمله على رسمها بسرعة على وجهه: «بالتأكيد لا، كنت أداعبك، ما بك؟! صرت عصبياً أكثر من اللازم!».

تنهّدت: «اعذرني فأنا متعَب ولا أنام جيداً».

«بسبب هذه القصة؟».

«ربما، لا أدري ولكني متعب جسديّاً ونفسيّاً».

ضحك فريد ضحكته الهادرة ثم قال: «كما يقول المثل، الإسكافي حافي وباب النجّار مخلّع!».

ابتسمت: «ربما».

«حسناً، لنتكلم بجدّ. قل لي ماذا جرى معك، هل قابلت شقيقة سعيد؟».

استنشقت نفساً عميقاً ثم بدأت أحكي عن زيارتي لمنزل عائلة سعيد زنزن وحديثي مع الخيّاطة رباب. حكيت له كل شيء، وقلت إنني خرجت من عندها منهكاً ومتعباً، وكأن الحزن والتعاسة كانا شيئاً ملموساً ممتزجاً بالهواء استنشقته طيلة جلوسي هناك على الأريكة العتيقة ذات الصرير في الغرفة العابقة برائحة المرض والوحدة. قلت أخيراً وأنا أشعل سيجارة: «يبدو أن لا شيء يتغيّر عبر الأيام بل عبر التاريخ كله، الإنسان كائن بائس!».

قال فريد وهو يشعل سيجارة بدوره: «عملك يتيح لك رؤية البؤس من الداخل، وعملي يتيح لي رؤية البؤس من الخارج، أوافق على ما قلت، الإنسان كائن بائس على الدوام، هكذا كان وهكذا سيبقى، ولكن الآن دعنا في الحاضر، ماذا ستفعل؟».

«سبق وأن ذكرت لي أن سعيدًا تكلّم قبل موته بقليل، أتذكر؟».

«أذكر أن الممرّضة المناوبة قالت لي ذلك، لماذا؟».

«هل تتذكّر ماذا قال؟».

«من المستحيل أن أتذكّر! كانت بضع كلمات قالها مريض وهو يحتَضر ولم تكن مفهومة أو ذات معنى على أية حال».

«طيّب، هل تعرف ماذا حلّ بتلك الممرضة؟».

«يا إلهي! الموضوع مرّ عليه زمن طويل. أكثر من عشرين عاماً، الله وحده يعلم أين هي الآن!».

«هل تحاول أن تستعلم لي عنها؟ مجرّد محاولة».

«وماذا تريد منها؟ هل تظن أنها قد تتذكّر شيئاً مهماً؟ لنفرض جدلاً أنها ما زالت على قيد الحياة ووجدناها وقابلتها، هل تعتقد جدّياً بأنها يمكن أن تتذكّر؟!».

«كل شيء جائز، لم لا نحاول؟».

حكّ فريد رأسه المستدير الكبير كبطيخة ومسّد شعره القليل المتبقّي براحة يده وتنهّد، ثم قال: «علينا أن نبدأ من المستشفى الذي كانت تعمل فيه ونسأل عنها، فمن هناك يمكن البدء وقد نمسك بطرف خيط».

«هلّا قمتَ بذلك من أجلي؟».

ابتسم فريد بمودّة: « أنت تعلم أني سأفعل، ليس بسبب الفضول ومحاولاتنا الركيكة لتقليد أبطال الأفلام البوليسية، ولكن لأني أحبك يابن العم، أنت أخي الصغير».

«أشكرك... يا أخي الكبير!».

ابتسمنا وتابعنا احتساء القهوة والتدخين في المكتب الواسع والبارد، والذي كان خالياً من المراجعين في هذه الساعة المتأخرة من مساء يوم الخميس، ولكننا لم نكن سعيدَيْن. كانت مجرد ابتسامة مودّة عائلية، صحيح أنها كانت حقيقية وليست ابتسامة مجاملة لا معنى لها، ولكننا لم نكن نشعر بالسعادة حقاً، والسبب ليس الموضوع الذي كنا نتكلم فيه بل الحياة نفسها، كنا رجلَيْن بالغَين وناضجين ومن البديهي أن نكون غير سعيدين... بالضبط مثل الناس جميعهم في هذه الدنيا البائسة.

– 30 –

خرجت من منزلي ظهر يوم السبت بعد إغلاق العيادة. ركبت سيارتي وتوجّهت إلى حيّ جورة الشيّاح، حيث تقع مكاتب شركة الكرنك للنقل والسفر خلف مقهى الروضة تماماً، وحجزتُ مقعداً في أول حافلة منطلقة إلى دمشق في صباح اليوم التالي عند الساعة السادسة والنصف. التقيت بعدها فريدًا في مكتبه وحكيت له ونحن نحتسي القهوة عن حديثي الهاتفي مساء اليوم السابق مع زميلي الدكتور ربيع زيدان.

د. ربيع طبيب من دمشق، تخصّص في الطب النفسي في مدينة ليون الفرنسية، وتعرّفت عليه خلال أحد المؤتمرات العلمية الذي أقيم في باريس حيث كنت أقيم وأعمل وصرنا صديقين جمعت بيننا الغربة وزمالة العمل. وعندما عاد ربيع الذي يكبرني بعامين إلى سوريا بعد إنهاء فترة تخصّصه بقينا على تواصل عبر الهاتف والرسائل.

هاتفته مساءً وأخبرته إنني أحتاج إلى بعض المعلومات عن مريض كان نزيلاً في مستشفى الأمراض النفسية منذ مدّة طويلة. أخبرني د. ربيع إن أحد أصدقائه هو مدير المستشفى حالياً، وقد يستطيع مساعدتي وأعطاني اسمه ورقم هاتفه.

سألني فريد: «وهل تحدّثت مع ذلك الطبيب؟».

«لا، سأفعل أمراً آخر».

«وما هو؟».

«سأسافر إلى دمشق وألتقي به شخصياً في المستشفى».

ضحك فريد: «إنك جادّ فعلاً في الأمر!».

ابتسمت: «وهل كنت تظنني أمزح؟».

«لا، لم أقصد ذلك ولكن، أن تعطّل عملك وتسافر في مثل هذا الطقس البارد والمثلج، أنت تأخذ الأمر بجدّية كبيرة حقاً».

«وأريد أن أقابل أشخاصاً آخرين أيضاً».

«من؟».

«مدير المستشفى السابق وهو الطبيب الذي كان يعالج حامد واسمه معروف دبّاك، تقاعد عن العمل في المستشفيات العامة، ولكنه ما زال يعمل في عيادته الخاصة، أعطاني ربيع عنوان عيادته في دمشق، وثمّة شخص آخر أيضاً، ممرض كان يعمل في المستشفى في ذلك الوقت وهو الممرض الوحيد الذي ذكره حامد بالاسم، سأسأل عنه إن كان لا يزال على قيد الحياة، فمن المؤكّد أنه تجاوز السبعين حالياً ومتقاعد عن العمل، وقد يفيدني بشيء أو بمعلومة عن حامد وسعيد». رشفت من فنجان القهوة وتابعت: «على فكرة، هل توصّلت إلى شيء بخصوص تلك الممرضة التي كانت آخر من رأى سعيدًا على قيد الحياة؟».

«لا، سأذهب غداً بنفسي إلى ذلك المستشفى لعلّي أتوصل إلى شيء، وربما عند عودتك من دمشق أكون قد حصلت على بعض المعلومات».

قلت وأنا أنهض: «حسناً، أراك في ما بعد».

عندما خرجت من مكتب فريد كانت الريح باردة، وثمّة في غيوم السماء فجوات صغيرة باهتة الزرقة، يتغيّر حجمها وشكلها باستمرار،

والشمس تشرق بخجل للحظات وتعود للاختباء. حملت الريح رائحة مخلّفات مصفاة النفط من ناحية الغرب، رائحة بيض فاسد لوّثت رائحة الأرض المبلّلة والهواء النظيف الذي أعقب المطر. قدت سيارتي على مهل في شارع عبدالحميد الدروبي واتجهت إلى شارع طريق طرابلس، ثم انعطفت عند تقاطع المركز الثقافي يساراً إلى شارع الميدان. البرك الطينية في الشوارع والسخام الأسود المتراكم على جدران الأبنية القديمة، والحفر الصغيرة في إسفلت الطرقات المزدحمة، وسواقي الماء الموحل الجاري بحذاء الأرصفة الضيّقة، والذي تبتلعه فتحات المجارير المعدنية كانت تعطي مظهراً كئيباً لمدينة هرِمَة يمر الزمن عليها ببطء وتثاقل. قرب ساحة الحاج عاطف توقفت عند بائع الخضار والفواكه، اشتريت برتقالاً فقط ثم اتجهت صوب بقالية صغيرة واشتريت خبزاً وبيضاً وعلبة مرتديلا صغيرة، ولم أجد عنده محارم ورقية. قال لي البقّال العجوز إن المحارم مفقودة من الأسواق: «قد تجد في المؤسسة الاستهلاكية ولكن ليس دائماً، يوجد في السوق محارم مهرّبة وهي جيّدة ولكني لا أتعامل بها». ودلّني على بقالية كبيرة في حيّ مجاور تتعامل بالبضائع المهرّبة. سألته وأنا أتناول الكيس الذي وضع الأغراض فيه: «وغيرك، لماذا يتعامل بالمهرّبات؟!».هزّ البائع العجوز كتفيه ورمش بعينيه المغبّشتين وقال: «هؤلاء يملكون معارف أقوياء وواسطات كثيرة وأنا لست كذلك!».

خرجت واتجهت بسيارتي إلى الحيّ المجاور حيث تلك البقالية التي وصف البقّال العجوز صاحبها بأنه من ذوي الواسطات، اشتريت محارم ورقية وكروز مارلبورو، وعدت إلى منزلي.

تناولت غداءً بسيطاً، بيضًا مقليًّا ومرتديلا. وبعد الغداء أغلقت على نفسي باب العيادة وجلست وراء مكتبي أقرأ وأتأمل وأعيد القراءة.

- 31 -

العيش مهمة صعبة، لم أدرك هذا إلا متأخراً. من الطبيعي أن تكون الحياة سهلة بالنسبة لابن وحيد لأبوين متعلمين وثريين ومتفاهمَين. قدّما لي كل شيء من الممكن أن يُقدَّم لولد هادئ ومتفوّق في دراسته. حتى سنوات غربتي في فرنسا مضت مريحة وسهلة، أشرعتي كانت دوماً مواجهة للريح المناسبة. شاب ذكي وطموح وجادّ في حياته يستطيع مواجهة صعوبات الحياة المعتادة، ولكن السنوات الأربع التي تفصل بين عودتي من فرنسا حاملاً بفخر شهادة التخصّص الطبي وبين اللحظات التي أجلس فيها على مقعد حافلة شركة الكرنك المنطلقة في هذا الصباح الجليديّ إلى دمشق كانت حافلة بالانعطافات الحادة. حسناً، كشفت الحياة عن وجهها الحقيقي أخيراً، العيش مهمة صعبة! في عتمة الشفق البرتقالية الباهتة ركبت سيارة التاكسي التي طلبتها من مكتب لسيارات الأجرة يعمل على مدار ساعات اليوم في حيّ الميدان المجاور لحيّ المحطة. عندما وصلت إلى مقرّ شركة الكرنك كانت الساعة قد قاربت السادسة والنصف، الأضواء الجانبية الصغيرة للحافلة تبرق في غبش الصباح النديّ، وكان المسافرون قد وصلوا وجلسوا في مقاعدهم داخل الحافلة يلتمسون الدفء هرباً من الصقيع في الخارج.

وضع معاون السائق حقيبتي الصغيرة في صندوق الأمتعة وأغلقه، كنت الراكب الأخير الذي يصعد إلى الحافلة التي انطلقت بعد وصولي بقليل.

استيقظت قبل أكثر من ساعتين، رتّبت أشيائي في حقيبة السفر الصغيرة والأنيقة التي جلبتها معي من فرنسا. أنوي المبيت في دمشق ليلة واحدة على الأكثر إذا ما سارت الأمور على ما يرام. اغتسلت بسرعة وحلقت ذقني، ثم احتسيت فنجاناً واحداً من القهوة مع سيجارتين. ارتديت بزّتي الكحلية القاتمة وقميصاً أزرق فاتحاً بلون سماء الصيف، ووضعت ربطة العنق الخمرية اللون. اخترت أن أرتدي المعطف المطريّ الرماديّ بدلاً من معطف الجوخ الثقيل، كان حذائي الأسود الملمّع منذ الليلة السابقة جاهزاً أمام خزانة الأحذية بجانب باب المنزل، انتعلته وحملت حقيبتي وخرجت.

وضع سائق الحافلة شريط كاسيت لفيروز، أغاني الصباح المعتادة، التي تذكّرني كلما سمعتها بصباحات الشتاء في طفولتي وأنا أستعد للذهاب إلى المدرسة. كان الوقت يمضي بطيئاً مع ارتجاجات الحافلة، ثمّة ساعتان للوصول بعد. أشعل بعض المسافرين سجائرهم. فكرت أنه ينبغي منع التدخين في وسائط النقل العامة كما هو الحال في أوروبا، حرصاً على مشاعر بقية المسافرين من غير المدخنين، وعلى صحتهم أيضاً. اعترفت لنفسي بهذا، وكي أنسى مشاعر الذنب التي انتابتني وسبّبت لي بعض الإزعاج أخرجت علبة تبغي وأشعلت سيجارة! المسافر الجالس إلى جانبي والذي يبدو أنه طالب جامعي أشعل سيجارته هو الآخر عندما شاهدني أفعل ذلك. أكثر من نصف الركاب كانوا يدخّنون حتى النساء والشابات، وما زال الوقت يمضي بطيئاً حتى مع التدخين.

عندما كانت فيروز تشدو (شايف البحر شو كبير) بدأت قطرات صغيرة من المطر تطرق زجاج النافذة إلى جانبي بلطف، وأخذت ماسحتا

الزجاج الأمامي للحافلة بالعمل على السرعة البطيئة. سألت نفسي، لماذا عدت إلى هنا؟ ولكن، هل كنت أملك الخيار؟ المرة الوحيدة التي فكرت فيها جدّياً بالبقاء في فرنسا والاستقرار، كانت عندما كنت منغمساً بعلاقة مع آن خلال السنة الثانية من إقامتي هناك. في إجازة تلك السنة وفي بداية الأسابيع الثلاثة التي أمضيتها مع أمي وأبي خلال صيف حمص اللطيف ألمحت لوالدتي، مجرد تلميح، أني أحبّ فتاة فرنسية وأفكّر، مجرّد تفكير مبدئي لم يكتسب أبعاداً حقيقة بعد، أن أتزوجها. كانت ردّة فعلها هائلة، وكذلك والدي الذي علم بالأمر من أمّي في تلك الليلة بالذات. الابن الوحيد لأبويه عليه ألا يطعنهما في الظهر! كان ما قالاه وما فعلاه في الأيام التالية يعبّر عن هذه الجملة الفاقعة من دون لفظ حروفها، ومن دون أن تقال بحرفيتها، كانت إجازة سيئة للغاية. عندما عدت إلى عملي في باريس كانت عواطفي ممزّقة، وكذلك رغباتي وأحلامي ولكني إنسان متوازن، هكذا كنت على الدوام، واستطعت أن أمرّ بتلك الأزمة وأخرج منها بأقل الخسائر. استمرت علاقتي بآن بعدها لسنتين، ولكن آن نفسها ساعدتني على اتخاذ قراراتي الصعبة التي لم أجد فيها ما أندم عليه لاحقاً. كانت آن موظفة إدارية في المستشفى الذي أعمل فيه، شابة رقيقة وجميلة ولكنها تملك شخصية قوية وفكراً متحرراً وآراء حول الحياة مختلفة كثيراً عن آراء الرجل الشرقي، الذي كان يسكن عقلي في تلك السنوات. كنا نلتقي مرة أو مرتين في الأسبوع خارج المستشفى، نمضي أوقات الراحة القصيرة في النزهات، أو في السينما، أو في أحد المطاعم الصغيرة وأحياناً في الأوبرا، ثم نمضي الليلة في شقتي الصغيرة أو في شقة آن الأصغر منها. لم تكن آن باريسيّة بل تنحدر من بلدة ساحليّة صغيرة في الشمال حيث برد الأطلسي يخيّم دائماً على المشاعر، ربما لم تكن مشاعرها باردة ولكن عقلها كان كذلك. بعد أقل من سنة على بداية معرفتي بها ألمحتُ لها إلى فكرة الزواج. وردّت آن بأن أوضحتْ موقفها بشكل جليّ وفاقع الوضوح: هي ترفض فكرة الزواج، لا توافق

على مؤسسة الزواج والأسرة التقليدية أصلاً، لا ارتباطات ولا وثائق ولا عهود غير قابلة للانفصام ولا أولاد. «الحياة أقصر من أن تبدّد في هذه الشكلانيات العتيقة!». قالتْ.

توافق على المساكنة فقط، وفكرة الإنجاب غير مطروحة للنقاش أبداً، أمر سهل ومريح وبسيط ويتيح أن يكون لكل طرف حياته الخاصة التي بإمكانه التحكم بها كيفما أراد. كنت مصدوماً في البدء، لم أحاول تغيير موقفها، وطلبت منها أن نؤجل فكرة المساكنة وأن نبقى كما نحن حالياً. وافقت بارتياح. «ولكن، يجب أن نقرر ماذا نفعل في غضون أشهر! من غير ذلك الحياة ستكون فاترة!». هكذا قالت بتصميم وبساطة معاً. استمرت علاقتنا بسيطة وغير معقّدة. ما رأيته من موقف والديَّ الحاد في حمص ساعدني على قبول آراء آن في الحياة بسهولة أكبر، وشعرت كأن همّاً انزاح عن كاهلي. هكذا كنت أشعر وأنا مستمر في علاقتي مع آن بتلك الأريحية التي ما كان من الممكن أن أشعر بها لو كنت أفكر بعقليتي الشرقية تماماً. بدأت أتحوّل ببطء، واكتشفت، وأنا أتأرجح بين السرور بما اكتشفته والتعاسة التي ظننت أني مقبل عليها في ما بعد، أنني سعيد هكذا مع آن من دون ارتباط مُلزِم ونهائي. لم أكن أوافق على آرائها المتعلّقة بمؤسسة الزواج والأطفال والمساكنة، المناسِبة لروح العصر، بحسب تعبيرها، ولكني معها بالذات، مع هذه الشقراء النحيلة والجميلة ذات الجسد المتناسق والعاشقة للجنس أكثر من المعتاد لدى الفرنسيات، وجدت الأمر مناسباً تماماً. كانت رحلة مؤقتة، أنا أعرف هذا وهي تعرف هذا، وكان ذلك مريحاً لكلينا. انفصلنا بهدوء ومن دون ضغينة بعد أقل من سنتين، ولم أرتبط بأيّ علاقة بعدها حتى عدت إلى الوطن وكان الزواج في انتظاري، كانت سلمى، كان هناك الكثير من الأمور المفاجئة،كان هناك الإحساس بالتأرجح على حبل طويل فوق وادٍ سحيق. هل أستطيع أن أقول حقاً لماذا عدت؟ عدا عن أنني وحيد

أبويَّ اللذين ينتظران تلك العودة على أحرّ من الجمر؟ لماذا لا أعود فأسافر؟ باستطاعتي هذا، شهاداتي العلمية تتيح لي العمل في أي مكان، وخصوصاً في فرنسا. فكرت بأن النجاح الذي كان حليفي طيلة سنوات حياتي، وحتى الانتهاء من التخصّص والعودة ظافراً بالشهادة، التي يحلم بها الكثيرون، قد تخلّى عني منذ تلك العودة وحتى الآن، كل شيء في حياتي يتداعى، يتهشّم، يتلاشى، كل شيء سيّئ، إنها التعاسة ولا شيء آخر.

أصبح الجو داخل الحافلة خانقاً، تضافرت أنفاس المسافرين الخمسين مع دخان السجائر مع التكييف الدافئ القوي الذي يعمل منذ بداية الرحلة على جعله كذلك. حتى إن المعاون اضطر إلى فتح فتحتَي السقف الصغيرتين في مقدّمة الحافلة ومؤخرتها لتخفيف الحرارة وتجديد الهواء. استبدل السائق بكاسيت فيروز واحداً لميّادة الحنّاوي! كل وقت وله أغانيه، هكذا يفكّر السائق، ألا يفكّر جميع الناس هكذا؟ يحدّدون ما يناسبهم، ومتى يناسبهم في كل وقت، طريقة البشر في مساعدة أنفسهم على الاستمرار في العيش. أخرجني من تأمّلاتي الوجوديّة وقوف الحافلة عند نقطة التفتيش في مدخل العاصمة، بعد قليل استأنفت الحافلة مسيرها.

بعيد الساعة الثامنة والنصف صباحاً بدقائق توقفت الحافلة بهدوء وجلال مثل فيل عجوز في مكانها المخصّص في الموقف الكبير لشركة الكرنك في البرامكة، مقابل مبنى وكالة سانا للأنباء بطوابقه العشرة. بعد دقائق كنت أحمل حقيبتي الصغيرة وأقف على الرصيف خارج الموقف الواسع منتظراً سيارة أجرة خالية من الزكاب.كانت الشمس ترسل أشعّتها الضعيفة التي لا تدفئ شيئاً، البرد قارس وبضع غيوم بيض ممزّقة ومتناثرة تسافر ببطء في السماء، الشوارع مبلّلة وتبدو وكأنها أمطرت طيلة الليل. ظفرت أخيراً بسيارة تاكسي خالية وقلت للسائق أن يتوجّه

إلى ساحة المرجة. نزلت أمام فندق سميراميس ودخلت وحجزت غرفة لليلة واحدة. أتوقع ألا أحتاج إلى وقت أطول من ذلك. صعدت إلى غرفتي في الطابق الرابع وخلعت معطفي وجاكيت البزّة وأرخيت ربطة عنقي. غسلت وجهي بماء بارد واستلقيت على السرير مريحاً عضلاتي المتشنجّة لبعض الوقت. هبطت إلى البهو بعد أقل من نصف ساعة واحتسيت فنجاناً من القهوة، ثم خرجت من الفندق. بعد قليل كنت أجلس في سيارة تاكسي تقلّني إلى إحدى ضواحي دمشق حيث يقع مستشفى الأمراض النفسية. أسئلة كثيرة كانت تدور في عقلي وعليّ أن أحاول إيجاد الأجوبة. لا أحد يحب طرح الأسئلة، السكوت من ذهب، هذه هي القاعدة الذهبية التي يتبّعها الجميع عادةً، وأنا سأحاول كسر هذه القاعدة، ولو في ما يتعلّق بشخص واحد فقط... شخص واحد مات منذ اثنين وعشرين عاماً.

- 32 -

يقع مستشفى الأمراض النفسية في منطقة معزولة في إحدى الضواحي، وتصل إليه عبر طريق فرعية ضيّقة يقلّ السير عليها. توقفت سيارة التاكسي أمام بوابة الحديد الضخمة والمغلقة، ترجّلتُ وابتعد السائق بسيارته مسرعاً بعد أن أخذ أجرته، وكأن مجرّد التوقف أمام البوابة المغلقة يسبب الريبة والقلق في نفسه، مثل معظم الناس العاديين والبسطاء والجهلة أيضاً، والذين ما زالوا يتعاملون مع المرض النفسي والمصابين به بأسوأ مما كان الناس في العصور القديمة يتعاملون مع مرض الطاعون والمصابين به. كان ثمّة باب صغير مفتوح بجانب البوابة المغلقة وقربه من الداخل يجلس حارس على كرسيّ من الخيزران ويبدو مستمتعاً بأشعة الشمس التي تشرق بين الحين والآخر. عرّفته بنفسي وقلت إني أريد مقابلة الدكتور كنعان عوض مدير المستشفى. أدخلني الحارس وأشار إلى المبنى الذي يقع مكتب المدير فيه. مشيت في ممر مرصوف يقطع الحدائق صوب المبنى الرئيسي. المستشفى يتألف من عدة مبانٍ متلاصقة، ما عدا مبنى واحد يقبع منعزلاً في الخلف، أدركت أنه يخصّ المرضى الخطرين ومرتكبي الجرائم. المبنى الرئيسي مكون من ثلاث طبقات ويبدو قديماً أكثر من بقية المباني، التي كانت من طابقين أو طابق

واحد فقط، الحدائق غير معتنى بها بشكل جيد. ثمّة أشجار سرو طويلة تبدو قديمة ومعمّرة مزروعة بجانب السور العالي المحيط بالمصحّة من الداخل وبدت كسورٍ ثانٍ، وهناك أشجار صنوبر وحَور طويلة متناثرة هنا وهناك. تذكرت الكثير من المصحّات والمستشفيات التي شاهدتها في فرنسا، كانت شيئاً مختلفاً. صعدت الدرجات الرخام القديمة والملساء من كثرة الاستخدام، الموصلة إلى المدخل الرئيسي للمبنى، سألني بواب آخر عن طلبي ثم دلّني ومن دون أيّ اهتمام إلى غرفة المدير في الطابق الأول. صعدت درجاً في نهاية الردهة المتطاولة واتجهت إلى غرفة المدير. نقرت الباب ودخلت. استقبلني د.كنعان عوض بترحاب وودّ، ودعاني إلى الجلوس. كانت الغرفة واسعة ومدفّأة جيداً، المكتب الذي يجلس د.كنعان وراءه كبير وقديم مملوء بالملفات والأوراق من دون ترتيب، وثمّة خزانة كبيرة في زاوية الغرفة تتكدّس فيها الملفات، وفي زاوية السقف فوقها تدلّت شبكة عنكبوت ممزّقة. جدران الغرفة مطلية بلون أصفر باهت صار متسخاً عبر الأيام، وتوجد نافذة واسعة تشغل الحائط خلف المكتب لها مصراعان خشبيان من الطراز القديم. المصراعان مفتوحان وطلاؤهما متقشّر، يبدو أنه كان بنيّاً غامقاً ذات يوم، والستائر كذلك بلون بنيّ غامق مخططة بخطوط بيج فاتحة، بدت وكأنها خطوط غبار عتيق على الستائر غير المسدلة والمضمومة إلى الجانبين. جلست على أحد مقعدين من الجلد متقابلين أمام المكتب بدأ جلدهما الأسود الكالح بالتقشّر والتمزّق. المقعدان كانا قديمين مثل كل شيء في هذه الغرفة الواسعة المضاءة بأربعة مصابيح نيون موزّعة على الجدران، ومع ذلك لم تكن الإضاءة جيدة، نافذة سميكة زجاجها مغبّر وأربعة مصابيح نيون اسودّت أطرافها من طول الاستعمال، ولم تكن الغرفة منارة جيداً، لم يكن الضوء يفيض فيها كما يفترض بغرفة تستقبل نور نهار لم تتجاوز ساعته العاشرة صباحاً، وسماء ليس فيها الكثير من الغيوم في هذا الصباح الشتوي البارد. كان كل شيء فقيراً

في هذا المكان، فقر ينسحب على أرواح المقيمين هنا، المقيمين الدائمين والمقيمين المؤقتين من العاملين، فقر المكان وفقر الأرواح. علاقة تبادلية هذا ما كان الأمر يبدو عليه. أخرجني د. كنعان من أفكاري السوداوية بعد أن جلس على المقعد المقابل وهو يقول: «أخبرني د. ربيع أنك ستزورنا». تلا ذلك بعض المجاملات، وتعارفنا كطبيبين يلتقيان للمرة الأولى، وتجمع بينهما زمالة المهنة وزمالة التخصّص نفسه، شيء غامض، كزمالة السلاح، كرفاقية الحزب الواحد، كروحية الكشافة، كنا في الفريق ذاته.

الدكتور كنعان عوض رجل نحيل متوسط الطول، شعره مقصوص قصيراً جداً، يغلب عليه اللون الأبيض رغم أنه لم يكد يتجاوز الأربعين إلا بقليل، كما أن الصلع قد غزاه مبكراً أيضاً، له عثنون وشاربان قصيران وكأنه تركهما ينموان منذ أسابيع قليلة، نظارته الطبية المعلّقة بشريط حول عنقه تعطيه مع الشاربين والعثنون مظهر باحث طبي في مختبر علمي، يرتدي بزّةً رمادية مدعوكة تحتاج إلى كيّ، وقميصاً أبيض وكنزة صوف حمراء ولا يضع ربطة عنق، يبدو جادّاً وبسيطاً بآنٍ معاً. أخبرني أنه تخصّص في الطب النفسي في ألمانيا الشرقية بعد أن درس الطب هناك أيضاً في جامعة لايبزغ، واستلم إدارة المستشفى قبل عامين فقط بعد فترة وجيزة من عودته من الخارج. المدير السابق د. عبدالمتين أحيل إلى التقاعد قبل وصوله إلى السن القانوني لسبب صحيّ. سألته عن الدكتور معروف دبّاك ونحن نحتسي القهوة السادة التي أتت بها على صينية معدنية صغيرة مستخدمة عجوز تبدو أكبر من عمرها الحقيقي، حتى ليظن المرء أن الزمن قد نسيها هنا.

«آه... د. معروف، أستاذنا جميعاً، ترك الإدارة هنا منذ اثنتي عشرة سنة عندما بلغ الستين وتقاعد، وجاء بعده د.عبدالمتين ثم أنا، ولكني لم

ألتقِ به، أقصد لم نعمل معًا هنا، ولكني أعرفه معرفة سطحية، التقيت به في مؤتمر جمعية الطب النفسي منذ عامين، ألم تحضر ذلك المؤتمر؟».

«لا، في الحقيقة كنت مشغولاً بعض الشيء».

تنحنح د.كنعان وسعل وأطفأ سيجارته من نوع الحمراء الطويلة في المنفضة النحاس الكبيرة الموضوعة على الطاولة الصغيرة، منفضة بدت وكأنها تعود إلى قرنٍ مضى، عتيقة ولم تنظف منذ زمن طويل، ثم أشعل سيجارة جديدة، كان يدخن من دون توقّف.

مرت لحظات صمت، ثم سألني د. كنعان بشكل مباشر: «هل ثمّة شيء معيّن تريد معرفته منه؟». كان يقصد الدكتور معروف.

«أريد أن أسأله عن أحد مرضاه، كان نزيل المستشفى هنا».

«إذا كان د. معروف طبيبه فهذا يعني أن ذلك كان منذ زمن طويل».

أوضحت: «كان المريض هنا في عام 1961».

«أوه... وقت طويل!».

«أجل، على فكرة، هل تحتفظون بملفات المرضى القدامى كلهم؟».

ابتسم د. كنعان: «نظرياً أجل، لكن عملياً من الصعب العثور عليها، الملفات القديمة توجد في المستودعات في القبو، وفي الشتاء الماضي وبعد مطر غزير فاضت المياه في القبو، المبنى قديم كما تعلم وتمديداته الصحية عتيقة وصدئة، (وتضررت الكثير من الملفات ونحن الآن نعيد أرشفتها من جديد، ونحتاج إلى بعض الوقت، ربما لا أستطيع مساعدتك بذلك الآن. ربما نستطيع لاحقاً». حدّق في عينيّ بفضول وتابع: «هل يهمّك الأمر كثيراً؟».

«حسناً، كنت آمل أن أقرأ الملف. ولكن، يبدو أنني سأعتمد على ذاكرة الدكتور معروف».

«بحسب ما أعلم فهو ما زال يمارس المهنة في عيادته، ويحتفظ بملكاته كاملة ومن الممكن أن يفيدك».

حاول د. كنعان أن يعرف السبب الذي يدعوني للسفر والتحقق من مريض كان نزيل المستشفى منذ أكثر من عشرين عاماً. أجبته بغموض. قلت إنها أمور عائلية. لم يبدُ د. كنعان مقتنعاً بما قلته ولكنه كان لطيفاً ولم يلحّ.

سألته: «كان يعمل هنا ممرضٌ في تلك الفترة نفسها اسمه طلعت، هل تعرف عنه شيئاً؟».

«هل الأمر يتعلّق بالمريض نفسه، قريبك؟».

«أجل».

«أعرفه، اسمه طلعت رفقي، وعندما استلمت الإدارة هنا كان قد تقاعد منذ مدة طويلة ولكنه يزورنا باستمرار، يزور أصدقاءه من العاملين هنا، وقد زارني وهنأني بمنصبي عندما صرت مديراً للمستشفى، أحياناً أستغرب زياراته المتكررة تلك وكأنه يتذكّر أيام عمله هنا، يبدو أنه كان راضياً عن عمله وعن نفسه. سمعت أن زوجته مريضة ولا تبارح المنزل وأولاده مهاجرون في الخارج، ويبدو أنه يتسلّى بالمجيء إلى هنا».

«هل تعرف أين يقيم؟».

«لا ولكن أبو العزّ، الحارس على البوابة الخارجية صديقه الحميم، ومن المؤكد أنه يعرف مكان سكنه، تستطيع أن تسأله».

عندما كنت خارجاً من المستشفى أدركت أن مزاجي ازداد سوداويةً. لم أستفد شيئاً سوى معرفة مكان سكن الممرّض طلعت، الذي أخبرني به الحارس العجوز أبو العزّ: «في شارع القصّابين في دوما، وستجده إما في المنزل أو في المقهى القريب في الشارع نفسه».

على أيّ حال لم أكن أتوقّع الكثير. مضت اثنتان وعشرون سنة منذ أن

كان حامد وسعيد هنا. انتبهت إلى أني بتّ أفكر بالاثنين معاً بشكل دائم، القتيل والقاتل المفترض. تكدّر مزاجي أكثر وأنا أقف خارج البوابة على هذه الطريق المعزولة ذات الإسفلت الرديء منتظراً مرور أيّ واسطة نقل تقلّني إلى دوما التي لا تبعد كثيراً. أشعلت سيجارة بصعوبة بسبب هبّات الهواء البارد، غابت الشمس بعد أن أخذت غيوم رمادية داكنة وكثيفة تملأ السماء الباهتة. عندما رأيت ميكروباصًا يأتي من بعيد متمهّلاً، رميت عقب سيجارتي في بركة موحلة بجوار السور المرتفع ووقفت أنتظر.

- 33 -

تناولت طعام الغداء في مطعم الصدّيق الشهير. مطعم صغير يقع في أحد الشوارع الضيّقة المتفرعة من ساحة المرجة، ولا يقدم سوى نوع واحد من الطعام، شاورما اللحم. لا يقدّمها كشطائر بل يقدّم كمية سخيّة من الشاورما في طبق كبير، مغطاة برغيف خبز ساخن ومعها قرص كبّة مشوية كبير، وإلى جانب ذلك قصعة صغيرة من اللبن العيران بالثوم والنعنع، وفي نهاية الوجبة يقدم نوعاً واحداً أيضاً من الحلوى، قطايف عصافيري بالقشطة مع القطر. الطعام شهيّ وجوّ المطعم مريح ودافئ. كنت أتناول غدائي هنا بشكل متكرّر عندما كنت طالباً جامعياً وكان هذا مطعمي المفضّل. آخر مرة أكلت هنا كانت منذ اثني عشر عاماً. لم يتغيّر شيء، الطعام اللذيذ والخدمة السريعة والجوّ الحميم، حتى النادل العجوز المتجهّم كان نفسه.

كنت قد عثرت على الممرّض السابق طلعت رفقي في المقهى الصغير الذي ذكره أبو العزّ. ذهبت إلى منزله أولاً، وهناك أخبرني أحد الجيران أنه موجود في المقهى. اتجهت صوب المقهى، دخلته وتأملت المكان. مقهى صغير وعتيق لا يتجاوز عدد طاولاته ذات القوائم

المعدنية والسطوح الرخامية الصغيرة عشر طاولات، وكراسيه من الخيزران الأصفر كانت مشغولة بمعظمها بالزبائن، وكلهم من العجائز والمتقدّمين في السن. الجو خانق والجميع كان يدخّن إما سجائر أو نراجيل، في الزاوية الخلفية خلف مصطبة العمل يوجد رفّ خشب عليه جهاز تسجيل قديم وصوت أم كلثوم يصدح بأغنية «يا مسهّرني»! لم نصل إلى منتصف النهار بعد وهم يستمعون إلى «يا مسهّرني»! شعب خفيف الظلّ حقّاً! قلت لنفسي هذا وأنا أتجه صوب العامل خلف المصطبة الرخام. كان شاباً نحيلاً تبدو عليه ملامح البلاهة، قلت: «صباح الخير، أبحث عن طلعت رفقي». حدّق فيّ الشاب لحظات، بدا أنه بذل مجهوداً كبيراً كي يفهم ما قلته، وأشار أخيراً بسبابته نحو الزاوية البعيدة في عمق المكان: «هناك، الشايب أبو شوارب!». نظرت حولي، الزبائن كلهم متقدّمون في السن، وشيباً وكلهم أيضاً عندهم شوارب، ومع ذلك استطعت تمييز طلعت رفقي عن غيره من دون المساعدة القيّمة التي قدّمها لي الشاب!

كان يجلس بمفرده إلى الطاولة الصغيرة في الزاوية غير المطلة على الشارع يحتسي كأساً من الشاي ويدخّن نرجيلة، اتجهت نحوه متيقّناً أنه من أبحث عنه. رجل طويل ونحيف، شعره أبيض وكثيف وكأنه لم يفقد شعرة منه رغم عمره الذي يبدو أنه ينوف على السبعين، شعر كثيف وقصير وقاس كوبر فرشاة تنظيف. له شارب عريض مربّع لم يتمكن الشيب منه كثيراً مثل باقي شعر رأسه، يرتدي بدلة سفاري بنيّة بالية، وتحتها كنزة من الصوف سوداء اللون بقبّة عالية تغطي الرقبة. كانت له هيئة الرجل المتعالم الذي يعلم كل شيء، وتلك الثقة الممزوجة بالتعب والملل التي تطبع حركاته عندما يرتشف من كأس الشاي أو يضع مبسم النرجيلة في فمه.

اقتربت منه قائلاً: «صباح الخير، سيد طلعت رفقي؟».

ابتسم الرجل ابتسامة ودّية واسعة كشفت عن أسنان صفر ومنخورة، وقال: «وصلت! أهلاً وسهلاً، أنا طلعت، تفضل اجلس».

سحبت كرسياً من الخيزران الأصفر العتيق يكاد يكون مخلّعاً وجلست أمامه. دعاني طلعت إلى الجلوس بترحاب من دون أن يستفهم مني لماذا أسأل عنه! لم يبدُ عليه أي خوف أو توجّس أو ريبة تجّاه الرجل الغريب الذي يريد مقابلته. لفّ خرطوم النرجيلة حول عنقها المعدنيّ الطويل وعدّل من جلسته وتوجّه إليّ بالكلام: «أهلاً وسهلاً، ماذا تحب أن تشرب؟».

«قهوة، من دون سكر لو سمحت».

صاح طلعت باتجاه الشاب الواقف خلف المصطبة: «فرفور... واحد قهوة سادة للأستاذ وبسرعة». ثم سعل بشدّة. ولدهشتي، إذ رأيته قبل لحظات يدخن النرجيلة بشراهة وسعادة، أخرج من جيبه بخّاخ دواء للربو واستنشق منه مرتين وأعاده إلى جيبه. بدا رجلاً من أولئك الرجال المسّنين الذين يجمعون في جسدهم عدة أمراض خطيرة معاً ولا يبالون بها، ولكنّ عينيه كانتا تقولان بوضوح إن ما في جمجمة هذا الرجل الأشيب ما زال بعافيته تماماً. ابتسم في وجهي بصمت، كان ينتظر أن أفسّر له سبب بحثي عنه، بدا هادئاً وواثقاً.

قلت: «اسمي عادل شكري، من حمص، أنا طبيب أمراض نفسية».

أشرق وجه طلعت وهتف: «أهلاً بالدكتور، والله شعرت بأنك طبيب، عملت طوال حياتي مع الأطباء وأعرف الطبيب من غيره».

جاء النادل بفنجان القهوة. كان فتىً لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، قال له طلعت: «يسلمو بربيش». النادل اسمه بربيش، وعامل القهوة اسمه فرفور، لم أستغرب أن القهوة كانت سيئة الطعم. عندما أخرجت علبة تبغي من جيبي سارع طلعت بإخراج علبة تبغ من نوع بالميرا من جيب البدلة، وهذا ما زاد من استغرابي، نرجيلة وسجائر وبخّاخ ربو،

مزيج غريب ومرعب! قال طلعت وهو يضيّفني: «تفضل من عندنا».
«شكراً، ولكني لا أحب تغيير دخاني».

أشعل لي طلعت سيجارتي، ثم أخرج سيجارة بالميرا من علبتها الورقية، ليّنها بأصابعه ثم مسّدها ودبّب طرفها وأشعلها بدوره. نفث الدخان من منخريه بكثافة، ثم قال: »بماذا أستطيع أن أخدمك يا حكيم؟ «.

تنهّدت. أحسست بأن الزمن يتمدّد، السواد في نفسي ما زال طاغياً، كان لا بد من التقدم إلى الأمام، حدّقت في عيني طلعت مباشرةً ثم بدأت الكلام.

- 34 -

عندما ذكرت أني أريد أن أسأل عن حامد ابراهيم وسعيد زنزن تهلّل وجه طلعت، بدا أن سنواته التي تزيد على السبعين نقصت عشرين عاماً. قال: «الله يا دكتور! أرجعتني عشرين سنة إلى الوراء وربما أكثر، هل تعرفهما؟».

«تستطيع أن تقول ذلك».

«ما أخبارهما؟».

تمهّلت لحظة ثم أجبت: «لقد ماتا!».

غابت الابتسامة عن وجه طلعت. حكيت له كيف ماتا ومتى. كان التعبير على وجه طلعت جدّياً وصارماً. تساءل: «وحضرتك لماذا تسأل عنهما إذا كانا قد ماتا منذ هذه السنوات الطويلة كلها؟!».

شرحت له باختصار أني عثرت على دفاتر يوميات حامد، وأني أعدّ دراسة طبية من أجل شهادة جامعية فرنسية، ذكرت له اسمها الطويل، والذي لن يفهمه طلعت رغم تحذلقه الطبي الذي لا يحاول إخفاءه، وأني سأستخدم الحالات الطبية التي أسأله عنها في تلك الدراسة. تظاهر طلعت بالتصديق. منذ أن رأيته أدركت

أنه رجل ذكي ولا يزال يتمتّع بقدراته العقلية كاملة رغم تقدّمه في العمر. حدّقت قليلاً في سُحب الدخان الأزرق الكثيفة التي كانت تتموّج ببطء في فضاء المقهى الصغير ثم عدت بعينيّ إلى طلعت: «سيد طلعت، ربما كان اهتمامي شخصياً بعض الشيء... وأكثر من مجرد دراسة طبية سأتقدم بها إلى جامعة أجنبية، هذان الشابان أنت عرفتهما جيداً، وقد ذكرك حامد في يومياته بالخير، وكتب أنك كنتَ طيباً معه، إنهما شابان ماتا مظلومين وأشعر أن بإمكاني أن أعيد لهما قليلاً من الاعتبار».

تغيّرت تعبيرات وجه طلعت، بات حزيناً بعض الشيء، وقال بودّ: «وماذا يفيد ذلك الآن يا حكيم؟ الأمر مرّ عليه زمن طويل فليرحمهما الله».

«صحيح ولكن تستطيع القول إن الضمير لا يموت، دعك من الفضول ودعك من العلم ودعك من كل شيء، ولكن يجب أن يكون ضمير المرء مرتاحاً».

«لا تتعب نفسك يا حكيم، النبش في الماضي يسبب وجع الرأس أحياناً». كانت كلماته تحمل لهجة ودّية صادقة وبدا متعاطفاً معي.

«قد تكون على حق ولكني أريد متابعة الموضوع حتى النهاية».

تبادلنا النظرات لبرهة، وأشعلنا سجائر جديدة. كان فنجان القهوة وكأس الشاي قد فرغا، فطلب طلعت فنجانين من القهوة. بعد أن وضعهما بربيش وابتعد مترنّماً بطلبات الزبائن الآخرين، حكى طلعت ما يتذكّره عن حامد وسعيد.

بعد أن انتهى من حديثه وجدت أنه لا يضيف شيئاً جديداً عما أعرفه أصلاً من اليوميات، ولكنه يبيّن بوضوح أن طلعت يملك ذاكرة حديدية حقّاً فسألته: «هل تذكر ماذا كان تشخيص حامد بالضبط؟ أعرف أنه مريض فصام ولكن أيّ نوع! لم أعرف».

«فصام بسيط، ذلك النوع الذي كان الدكتور معروف يقول عنه إنه أصعب الأنواع في التشخيص، ولا أذكر أنه أخطأ يوماً في تشخيص حالة مرضية، طبيب عظيم».

مرّت لحظات من الصمت سألته أخيراً السؤال الذي كان لا بدّ أن أسأله: «أنت عرفت الاثنين وكانا صديقين، هل تظن أن من الممكن تحت ظروف معينة أن يُقدِم سعيد على قتل حامد؟».

«مستحيل، لا يمكن ذلك، الأمر لا علاقة له بالصداقة ولا بالمحبة، مع أن سعيدًا كان يحب حامدًا كأخٍ له، سعيد كان فصامياً زورانياً وسمّمت الهلاوس حياته، صحيح أنه تحسّن على العلاج كثيراً وخرج بعدها من المستشفى، ولكن الحقيقة أن هلوساته عشّشت في رأسه، أنا شاهدت الكثير من المرضى والكثير من الفصاميين وبعضهم لا تفارقه الهلاوس، قد لا يعودون يسمعونها أو يرونها ولكن يتذكّرونها وتصبح حقيقة في عقولهم الباطنة، في ذلك الجبّ المظلم والمنسي في الأعماق، قد لا توافقني كطبيب نفسي على ما أقول ولكني كنت أرى ذلك في المرضى بوضوح، أنا أعرف كيف كان سعيد يرى حامدًا، لم يكن يراه أخاً وصديقاً فقط، بل كان يراه أكثر من ذلك». سكت وبدا أنه لا يريد أن يقول أكثر من ذلك.

قلت ببطء: «كان يراه ملاكاً مثلاً؟!».

فوجئ طلعت، وقال فوراً: «كيف عرفت؟ هل كتب حامد عن ذلك أيضاً؟».

«أجل، كتب أن سعيدًا يعتبره ملاكه».

تنهّد طلعت، وقال بصوت خافت وحزين: «صحيح، وهو لم يكن يذكر ذلك أمام أحد، أنا سمعت ذلك منه بالصدفة واستحلفني ألا أخبر أحداً وخصوصاً الدكتور معروف، تحسّن كل شيء في سعيد وشفي حقّاً إلا هذه الفكرة ولم يستطع شيء إخراجها من عقله،

حامد ملاك، نقطة انتهى! ولكن لأن هذا شيء غير مؤذٍلم أخبر أحداً من الأطباء، ولذلك لا يمكن أن أصدق أبداً أن سعيدًا قتل حامدًا، هذا مستحيل!».

«هذا ما يدعوني للبحث عن الحقيقة».

تأمّلني طلعت لحظات، ثم سألني: «هل تظن أنك تستطيع أن تعرف ما حدث حقّاً بعد هذه السنوات كلّها؟». لم يكن سؤاله استنكارياً، كان سؤالاً بسيطاً وواضحاً ولا يحمل أيّ نبرة تهكّم.

قلت بهدوء: «سأحاول».

كان آخر سؤال وجّهته إلى طلعت عن نسيب، المريض الوحيد الذي ذكره حامد بالاسم في التدوينات. أجاب طلعت مع ابتسامة حزينة: «آه... نسيب العمّار! الذي لا يتكلّم مع أحد! ربما كان حامد هو الوحيد الذي استطاع أن يجري محادثة معه، يبقى فترات طويلة محدّقاً أمامه ولا يتحرك،كان تشخيص حالته (كاتاتونيك سكيتسوفرينيا)، تعرف كيف يتصرف أولئك المرضى».

أعجبني أنه لفظ المصطلح الإنكليزي بشكل صحيح، فابتسمت: «نسيب كان مصاباً بفصام تخشّبي جمودي إذًا؟».

طلعت رفقي كان رجلاً لمّاحاً. قال: «أجل، ولكن الدكتور معروف وبقية الأطباء في ذلك الوقت كانوا يحبّون الأسماء الأجنبية، كاتاتونيك، هكذا كانوا يقولون».

«وماذا حلّ به؟».

«لا يزال في المصحّة، وسألت عنه أبو العزّ في آخر زيارة لي إلى هناك فقال إنه على (حطّة إيدك). لم يستطع أيُّ طبيب أو دواء دفعه ولو قليلاً نحو الشفاء، أحبَّ وجوده في المستشفى وارتاح إلى الحياة فيها ولن يخرج منها إلا ميتاً!».

عندما نهضت لأنصرف حاول طلعت أن يستضيفني على الغداء في منزله القريب. ألحّ كثيراً وكان صادقاً في دعوته الودّية. اعتذرت بمشاغلي وغادرت المقهى الغارق في دخان السجائر والنراجيل والشيخوخة وصوت أم كلثوم.

عدت إلى الفندق وقد تجاوزت الساعة الرابعة عصراً. استلقيت كي أرتاح قليلاً وغفوت وأنا أفكر بما جرى معي خلال هذا اليوم.

في المساء وقبل مغادرتي الفندق اتصلت هاتفياً من غرفتي بعد أن طلبت خطاً خارجياً باستعلامات مؤسسة البريد والهاتف، وطلبت رقم عيادة الدكتور معروف دبّاك. ثم اتصلت بالعيادة، وردّت عليّ ممرضة بدا من صوتها أنها متقدّمة في العمر. قالت إن الدكتور معروف موجود في العيادة وإنه يستطيع استقبالي بين الساعة السابعة والسابعة والنصف. شكرتها وأغلقت السماعة وارتديت ثيابي على مهل، ثم غادرت الغرفة. ركبت سيارة أجرة من أمام الفندق أوصلتني إلى أول شارع الحمراء قرب مبنى مجلس الشعب. مشيت في الشارع التجاريّ العريض والمزدحم متأملاً اللوحات الإعلانية الكثيرة المعلّقة في كل مكان باحثاً عن اسم الدكتور معروف. وصلت إلى نهاية الشارع وكدت أدخل جادّة عفيف في الجسر الأبيض ولم أعثر على العيادة بعد. ندمت لأني لم أسأل الممرضة عن العنوان بدقة. عدت أدراجي وسألت بائعاً في بقالية صغيرة، فدلّني على العيادة المنزوية في زقاق ضيّق يصل شارع الحمراء بشارع الصالحية. في السابعة إلا ربعاً كنت أدلف إلى العيادة العتيقة.

- 35 -

في المدخل غرفة انتظار صغيرة، لا يوجد فيها سوى أربعة مقاعد قديمة من الجلد، وطاولة صغيرة في الزاوية تجلس وراءها ممرضة كانت بالفعل كما خمّنت، متقدّمة في السن ويبدو أنها تجاوزت الستين عاماً.

كل شيء قديم هنا. البلاط الشطرنجيّ الأسود والأبيض، طلاء الجدران الأبيض الكامد، النافذة الخشب ذات المصاريع العتيقة المطلّة على منور ضيّق ومعتم بستارتها الشفّافة التي كانت بيضاء في يوم من الأيام، طاولة الخشب العالية التي تجلس خلفها الممرضة، مقاعد الانتظار التي بدت أنها من قرن آخر، لوحات التشريح الطبي القديمة المعلّقة على الجدران، مروحة السقف التي تراكم الغبار على شفراتها الثلاث العريضة. الغرفة منارة بمصباح نيون وحيد يعطي ضوءاً أبيض كئيباً وبارداً، الممرضة بدت وكأنها هربت من سنوات الستينات بملابسها المحتشمة والأنيقة وقصّة شعرها القصيرة ونظارتها الطبيّة ذات الإطار الأسود السميك، وحتى بأحمر شفاهها الغامق، كانت تعلّق في عنقها فوق كنزة الصوف السوداء سلسلة غليظة من الذهب يتدلّى

منها صليب. عندما دخلتْ غرفة الطبيب كي تخبره بقدومي لاحظتُ أنها كانت تعرج قليلاً. خرجتْ بعد لحظات وقالت بصوت أجشّ: «تفضل، الدكتور بانتظارك». شكرتها ودخلت إلى الغرفة الأخرى.

أحسست بأن الزمن ازداد رجوعاً إلى الوراء، كل شيء عتيق، حتى الطبيب الجالس وراء المكتب الواسع. كانت الغرفة دافئة، ليس ذلك الدفء المنبعث من مدفأة المازوت الكبيرة من الطراز القديم الموجودة في زاوية الغرفة الكبيرة وهي تهدر بالنار، ولكنْ دفءٌ من نوع آخر، نوعٌ لا يدرك بالأعصاب ولكن بالأحاسيس.

كان الدكتور معروف دبّاك رجلاً قصيراً يميل إلى البدانة بعض الشيء، وجهه مستديرٌ ومترهلٌ ولغده الكبير المحشور فوق ياقة قميصه المزرّرة يوحي بعمره وبدانته معاً، شعره رماديٌ خفيفٌ يمشّطه مفروقاً من المنتصف إلى الجانبين، ذقنه حليقة وخدّاه لامعان وكأنه حلق ذقنه للتوّ، عيناه صغيرتان مدورتان تشعّان ذكاءً لم تستطع السنوات أن تنال منه. يرتدي بزّةً من الجوخ الإنكليزي سوداء اللون مقلّمة بخطوط بيض رفيعة من ثلاث قطع، بنطالًا وجاكيت وصدرية مزرّرة، وقميصاً ناصع البياض، ويضع ربطة عنق بشكل فراشة بلون رمادي فاتح بدل ربطة العنق العادية. نهض واقفاً وصافحني بودّ ودعاني إلى الجلوس في أحد مقعدي الجلد الوثيرين والمنخفضين والعتيقين، كما كل شيء آخر، أمام المكتب. بدا جنتلماناً حقيقيّاً حتى إنه كان يزرّر كمّي القميص بأزرار ذهبية لامعة. جلست في مقعدي وجلس د. معروف وراء مكتبه على كرسي الجلد الدوّار الضخم والفخم. الإنارة ضعيفة في الغرفة التي تكاد تبلغ مساحتها أربعة أضعاف غرفة الانتظار، مجرد مصباحين، مصباح مكتب إلى يسار د. معروف له ظلّة زجاجية مغشّاة ومزيّنة برسومات أوراق أشجار خضراء ومصباح عموديّ في زاوية الغرفة عموده من خشب أسود لمّاع، خمّنت أنه أبنوس، وظلّته نحاسية صفراء غامقة

ومحفورة بشكل فني بديع، مصباحان أصفران يرسلان نوراً باهتاً ومريحاً لا ينير الزوايا المعتمة كلها في الغرفة الكبيرة.

أخرجني من تأملاتي صوت الدكتور معروف. كان صوته عميقاً وهادئاً ومنخفض النبرة:

«أهلاً بك، هل تحب أن تشرب شيئاً؟».

شكرته معتذراً، لم يرد د. معروف، ضغط زر جرس إلى جانبه، لحظات وكانت الممرضة تقف بالباب. قال لها بلطف: «أنطوانيت... فنجانا زهورات من فضلك». تمتمتْ: «حاضر». وانصرفتْ من دون صوت.

أحسست وكأني قد عدت بالزمن إلى منتصف القرن كما كنت أشاهده في الأفلام. شبك الدكتور معروف يديه فوق بطنه وهو يستند بظهره إلى ظهر مقعد الجلد المرتفع والوثير، وحدّق فيّ مع ظلّ ابتسامة على وجهه منتظراً أن أبدأ بالكلام.

تنحنحت ثم قلت: «اسمي عادل شكري، طبيب أمراض نفسية من حمص».

لم يتغير شيء في ملامح د. معروف، بقيت الابتسامة الشبح على وجهه وهو يقول: «أخبرتني أنطوانيت أنك ذكرتَ لها ذلك على الهاتف».

ساد صمت قصير، ولدهشتي وجدت صعوبة في البدء بالكلام، كان الهدوء والثقة اللذان ينضحان من الدكتور معروف ويفيضان من حوله مثل المكابح بالنسبة إليّ، وجدت ذلك غريباً وعلى عكس المتوقَّع، كان لا بدّ من بدء الحديث. قلت: «أودّ أن أتحدّث معك حول مريضين كنت تعالجهما». كان د. معروف يستمع بصمت، لم يحرّك عضلة ولم ينبس بحرف، انتظر أن أكمل كلامي. بدا معتاداً على الإصغاء، خبرة سنوات طويلة جداً في الاستماع إلى الآخرين، كان رأسمال عمله هو الإصغاء الجيد، أدركُ هذا وقد تدرّبتُ عليه، ولكن د. معروف بدا محترفاً حتى

العظم. تابعتُ: «مريضان كانا في المستشفى الذي كنت تشرف عليه منذ اثنتين وعشرين سنة!».

لم ألحظ أي تغيّر على وجه الدكتور معروف، وكأنني كنت أقول إن الطقس جميل لهذا اليوم، قال بصوته الهادئ نفسه من دون أن تتحرّك عضلة واحدة في وجهه أكثر من المطلوب للكلام: «ومن هما؟».

«حامد ابراهيم وسعيد زنزن».

اعتدل د. معروف في جلسته قليلاً واستند بذراعيه إلى المكتب، كان يتمتم بالاسمين وكانت ذاكرته تعمل. رفع عينيه إليّ بعد لحظات قائلاً: «نعم، تذكرتهما، بعد خروجهما من المستشفى، وأذكر أن ذلك كان في فترات متقاربة لم أعد أسمع عنهما شيئاً، إما شفاء ناجز وإما أشياء أخرى، هل تشرف عليهما حالياً؟».

«لا... لقد ماتا!».

رفع أحد حاجبيه قليلاً، ربما مليمتراً واحداً: «كلاهما؟! كانا شابين صغيرين في السن، متى ماتا؟».

«بعد خروجهما من المستشفى ببضعة أشهر وبفاصل بضعة أيام».

استطعت أخيراً أن أحوز انتباه الدكتور معروف الكامل، بدا على وجهه المترهّل أنه فوجئ، لكنه لم يقل شيئاً، كان ينتظر أن أشرح له الأمر. وفعلتُ ذلك بهدوء ووضوح.

- 36 -

رشف الدكتور معروف من فنجان الخزف الأبيض الكبير والمزيّن بورود زرقاء صغيرة رشفة من الزهورات الساخنة ووضع الفنجان في صحنه، ثم مدّ يده والتقط غليوناً كان على المكتب وأخرج علبة تبغ من نوع «كلان» من درج المكتب وبدأ يحشو الغليون بتؤدة واهتمام. استعمل إبهامه في رصّ التبغ في الغليون محرّكًا إياه دائرياً كي يتناسق سطح التبغ جيداً، ثم وضع الغليون الأسود، والذي بدا قديماً وغالياً في فمه وأشعله بعود ثقاب طويل من علبة كبريت أكبر حجماً من الأنواع المعتادة وبدت مخصّصة لإشعال الغلايين. سحب بضعة أنفاس حتى اشتعل التبغ جيداً ثم تنشّق نفساً عميقاً وأخرجه من فمه ومنخريه باستمتاع ظاهر، ثم قال بهدوء ناظراً في عينيّ مباشرةً: «وماذا علينا أن نفعل الآن بعد هذه السنوات كلها؟ ألا تظن أن الأمر قد انتهى وصار مجرد ماضٍ؟».

«ربما، ولكني لسبب خاص أجد أن من واجبي أن أعرف ماذا جرى حقّاً».

سألني الدكتور معروف السؤال الذي طُرح عليّ كثيراً خلال الأيام الماضية: «وماذا ستستفيد؟ لماذا أنت مهتم كثيراً بهذا الموضوع؟».

أشعلت سيجارة ورشفت من الزهورات الساخنة التي كانت محلّاة بمقدار طفيف من السكر ولذيذة. كنت أفكّر بماذا أجيب؟ كيف أشرح للدكتور معروف ولكل من يسألني أيضاً أن الأمر صار شخصياً منذ اللحظة التي سكنت فيها في ذلك المنزل القديم؟ ليس عند عثوري على الحقيبة بدفاترها العتيقة، بل قبل ذلك، منذ أن عشت في السديم الذي عاش فيه حامد ومات فيه أيضاً. كيف سأشرح أن حامدًا لم يعد مجرد شخص ميت منذ اثنتين وعشرين سنة، وليس مجرد مريض عانى كثيراً في هذه الدنيا التي مرّ فيها بسرعة وخرج منها بسرعة، بل صار بالنسبة إليَّ روحاً تطلب الإنصاف؟ ما أشعر به لا يُقال ومن غير الممكن التعبير عنه بالكلمات وحدها، إنه شيء يتعدّى الكلمات ويتعدّى الأشياء المنطوقة والملموسة والمدركة بالحواس المعتادة. إنه شيء يتجاوز الزمن ولا تغيّره الأيام ومرور السنوات. أعادني صوت الدكتور معروف العميق والهادئ إلى المدرَك والمحسوس. كان يقول: «لم تجبني د. عادل!».

«لن أستفيد شيئاً بشكل شخصي بالطبع، حتى القاتل الحقيقي من غير المتوقع أن أستطيع معرفته وفي حال عرفته قد يكون ميتاً الآن، أو مسافراً، أو لا أتمكن من إثبات ما قام به، أنا أدرك ذلك كله ولكني لا أستطيع البقاء صامتاً وأنسى ما عرفته».

«أنت تقوم بأمرٍ خطر جداً يا حكيم، فأنت تتماهى مع مريض، صحيح أنه غير موجود في الواقع الحالي ولكن الأمر يبقى خطراً، أنصحك بأن تنسى الموضوع برمّته».

«سأفكر في هذا لاحقاً، والآن أودّ أن أسألك عن تشخيصك لحالة حامد».

ابتسم د. معروف ابتسامة صغيرة، لم تكن هازئة ولكنها كانت واثقة. قال: «أنت تغوص في الأمر بالتدريج! على أيّ حال، ماذا تريد أن تعرف؟».

«لقد شخّصتَ مرض حامد على أنه فصام بسيط وعالجته على هذا الأساس، أليس كذلك؟».

كان غريباً أن ألتقي وفي يوم واحد برجلين سبعينيين يمتلكان مثل هذه الذاكرة الحديد المدهشة! كان الأمر محيّراً، والغريب أكثر أنهما عملا معًا سنوات طويلة وهما مرتبطان معاً بشكل أو بآخر بما يؤرّقني. لماذا أنا مؤرّق إلى هذا الحد؟ د. معروف استخدم مفردة (تغوص)، وكانت دقيقة تماماً! ولدهشتي كنت أشعر بأني أغوص فعلاً في رمال متحرّكة تشدّني إلى الأسفل كلما حاولت الحركة. في الحقيقة كان د. معروف يتذكّر الكثير.

«لا، أنت مخطئ، لم يكن فصاماً بسيطاً، بل كان التشخيص فصاماً غير مميّز Undifferentiated schizophrenia وعولج على هذا الأساس».

شعرت بوخزة في صدري، وخزة صغيرة تحمل بعض الخشية، لقد أخطأ الممرض طلعت، صاحب الذاكرة الحديد، خطأً صغيراً قد يكون مبرراً لممرض وليس لطبيب، ومع ذلك كانت الخشية. هل من الممكن أن يكون قد أخطأ في موضع آخر؟ طردت هواجسي وقلت: «أود لو سمحت أن أناقش معك هذا التشخيص».

«كيف؟!».

«أعتقد بأنه لم يكن فصاماً بالأساس بل أعتقد بأن حامدًا كان مصاباً باكتئاب ثنائي القطب مع نوبات هلاوس مرافقة للطور الهوسي».

كانت ابتسامة د. معروف صغيرة جداً، لم تحرك سوى زاوية فمه. قال: «حقّاً؟!».

«اعذرني د. معروف فأنا لا أقصد أن أقلّل من احترامك، أنت بمثابة

أستاذ لي ولستُ مؤهلاً أصلاً لتقييم طبيب مثل حضرتك، فارق العمر والخبرة يقولان الكثير، ولكن ربما أكون قد اطّلعت وعن طريق دفاتر حامد على معلومات أكثر تتيح لي مناقشة التشخيص ومراجعته معك».

لم يبدُ أن كلامي اللطيف والصادق قد أثّر في الدكتور معروف البتة، وكأن مديحي كان أمراً أكثر من بديهي بالنسبة إليه. غابت تلك الابتسامة الصغيرة عن زاوية فمه وعاد وجهه جدّياً تماماً. أعاد إشعال غليونه الذي كان قد انطفأ، ثم قال: «أذكر أني جلست مع حامد جلسات كثيرة وتحدّثنا مطوّلاً، هل تظن أنه كتب في دفاتره أموراً لم يكن يحكيها لطبيبه المعالج؟».

«الدفاتر كتب فيها ما سمّاه تدوينات، لم تكن يوميات ولم تكن مذكرات بل كانت مزيجاً بينهما، خليط بين أيامه الحالية، أقصد أثناء كتابتها، وبين ذكرياته عن سنوات طويلة ماضية... كتب عن كل شيء تقريباً».

«دكتور عادل، عرفتُ عن حامد كل شيء ومنه شخصياً، تعلّقه بجدّته التي ربّته، وكرهه لوالديه، وحبّه للفلسفة، ودراسته في الجامعة وانبهاره بشوبنهاور وعشقه للموسيقا الكلاسيكية، وقد افتقدها بالمناسبة كثيراً أثناء مكوثه في المستشفى، ومشاعره المتناقضة حيال فاغنر وحبّه لزميلته أمل ومشكلته مع أهلها، وصداقته المميّزة مع سعيد... حامد كان مريضاً فصامياً شبه نموذجي وتخلّي والديه عنه منذ الطفولة، وخصوصاً أمّه، كان يمهّد لما سيأتي لاحقاً».

«حسناً، ولكن، كيف فسّرت التصرف الغريب الذي قام به قبل دخوله المصحّة بوقت قصير، وأقصد ذهابه إلى منزل حبيبته والتقدّم لخطبتها لوحده ومن دون عائلته وهو يعلم مسبقاً أن أهلها سيعارضون زواجهما؟! وثمّة أمر آخر علمته من الدفاتر، في تلك المرحلة أيضاً كان يشعر بازدياد في رغبته الجنسية، لذلك أعتقد بأنه كان يمرّ بنوبة هوس حينها، ثقة

زائدة بالنفس وعدم تقدير للعواقب وحماسة غير طبيعية وتطاير للأفكار وزيادة الرغبة الجنسية، حضرتك أدرى مني بهذه الأعراض كلها».

«وجهة نظر لا بأس بها، ولكن ثمّة وجهة نظر أخرى، الحياة ليست أحادية وثمّة أوجه كثيرة للحقيقة، كما أنني أذكر أن معظم هلوساته كانت بارانوية وليست هوَسيّة، البارانويا كانت هي الغالبة».

«د.معروف، هل أَخبرك عن الكتاب؟ كتاب الأسرار؟».

«أجل وهذا يرجّح تشخيص الفصام فقد كان يظن أنه ملاحَق ومهدّد،كما قلت لك أوهام الاضطهاد».

«لمَ لا تكون نوبات ضلالية مرافقة لاضطراب ثنائي القطب؟».

ضحك الدكتور لأول مرة ضحكة صغيرة غابت بسرعة وهزّ رأسه وهو يتمتم: «نوبات ضلالية! يا للفرنسيين!». ثم أضاف: »أنت تخصّصتَ في فرنسا كما أعتقد أليس كذلك؟».

«أجل».

«يا بني... علماء النفس الفرنسيون لديهم الكثير من هذه الشطحات، أخشى أنهم يوماً ما سيدرسون نفسية الجنين في بطن أمه!». عاد فضحك، ثم لملم ضحكته وتابع بجدّية: «اعذرني، لا أقلّل من شأنهم ولا من شأنك ولكني لست متأكداً من أن هناك شيئًا في الطب النفسي يسمى نوبة ضلالية!».

«والهلوسات؟!».

«هلوسات نعم، وهي متكرّرة وثابتة، أما نوبة واحدة، فلا!».

«لم تكن نوبة واحدة،كما أنه لم يكن يعاني من أوهام الاضطهاد فقط بل كانت لديه أوهام عظمة أيضاً».

«أجل، الكتاب الوهمي الذي كان يؤمن بأنه يمتلكه، ولكن يبقى عرضاً ثانوياً، الأساس فصامي مع شيء من الاكتئاب المعاود، وهذا

يحدث لدى كثيرين من المرضى، كما أن العلاج أفاده وخرج من المستشفى».

«ولكن العلاج الذي تلقّاه يصلح لكلا التشخيصين، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد، في بداية الستينات،لم تكن كثير من الأدوية المستعملة حالياً موجودة، ورغم تحفظاتي على الفرنسيين إلا أن الطبيب كرجل علم يجب أن يكون منصفاً، والحقيقة أن الكيميائي الفرنسي بول كاربانتييه بتصنيعه عقار الكلوربرومازين في عام 1950 أحدث ثورة في معالجة الأمراض النفسية، لقد استخدمتُ الكلوربرومازين والصدمات الكهربائية والتحليل النفسي، علاج متكامل أدّى إلى نتائج ممتازة، ولا تنسَ أننا نتكلّم عن بداية الستّينات، الليثيوم لم يكن قد اكتُشف بعد ولم يبدأ استخدامه كمثبّت مزاج في حالات الهوس إلا في عام 1968، وكذلك البروزاك في بداية السبعينات من أجل الاكتئاب، في ذلك الوقت كان الكلوربرومازين والصدمات الكهربائية معاً هما العلاج الأمثل».

أعاد إشعال غليونه بعناية. نفث دخاناً كثيفاً وتابع: «أكرر نصيحتي لك، ضع دائماً مسافة أمان بينك وبين الحالة التي تدرسها، من الواضح أنك طبيب جيد وقد تحصّلت على تدريب ممتاز وقد تدرّبت على ذلك بالتأكيد، ولكن هذا لا يمنع أن تستمع إلى نصيحة طبيب عجوز!».

في هذه اللحظة دخلت أنطوانيت بهدوء كشبح مسنّ. قالت بصوتها الأجش والمنخفض إن مريض الساعة 7،30 قد وصل. نهضت وشكرت الدكتور معروف على الوقت الذي منحني إياه.

كان صوت الدكتور معروف ودّياً ودافئاً: «أهلاً بك متى شئت، فالحديث معك ممتع وشائق، منذ زمن طويل لم أستمتع بحوارٍ مثل هذا».

تصافحنا مثل زميلين قديمين ثم غادرت العيادة الدافئة. لحظات وكنت أشعل سيجارتي في البرد خارجاً.

- 37 -

مشيت على مهل وأنا أدخن.كانت نسمات باردة تهب بين الحين والآخر وتخز الوجه كدبابيس حادة. لم تكن تمطر ولكن السماء كانت كتلةً من السواد الأصمّ وغيوم كثيفة تحجب النجوم. مشيت في شارع الحمراء باحثاً عن محل للتسجيلات الموسيقية، وعندما لم أجد انعطفت إلى شارع الصالحية ومشيت باتجاه بوابة الصالحية. قرب مكتبة صايغ كان هناك محل كبير للموسيقا، سألت البائع عن أعمال ريتشارد فاغنر وكان طلبي متوفراً. اشتريت أوبرا تريستان وإيزوولد مسجّلة على ثلاثة شرائط سوني الخضراء ذات التسعين دقيقة للواحد، من أداء أوركسترا برلين الفيلهارمونية بقيادة مايسترو زائر اسمه طويل وغريب، وغناء مطربين أوبراليين لم أهتم بقراءة أسمائهم، وخرجت. لم أحمل الكاسيتات في كيس بل وزّعتها على جيوب المعطف. عدت ماشياً في شارع الصالحية باتجاه منطقة الجسر الأبيض، وقبل جادّة عفيف انعطفت باتجاه حيّ الروضة واجتزته حتى وصلت إلى بداية شارع أبو رمّانة الطويل والمنحدِر، ومشيت نزولاً متأملاً أشجار نخيل الزينة الضخمة والهرمة المميّزة له. تغيّرت دمشق كثيراً خلال السنوات الماضية. عندما تخرّجت في كلية الطب قبل اثني عشر عاماً كانت أهدأ

وربما أصغر، أشعر الآن أنها باتت أكبر من مدينة، صارت عالماً قائماً بذاته. همست لنفسي إنّها موجودة منذ بداية الأزمان ولكن يبدو أنني من تغيّر وليس المدينة.

هطلت قطرات ناعمة ورقيقة من المطر، كانت تتطاير في الهواء لا تكاد تبلّل شيئاً، ولكني لم أسرع في المشي، بقيت متمهّلاً، متأمّلاً، مدخّناً. وصلت إلى نهاية شارع أبو رمّانة قرب قصر الضيافة، مشيت على رصيف المشاة على جسر السيد الرئيس الذي يمرّ فوق نهر بردى، ثم هبطت الدرج في نهاية الجسر قرب المباني القديمة لجامعة دمشق، حيث توجد مواقف حافلات النقل العام تحت الجسر. تابعت المشي الوئيد حتى المتحف الوطني، ثم انعطفت يميناً باتجاه جسر فيكتوريا، ومشيت أسفل الجسر بكتله البيتونية الرمادية الضخمة. حركة السير كثيفة والتنفس بات ثقيلاً ومزعجاً والضوضاء صاخبة. وصلت أخيراً إلى ساحة المرجة ودخلت الفندق واتجهت مباشرةً إلى المطعم.كان عشائي قطعة صغيرة من الحلوى مع فنجان شاي. صعدت إلى غرفتي واندسست في السرير فوراً. نمت بعمق ولم تكن ثمّة أحلام...

- 38 -

دخلت العيادة قبل منتصف النهار بقليل. استقبلتني منى بابتسامة دافئة، وقالت إن مريضاً جديداً قد راجع العيادة البارحة، وإنها قد أعطته موعداً في يوم غد. شكرتها وطلبت منها أن تجلب لي قهوة مركّزة لأني أعاني من صداع السفر، ثم سمحت لها بالانصراف باكراً.

جلست وراء مكتبي وأخرجت بضع أوراق بيض كبيرة من درج المكتب. وفيما كنت أرتشف القهوة بدأت أكتب ملاحظاتي بالترتيب. كتبت كل شيء على شكل فقرات مرقّمة. كتبت المعلومات والحقائق، أو ما أظنها كذلك، في صفحة، والاستنتاجات في صفحة أخرى، والأسئلة التي بقيت بلا إجابات في صفحة. كما كتبت الأسماء في صفحة منفصلة كذلك، أسماء جميع من ارتبط بهذا الموضوع بشكل أو بآخر. قرأت ما كتبته مرة ثانية ثم أخرجت الدفاتر وأخذت أتصفّحها وأعيد قراءة بعض المقاطع والفقرات. وقعت عيناي على الجملة التي سبق وأن قرأتها.

(أشعر بالغمّ يثقل أنفاسي وأكاد أختنق ولكن، liebestod بالصوت المرتفع وإبريق شاي ثقيل ومختمر جيداً وسجائر لاكي سترايك من دون فلتر... هذا هو الحل والدواء والهواء... هكذا أظن).

فكرت مليّاً، ثم نهضت وارتديت معطفي وخرجت من العيادة.

توّجهت إلى البقالية الكبيرة والحديثة تلك التي تبيع كل شيء، وطلبت من البائع علبة تبغ من نوع لاكي سترايك. عندما ناولني العلبة سألته إن كان يوجد من هذا النوع من دون فلتر. قال البائع إن التبغ من دون فلتر لم يعد يُطلب منذ زمن طويل ولذلك فهو غير متوفّر. عدت إلى المنزل وحضّرت إبريقاً من الشاي وحملته ودخلت غرفة المكتبة. تركت الشاي يختمر ثم صببت كأساً وقد صار بلون العقيق الأحمر. تفحّصت الكاسيتات التي اشتريتها من دمشق، فتحت غطاء الكاسيت الثالث وقرأت تفاصيل الفصل الثالث من الأوبرا. كان مقطع ليبيستود هو المقطع الختامي في الأوبرا، الدقائق السبع الأخيرة، وضعت الكاسيت في جهاز التسجيل على الجانب B ومرّرته إلى الأمام بالسرعة العالية إلى ما قبل نهايته بقليل، قرب المقطع المطلوب تقريباً شغّلت التسجيل ورفعت الصوت. أخرجت سيجارة لاكي سترايك وقطعت بتأنٍ الفلتر الأصفر وجعلتها سيجارة بلا فلتر، أشعلتها وسحبت نفساً عميقاً، شعرت بالدخان غير المصفّى يلذع حلقي ورئتيّ، رشفت رشفةً كبيرة من الشاي الذي فقد سخونته وصار فاتراً، وعدت بظهري إلى الخلف مستنداً إلى ظهر المقعد وراء المكتب الصغير وأغمضت عينيّ وغصت في المزيج الذي صنعته.

هل أستطيع العودة بالزمن؟ على الأقل في الخيال فقط؟ هذا ما كان يدور في ذهني وأنا أستمع إلى الألحان المغرقة في الحزن وأستنشق الدخان القويّ اللاذع وأرتشف الشاي الذي بات مرّاً.

حاولت ترتيب الأشياء في عقلي، وجدت صعوبةً في البداية، ثم أحسست بتنفسي يهدأ وذهني يصفو. بدأت أفكاري تصبح بلّورية شفافة، رائقة وخفيفة. ورغم أني كنت أدرك تماماً أن العقل مراوغ وأن الذاكرة زئبقية وأن اللاوعي عنيد وخبيث، إلا أنني فوجئت مع ذلك

عندما برزت عناصر حلمي الغريب أمام عينيّ المغمضتين! لم أفتح عينيّ وحاولت طرد الخيالات غير المرغوبة من عقلي. الشمعدان البرونزي الثقيل والمزخرف، وبدلاً من شمعة كانت حبّة مشمش برتقالية تقبع في الجرن الصغير المخصّص لغرز الشموع، ثمّة ضباب أصفر يلفّ المشهد بأكمله. لم أكن أرى أيّ ضباب في أحلامي سابقاً، الآن هناك ضباب هادئ وثقيل وراسخ، بدأت حبّة المشمش تصغر وتصبح مدوّرة أكثر حتى باتت بحجم حبّة زيتون صغيرة ثم وقعت وتدحرجت وغابت في الظلام، انبثق الدم من جرن الشمعدان وسال على جوانبه المحفورة وعلى قاعدته العريضة، كان يتدفق بانثيال بطيء ثم يغيب في الظلام، الشمعدان في البؤرة وحوله ضباب ثم ظلام. الموسيقا الحزينة كثّفت الرؤيا وقطّرت التعاسة حتى بدا الضباب ذاته حزيناً. أحسست بنفسي أطفو ولكني حافظت بعناد على عينيّ مطبقتين. لم أكن نائماً ولم أكن خارج وعيي بل كنت أعي كل شيء. لم يكن الحلم حلماً بل كان رؤيا، كان زيارة طيفية من مكان آخر وزمان آخر.

شعرت بعقب السيجارة يحرق أصابعي ففتحت عينيّ وسحقت العقب الصغير في المنفضة. في هذه اللحظات توقّف الكاسيت عن الدوران وتوقفت الموسيقا، انتهت الأوبرا وانتهت الرؤيا. أكّدت لنفسي أني لم أكن نائماً. شعرت برأسي خفيفاً وخالياً وتطفو فيه الغرابة فقط، غرابة موشّاة بأسئلة ولا شيء آخر.

نهضت بعد وقت طويل، مشيت كالمُسرْنَم إلى غرفة النوم وارتميت على سريري بثيابي ونمت على الفور.

عندما استيقظت كان الظلام مخيّماً. نهضت متثاقلاً وأشعلت النور ونظرت في ساعة يدي. تجاوزت الخامسة والنصف بقليل. لا بدّ أن منى في العيادة الآن وتظنني خارج المنزل. دخلت الحمّام وغسلت وجهي عدة مرات بماء بارد. مشّطت شعري ورتّبت هندامي ثم دخلت العيادة

من الباب الفاصل بين غرفتين فيها وبهو المنزل، دخلت غرفة الانتظار فوجدت منى جالسة تقرأ أحد كتبها الجامعية، نهضت مبتسمة: «ظننتك خارج المنزل».

«كنت متعباً من السفر فنمت أكثر من المعتاد».

«هل أحضّر لك القهوة؟».

قلت وأنا أخرج من الغرفة: «لا... شكراً».

دخلت إلى المطبخ وقد نهش الجوع معدتي بعد أن أمضيت النهار بطوله من دون طعام، أكلت واقفاً بضع لقيمات زيت وزعتر، ثم حضّرت ركوة كبيرة من القهوة حملتها مع فنجان وعدت إلى غرفة العيادة. احتسيت الفنجان الأول بسرعة مع سيجارة، ثم صببت الفنجان الثاني، ورغم نومي لفترة طويلة شعرت بأني مرهق بشدة. سحبتُ بضعة أنفاس عميقة وبطيئة، تمارين التنفس المعتادة التي أعلّمها لمرضاي عادةً، ثم التقطت سماعة الهاتف.

- 39 -

كنا جالسين في مكتب فريد. سألته:

«حسناً قل لي الآن، هل توصّلت إلى شيء بخصوص الممرضة؟».

فقال: «الممرضة اسمها وداد عتّال وقد سألتُ عنها في المستشفى الذي كانت تعمل فيه، فقالوا إنها تقاعدت منذ أكثر من عشر سنوات ولا يعلمون عنها شيئاً، فأرسلت المراسل أبو راتب الذي يعمل عندي في المكتب، صحيح أنه كبير في السن ولكنه ذكي وخبير ويعمل مع المحامين والمحاكم منذ أكثر من أربعين عاماً، إلى مديرية النفوس لنعرف على الأقل ما إذا كانت حيّة أم ميتة، وتبيّن أنها ما زالت على قيد الحياة واستطاع الحصول على عناوين بعض أقاربها من قيد النفوس وسيذهب غداً ليستفسر منهم، ربما عن طريقهم نصل إليها، أخبرني الآن، هل كان سفرك مفيداً؟».

لوّحتُ بيدي بشيء من الحيرة: «لا شيء جديدًا ولكني صرت مقتنعاً بأن سعيدًا ليس القاتل».

«ما زلت ترى إذاً أن وصولنا إلى الممرضة مهم».

«بالتأكيد».

«لنرَ غداً ماذا سيتوصل إليه أبو راتب، وأظن أنه سيعود بما يفيدنا، صحيح أنه رجل عجوز وغير حاصل إلا على الابتدائية ولكنه مكّار كثعلب ويملك لساناً يخرج الحيّة من وكرها، كان يجدر به أن يتابع دراسته ويصبح محامياً وليس مجرد مساعد أو مراسل للمحامين!».

ابتسمت: «نوبة من النقد الذاتي! شيء جيّد».

«كل عمل وله محاسن ومساوئ وفيه ناس جيدون وناس سيئون، هكذا هي الدنيا يابن العم».

«معك حق بكل تأكيد».

«عدا عن أنني كنت أمزح!». قال فريد ذلك بخبث عابث وضحكنا معاً.

عندما نهضت لأغادر قال فريد: «ابقَ قليلاً بعد فالوقت مبكر».

«ما زلت متعباً مع أني نمت طويلاً عند الظهر وأريد أن أنام باكراً هذه الليلة».

«حسناً، سأتصل بك غداً لأخبرك بما يستجدّ معي».

«قبل الظهر لن أكون في العيادة فعندي زيارة مهمة سأقوم بها».

تساءل فريد بحواجبه من دون كلام، كان يحب أن يتلاعب بقسمات وجهه كثيراً. أوضحت: «أريد أن أتعرّف إلى فايز قيشانجي!».

- 40 -

غادرت العيادة قرب منتصف النهار. كان المريض الذي أعطته منى موعداً قبل يومين قد أتى مع والده في الحادية عشرة، وتبيّن أنه شاب مراهق يستعد لامتحان البكالوريا ويعاني من بعض الوساوس القهرية التي تزعجه وتمنعه من الدراسة بشكل جيّد. تحاورت مع الشاب ومع والده محاولاً كسب ثقة المريض كي أضع تصوراً للحالة وخطة المعالجة، ثم أعطيته موعداً آخر بعد يومين. بعد انصرافهما طلبت من منى أن تتولّى مهمة إغلاق العيادة، ثم خرجت وركبت سيارتي، واتجهت صوب مركز المدينة. بصعوبة استطعت أن أجد في الزحام مكاناً لسيارتي في الشارع المقابل للجامع النوري الكبير. مشيت داخلاً إلى السوق المسقوف، وبعد بعض البحث عثرت على المكان الذي كنت أقصده.

فوزي قيشانجي وأولاده للشرقيات. تلك العبارة كانت مكتوبة بخط جميل وحروف ملوّنة على اللوحة الإعلانية الضخمة المضاءة بالنيون، حتى نهاراً، والتي تمتد على طول الواجهة الكبيرة للمحل الواسع والذي كان عبارة عن ثلاثة أو أربعة محلات متجاورة ومفتوحة على بعضها. لفت نظري مفردة أولاده، وأنا أعلم أن فوزي قيشانجي ليس لديه سوى

ولدين، وأحدهما متوفى منذ زمن طويل. فكرت بأن الناس يحبّون إحياء ذكرى موتاهم ولو على لوحات إعلانية! اللوحة كانت نظيفة وحديثة ومن المؤكد أنها وضعت بعد موت الابن الأصغر فواز ومع ذلك كُتب عليها -أولاده- بالجمع وليس بالتثنية. الإنسان يحب تضخيم الأشياء وخاصةً تلك التي تخصّه. ونحن بالذات أناسٌ يحبون المبالغة! قلت لنفسي هذا وأنا أتجاوز المدخل ببابه الزجاجي المفتوح وأدخل إلى المحل الكبير.

استقبلني في المحل شاب لطيف، وسألني عن طلبي. عرّفته بنفسي، ثم قلت إني أريد أن أقابل الأستاذ فايز. طلب مني الشاب أن أنتظر ثم صعد سلماً معدنياً حلزونياً في زاوية المعرض الخلفية.

وقفت أتأمّل المكان. كان المحل واسعاً جداً وفيه العديد من الزبائن بعضهم يتفرّج وبعضهم يفاصل الباعة الشباب العاملين في المعرض على الأسعار. كان المكان مليئاً بالأشياء القديمة والمعروضات والأنتيكات، وبالكاد يستطيع الزائر أن يتجوّل بين طاولات الخشب المطعّمة بالصدف وطنافس الجلد ومزهريات البلّور الملوّنة بأحجامها المختلفة، ثمّة أوشحة ملوّنة معلّقة وممدودة في كل مكان، وسجاجيد زينة صغيرة مفرودة هنا وهناك، وطاولات لها أغطية زجاج تحوي آلاف القطع البرونزية والنحاسية المشغولة بحرفية، يوجد في كل مكان مرايا متعددة الأحجام بأطر خشب مزيّنة بالفسيفساء أو معدنية محفورة، ومشغولات جلدية، ومفارش موائد مطرّزة، ورقع شطرنج فاخرة من العاج والأبنوس، وسيوف عربية وخناجر بأغمدة مطعّمة بجواهر تقليدية، ومئات السبحات الكبيرة والصغيرة، حبّاتها من أكثر من نوع من الأحجار الكريمة وبعضها من الفضّة، حتى إنني رأيت في إحدى الزوايا فونوغرافاً قديماً ذا بوق كبير من النوع الذي كان يسمى غرامافون يعود إلى عصر قديم مضى. المعرض يغصّ بآلاف الأشياء والأشياء. ثمّة

رائحة غريبة في المكان هي مزيج من رائحة الجلد والخشب والغبار... رائحة زمن غابر.

عاد الشاب بعد قليل وقال إن المعلم، ونطقها باحترام، ينتظرني فوق في المكتب. صعدت الدرج الحلزوني الضيّق إلى الأعلى ودخلت ما سمّاه الشاب مكتباً. كانت سقيفة تمتد فوق جزء صغير من المحل فقط، سقفها منخفض، فيها طاولة خشب صغيرة في الزاوية قرب نافذة مستطيلة وضيّقة تطلّ على داخل المحل في الأسفل، وأمامها كرسيان من الجلد، وفي الزاوية الأخرى توجد خزنة حديد عتيقة، ولا شيء آخر، هذا كل شيء في المكان. نهض من حيث كان جالساً وراء الطاولة على مقعد جلد دوّار رجلٌ طويل ونحيف ورحّب بي بصوت عميق: «أهلاً دكتور، تفضّل». وأشار إلى أحد الكرسيين أمام الطاولة ثم عاد فجلس في مقعده الوثير وراح يتأمّلني. كان فايز في نحو الخمسين من العمر، بوجه متطاول وخدّين غائرين وذقن لم تُحلق منذ عدة أيام، شعره كثيف ورمادي، وجبهته ضيّقة، وعيناه سوداوان وقاسيتان وقريبتان من بعضهما بدرجة ملحوظة والنظرة فيهما كانت مقتحمة ومتفحّصة رغم أن تعبير وجهه كان ودوداً بعض الشيء. لم يكن يشبه أمل في أي شيء سوى طوله ونحوله الذي بدا أنه طارئ حديثاً بسبب تهدّل جلده الواضح، كان بديناً في ما سبق على ما يبدو. كان يرتدي بزّة سوداء بدت قديمة من زمن آخر، وقميصاً رمادياً شتوياً سميكاً مزرّراً حتى زّر الياقة ومن دون ربطة عنق. لفت نظري أنه يحمل في يده اليمنى سبحة حباتها كبيرة من العقيق الأحمر، يحرّكها باستمرار، ليس بشكل تعبّدي، بل كان يتلاعب بها مثل حمّالة المفاتيح ويلفّها ويفردها ويدوّرها في يده، لم تهدأ السبحة في يده لحظةً واحدة! وتذكّرت ما حكته أمل. أخرجني الصوت العميق من أفكاري: «قلتَ لنوّاف في المعرض إنك تريد مقابلتي، كيف أستطيع أن أخدمك يا دكتور؟».

ورغم أني كنت قد رتّبت أفكاري وانتقيت كلماتي التي سأقولها، إلا أن ذلك الصوت العميق الذي وجدته لا يتناسب مع نحول فايز الملفت للنظر، وتلك العينان القاسيتان والمتسائلتان جعلا ذهني يتشتّت. وجدت ذلك غريباً ومزعجاً، فأنا معتاد في عملي على مقابلة النظرات بأنواعها كافة. استنشقت نفساً عميقاً ولملمت أفكاري ثم بدأت بالكلام.

«الموضوع خاص ولا علاقة له بالأنتيكات».

«فهمت هذا». قال ذلك بهدوء وثقة، وسكت منتظراً أن أكمل كلامي.

قلت: «أريد أن أسألك عن حامد ابراهيم».

عندما لفظت اسم حامد اختفى التعبير الودود من وجه فايز وبات وجهه كتلة من الصخر، النظرة القاسية في عينيه صارت جليديّة. تمتم من دون أن يفتح شفتيه بشكل واضح: «وما علاقتك بذلك الـ...». لم يكمل، سكت لحظة ويبدو أنه غيّر الصفة التي كان سيطلقها على حامد ثم تابع: «... المجنون؟!».

«الحقيقة أني أسكن حالياً في المنزل الذي عاش فيه، وقد عثرت بالصدفة على أوراق كان يكتبها في الأسابيع التي سبقت موته».

كان صوت فايز خافتاً: «أوراق؟! أوراق ماذا؟».

«شيء من المذكرات أو اليوميات، المهم أن قصة حياة ذلك الشاب قد شدّتني فأنا طبيب نفسي وأهتم بهذه الحالات وأقوم بدراسة جامعية وحالة حامد نموذجية للدراسة».

عاد صوت فايز عميقاً وبارداً ومهيمناً: «وما علاقتي أنا بذلك؟».

«أعتقد أنك كنت تعرفه، أليس كذلك؟».

ردّ بسرعة: «لا، لم أكن أعرفه، التقيت به مرة واحدة وذلك عندما جنّ وأتى إلى منزلنا طالباً يد أختي! كانت أمسية مجنونة ومؤلمة وما زلت أتذكرها بأسى حتى الآن».

«أي شيء تتذكره قد يفيدني في الدراسة التي أقوم بها وسأتقدّم بها إلى جامعية فرنسية، طبعاً الأسماء ستكون مغفلة فاطمئن».

قال بصوت خافت كمن يكلّم نفسه وهو يحدّق في النافذة إلى جواره: «اللعنة! حتى وهو ميت يسبّب المشكلات!».

«سيد فايز، أعتذر لإزعاجك ولكن لا توجد أيّ مشكلة، مجرد حديث ودّي نتبادله أنت وأنا فالأمر يهمّني علمياً».

هزّ فايز رأسه مرات عدة، ثم قال بصوت منخفض ذهبت القسوة والبرودة منه وصار صوت رجل متعب ومريض: «قل لي ماذا تعلم عن الموضوع واسألني بعد ذلك».

«أعلم أن حامدًا كان يحب السيدة أمل، شقيقة حضرتك، فقد كان زميلاً لها في الجامعة وتقدم لخطبتها في ظروف غير مناسبة ورفضتموه، وكان ذلك قبل دخوله مستشفى الأمراض النفسية، وأعلم أيضاً أنه كان مصرّاً على الزواج منها، وكان يخطط لذلك معها».

نظر فايز إليّ مطوّلاً، بدا أنه يعيش تلك الأيام مجدداً، ازدادت يده المتلاعبة بالسبّحة عصبيةً. تكلم أخيراً بصوت كان من الواضح أنه يبذل جهداً كي يجعله هادئاً: «ذلك الشاب كان مجنوناً خالصاً، وكان يجب أن يبقى في العصفورية، هو وصديقه الذي قتله، تلك الجريمة يتحمّل مسؤوليتها الأطباء الذين سمحوا بخروجهما من هناك!».

«لماذا تقول ذلك؟».

قال وقد بدأ يصبح عصبياً بعض الشيء: «لأن هذه هي الحقيقة، فما فعله ذلك اليوم عندما جاء إلى بيتنا (لا حاضر ولا دستور) يدلّ على ذلك!».

«ذكر في يومياته إنكم رفضتموه وأهنتموه لأنه لا يناسبكم اجتماعياً».

ابتسم فايز بسخرية ممزوجة بالألم: «هكذا قال؟! أقصد كتب؟! اللعنة! إنه مجنون حقاً!». تنهّد بتعب وقال: «اسمع يا دكتور، قد يكون صحيحاً أنه لم يكن من مستوانا الاجتماعي ولا يناسب أختي أمل على الإطلاق ولكن المشكلة ليست هنا، لقد جاء من دون موعد وبمفرده، لا عائلة ولا أيّ شخص معه، وتكلّم معنا، كيف أشرح لك؟ تكلّم وكأننا عبيد عنده، أو كأننا نعمل أجراء لديه. تكلم بفوقية وغرور، كان مغروراً أكثر من طاووس حديث السن، شيء غير معقول يا رجل! شاب صغير السن ولا عمل ولا شهادة جامعية، مفلس، لا عائلة ولا نسب، ثم يتكلّم معنا ويخاطبنا بأسلوب وكلمات لا تصدر عن أمير! لو لم أضغط على نفسي وأتمالك أعصابي لكنت ضربته آنذاك. كدت أفقد عقلي، كيف تفسح أختي مجالاً لشاب مخبول مثله أن يستخفّ بعقلها ويجعلها تحبّه؟! كنت لا أصدق ما يجري أمامي، بل شككتُ في عقل أختي نفسها!».

سألته: «بعد تلك الزيارة أدخلته عائلته إلى المصحّة النفسية، هل علمت بذلك؟».

«أجل، أمل أسرّت بذلك لأمي وطلبت منها ألا تخبر أحداً، ولكن أمي لا تخفي عني شيئاً وقد أخبرتني».

«هل رأيته مرة ثانية؟ أقصد بعد خروجه من المستشفى؟».

«لا، المرة الوحيدة التي رأيته فيها كانت عندما زارنا تلك الزيارة المجنونة!».

«كيف علمت بمقتله؟».

«قرأت الخبر في الصحف على ما أذكر».

«هل كنت تعلم أنهما كانا ينويان أن يتزوجا رغم كل شيء، وأنهما كانا يخطّطان لذلك؟».

«لا، لم أكن أعلم شيئاً عن هذا، ولكن حدث ما حدث، سبحان الله، أتانا الحل من غامض علمه وإلا كنا تبهدلنا بين الناس لو تمّ هذا الزواج! لا شماتة في الموت ولكن موته كان مناسباً تماماً لعائلتنا!».

«ولكن موته لم يكن مناسباً لمدام أمل على الإطلاق، أصابها انهيار عصبي شديد كاد يودي بحياتها».

قال باستغراب: «كيف عرفت؟! قلت إنك قرأت ما كتبه ذلك المخبول ولكن ما حدث بعد ذلك كيف علمتَ به؟!».

أدركت أني قد تسرّعت بالكلام واضطررت للتوضيح: «لقد قابلت مدام أمل».

«التقيت بأمل؟!». قالها باستغراب واستهجان. وأضاف: «وكيف عرفت أين هي ولماذا تحدّثت معها؟ أنت مهتم بالأمر كثيراً فهل هذا كله دراسة علمية كما تقول؟».

«كان لا بدّ أن أعرف كل شيء عن حامد، ليس مما كتبه فقط بل من الأشخاص الذين عرفوه أيضاً، التشخيص الراجع يحتاج إلى كثير من المعلومات».

بدا على وجه فايز وكأنني أتكلم بلغة مرّيخية. تمتم: «تشخيص... ماذا؟!».

«أقصد تشخيص حالة مرضية قديمة رجوعاً بالزمن».

حدّق فايز في عينيّ وهو يضيّق عينيه وسألني بهدوء: «وماذا يهمّك فعلاً من هذا كله؟ ألديك وقت فائض عن الحاجة؟!».

أكّدت بصوت حاولت جعله واثقاً وهادئاً قدر الإمكان: «أخبرتك إنها دراسة علمية نفسية مستفيضة، هذا جزء من عملي».

مرت فترة من الصمت، كانت ثقيلة الوطأة، لم يكن يُسمع سوى ضجيج زحام السوق وأصوات الزبائن والباعة في المحل في الأسفل.

أحسست برغبة في التدخين، تلفّتّ حولي ولم أجد أي منفضة للسجائر. سألته: «هل أستطيع أن أدخّن؟».

لم يكن صوت فايز يحمل ولا ذرة من اللطف أو الاعتذار: «آسف فأنا لا أدخّن وأتضايق من رائحة التدخين، أنا مريض أصلاً».

«أتمنى لك الشفاء العاجل».

ابتسم بألم: «أيُّ شفاء؟! أنا مريض بالسكّري ومنذ زمن طويل، حالياً أتعالج بحقن الأنسولين».

لم أنسق إلى المونولوج المرَضي الذي بدأه فايز، عدت مباشرةً إلى ما يهمني: «ألم تحاول أن تتفهّم موقف شقيقة حضرتك؟ كانت تحبّه ومقتنعة به».

تعبيرات وجه فايز باتت تدل على القرف والاحتقار: «أختي أمل عنيدة ومجنونة! كانت هكذا طوال عمرها ولو لم تكن مجنونة لما تعلّقت بمجنون! فتاة مدلّلة ورأسها يابس، أبي وأمي أفسداها بدلالهما الزائد لأنها البنت الوحيدة والصغرى، أبي لم يكن يرد لها طلباً، أفكر أحياناً أنني لو لم أكن موجوداً لأقنعتهما بجنونها وسمحا لها بالزواج من ذلك المعتوه، أخي فواز رحمه الله كان لا يهشّ ولا ينشّ ولم يكن لديه أيّ تأثير، أنا من أنقذ العائلة واسم العائلة من تلك المصيبة، أجل فلو تزوجته لكانت مصيبة، مصيبة حقيقية!». سكت لحظات ملتقطاً أنفاسه، ثم أكمل: «تصوّر لو أن أختي تزوجت من ذلك المجنون الذي كان يؤثّر عليها بطريقة جنونية، حتى إنها صارت تتصرّف بجنون».

«أنت تكرّر أنه مجنون كثيراً ولكن اعذرني، لم يكن مجنوناً بل كان مصاباً بمرض نفسي وقابل للشفاء، كان مريضاً وليس مجنوناً!».

ابتسم فايز ابتسامة صغيرة وخبيثة بعض الشيء: «آسف، ولكنه عملك ومن الطبيعي أن تقول ذلك!».

«وكيف صارت علاقتك بأمل بعد ذلك؟».

ابتسامة فايز كانت تكشيرة أكثر منها ابتسامة: «أنت تسأل كثيراً يا دكتور، هل تظنني مريضاً من مرضاك؟».

« لا أقصد التطفّل ولكن أحتاج إلى معرفة كل شيء».

«وبماذا تهمّك أمور عائلتنا؟! وخصوصاً بعد خروج ذلك المجنون من حياتنا برحمة وتدبير من الله؟! أنا صريح، فموته كان جيّداً جدّاً لنا، هذه هي الحقيقة! وقد تزوجت أختي وأنجبت ولها مكانتها التي تستحقها».

كنت أريد أن أستفزّه قليلاً فقلت: «لكن علاقتك بها لم تكن على ما يُرام على الرغم من مقتل حامد؟»

تنهّد فايز، لكنه تمالك أعصابه وقال: «علاقتي بأمل لم تكن جيدة منذ صغرنا، ربما فارق السن وربما دلال والديّ الزائد لها، وجاءت تلك القصة المؤلمة وخرّبت علاقتنا أكثر، حتى بعد زواجها ومرور السنوات الطويلة ما زالت العلاقة بيننا رسمية، ليست مقطوعة ولكن باردة وأنا مرتاح هكذا!».

«وعلاقتك بزوجها؟».

ابتسم محاولاً إظهار تماسكه: «وعلاقتي بصهري كذلك باردة، لم نكن مقرّبَين من بعضنا قط، وخصوصاً أنهما سافرا وتنقلا كثيراً، عمله كضابط في الشرطة كان يحتّم عليه ذلك، على أيّ حال محسن كان الزوج المناسب لأمل، فتاة مغرورة ومدلّلة تحتاج إلى ضبط من رجل قوي يشكمها! ومحسن كان الزوج المثالي آنذاك».

استغربتُ من استعمال فايز مفردة (يشكمها) وكأنه يتكلم عن فرس وليس عن امرأة هي أخته قبل كل شيء، ولكني لم أعلّق على ذلك، بل سألت: «بحسب ما عرفت فإن صهركم تقدّم سابقاً لخطبة أمل

ورفضتموه، ثم عدتم فوافقتم عليه بعد ذلك بفترة قصيرة، فما الذي تغيّر؟».

كانت النظرة في عيني فايز باردة كالجليد وعاد وجهه ليصبح صخريّاً. تكلّم بصوت بارد وخافت وقاطع: «دكتور عادل، هذا اسمك أليس كذلك؟ أعتقد أنه لم يبقَ شيء لنتكلّم حوله، العلم شيء وخصوصيات العائلات المحترمة شيء آخر، يكفي هذا فأنا مشغول!». ونهض واقفاً منهياً اللقاء بشكل باتر.

نهضت بدوري: «أنا آسف سيد فايز فلم أكن أقصد التطفّل، على أيّ حال أشكرك لإعطائي الكثير من وقتك».

صافحني ببرود ولم ينزل معي إلى المحل في الأسفل. خرجت إلى الهواء البارد في الخارج. كنت متوتراً، أشعلت سيجارة وأنا أفكّر بأنه قد تمّ طردي فعلياً! عدت باتجاه سيارتي وغضبي يزداد تدريجياً. لم أكن أعلم على وجه الدقة ممن كنت غاضباً أكثر... من حامد أم من فايز أم من نفسي؟

- 41 -

التدوينات (11)

أنا غاضب! أشعر بالغضب يحرق أنفاسي كما تحرقها السيجارة التي أدخنها. الغضب أسوأ، أنا أحب السيجارة ولكني أكره الغضب، من أين طلع لنا عريس الغفلة اللعين هذا؟ طمأنتني أمل بأن الأمر انتهى، رفضتْ عائلتها هذا الخاطب الذي أتى من المجهول، غرورهم وإحساسهم المتضخّم بأهميتهم ونسبهم العريق -التافه بالنسبة إليّ بالمناسبة- جعلهم يرفضونه من دون تردّد، وأفادني هذا طبعاً، ولكني غاضب بشدة، وأشعر بالغيرة أيضاً. قال لهم إنه رآها في المدرسة وأعجبته فتقدّم لخطبتها، ماذا يعني هذا؟ هل أحبَّها؟ اللعنة، أكاد أتمزّق غيظاً وغيرةً، هو يحب حبيبتي؟! كيف يجرؤ؟! عندما أخبرتني أمل بدا عليّ الغضب فشعرتْ بالقلق، وقالت: «لا تفكّر بهذا، الأمر تافه وقد انتهى». أجبتها كاذباً: «لست مهتماً». ولكني عندما عدت إلى البيت وأعدت التفكير بكل شيء كنت أغلي من الداخل. اللعنة، يجب أن أحرق الأيام وأسرّع الزمن وأصل أنا وأمل إلى المرفأ المنشود، مرفأ الأمان.

لاحظت أمراً غريباً، أنني عندما كنت أكاد أتمزّق من الغضب شعرت بالجوع! جعت بشكل رهيب، لم أشعر بهذه الشهيّة للطعام منذ وقت طويل. خرجت من المنزل واتجهت إلى حيّ كرم الشامي القريب من منزلي، هناك دكان قصّاب أعرفه وأشتري اللحم من عنده عادةً، طلبت منه أن يشوي لي كيلوغرامًا كاملًا من الكباب، أخذته وعدت إلى البيت، من المدهش أني أكلت معظم الكباب مع الخبز والمخلّل والبندورة وبالكاد شبعت! مع أن ما التهمته من المفروض أن يكفي رجلين نهِمين، ماذا يجري لي؟ ولكني الآن وأنا أحتسي الشاي المختمر بشدة حتى صار أسود اللون تقريباً أشعر بالتخمة والانزعاج، ربما بالغت بغضبي فأكلت كأنني أنتقم، لا أعلم، ولكن غضبي هدأ بعض الشيء. ما قالته أمل صحيح، الأمر انتهى ولكن ما يزعجني حتى الآن أن يكون ذلك الرجل قد أحبَّها، وهذا ما يعيد إشعال نار غضبي كلما تذكرته، أمل لي، لا يجوز أن يفكّر فيها أحد ولو مجرّد تفكير. عندما نتزوج يجب أن أجد حلاً لهذه المعضلة، معضلة أن أمل معرّضة لأن يراها الكثيرون، فهي تعمل معلّمة في المدارس، تخرج وتمشي ويراها الناس وتعود. أشعر بأن تفكيري يشتطّ هنا وهناك، أنا مخطئ، يجدر بي عدم التفكير هكذا، أمل محميّة، يحميها حبّي لها.

هل أخبر سعيدًا بهذا الأمر الذي أغضبني جداً إذا ما زارني الليلة؟ أتوقّع أن يأتي، سأفكّر بهذا لاحقاً، أشعر بالتخمة وبشيء من الغثيان، سأصنع شاياً جديداً، وسأحاول أن أقرأ شيئاً لشوبنهاور.

ها قد عدت إلى دفاتري، شربت إبريق الشاي كله ولم أستطع أن أقرأ شيئاً. حاولت مع معلمي شوبنهاور ولم أستطع، حتى معه لم أستطع، ما زال عقلي يغلي، وعندما يغلي عقلي لا أستطيع فعل شيءٍ سوى التدخين وشرب الشاي، ولكن التدخين وشرب الشاي ليسا شيئاً يُفعل، إنهما أمران يقوم بهما المرء من دون تفكير ومن دون جهد. من المدهش

أني أكتب، الكتابة تحتاج إلى التفكير وإلى الجهد، كيف أفعل هذا؟ ربما يدفعني الغضب، بخار الغضب يندفع من مرجل قلبي إلى عنفات يدي مثل القطار البخاريّ، قطارٌ غاضب ومسرع ومتجه نحو محطة مجهولة مختفية خلف الضباب، بخار وضباب، غضب وبخار وضباب، غضب وبخار وضباب وحروف، حروف تتعبني حتى تتشكّل في كلمات ذات معنى. من دون المعنى لا شيء له أهمية، من دون المعنى لا شيء له معنى. أبتسم وأقول لنفسي وأنا أكتب هذا، هذه ليست فلسفة، أنت لستَ فيلسوفاً، هذا مجرد هراء فارغ. يقول لي الجانب المتجهّم من نفسي، ذلك الذي لم يبتسم، عندما تتكلم عن المعنى فأنت تتكلم عن الفلسفة، أليس كذلك؟ ألم تكن الفلسفة عبر التاريخ كله، يا فهمان، سوى البحث عن المعنى؟

لا أريد الكتابة عن الفلسفة ولا عن المعنى، ربما يجب أن أكتب عن الغضب فقط، ها قد عدت إلى نقطة البداية، يا للهول!... يكفي هذا لليوم.

- 42 -

غضب، غضب يعمّ كل شيء، غضب بارد، غضب وبخار جليديّ.

طعام غداء من دون شهية، قهوة مركّزة مرّة، سجائر متلاحقة، موسيقا وقراءة، قراءة متواصلة وغاضبة، أضع التدوينات أمامي، لكن تطغى عليها صورة شخصية فايز البائسة، وأحسّ بالغضب الذي انتاب حامدًا وهو يتلقّى كلماته القاسية... ضباب وأطياف وحروف وغضب وبرد.

هذا المساء بارد للغاية! ويزيد الغضب من برودته وكأن الجسد يعكس حالة الغضب التي تنخر الذهن فيتجمّد ولا يعود يشعر بالتدفئة التي تدعوه للاسترخاء قليلاً... غضب يجعلني عاجزاً، أنا الطبيب النفسي، عن تقبّل تلك الشخصية التي تتصرف بكل هذا الجبروت الخالي حتى من احترام الموت، فيعتبر أن موت حامد كان «جيّداً جدّاً لنا»...

كنت غاضباً جدّاً من مقابلة فايز، وزاد من غضبي ما قرأته في تدوينات حامد عن غضبه... غضبٌ مضاعفٌ: غضب من الغضب الذي أصاب حامد، وغضب وبرد وجليد مما عكسته تلك النظرة الجليدية التي رأيتها في عينَيْ فايز، ومن الطريقة التي طردني بها من محله.

لم أستطع أن أجلس في مكان، كنت أتحرّك وآخذ نفساً عميقاً في محاولة لتهدئة نفسي... دخلت إلى المطبخ وأعددت لنفسي إبريقاً من الشاي تركته يتخمّر على طريقة حامد لأدفع نفسي للتفكير في المظلومَيْن حامد وسعيد والتركيز على الوصول إلى كشف الظلم الذي تعرّضا له.

حملت إبريق الشاي والكأس وجلست بالقرب من المدفأة وتركت الشاي يتخمّر وأنا أفرك جسدي لأهدأ وأحصل على الدفء، وعندما اختمر الشاي رحت أرتشفه على مهل إلى أن بدأ جسدي يهدأ رويداً رويداً، وبدأ الدفء يسري في عروقي... وعدت إلى التدوينات.

- 43 -

التدوينات (12)

سعيد موهوب حقاً! زارني هذا المساء وجلسنا في غرفة الجلوس نتدفأ قرب مدفأة الحطب. طلب مني أن أسمعه شيئاً من الموسيقا، لم يكن يملك في منزله أيّ وسيلة لسماع الموسيقا أو الأغاني، إنه هراء والده المعتاد. قلت له وأنا أنهض كي أضع أسطوانة في الفونوغراف: «سأسمعك موسيقا حماسيّة ومشوّقة». قاطعني: «لا، أريد أن أسمع تلك الأوبرا الحزينة، ولو مقاطع صغيرة منها، أحببتها». ابتسمت وقلت له: «ذوقك الموسيقي راقٍ وحزين!». قال: «أنا حزين اليوم لذلك أريد أن أسمعها».

وضعت أسطوانة الفصل الأول من تريستان وإيزوولد. كنت قد جلبت الفونوغراف إلى غرفة الجلوس بعد وفاة جدّتي كي أستمع وأنا أجلس بجانب المدفأة، في غرفة نومي لا يوجد مدفأة. قبل أن أجلس قال سعيد: «أعطني ورقة وقلم رصاص». تعجّبت، هذه أول مرة يطلب أمراً كهذا، ولكني لم أقل شيئاً، جلبت له ما طلبه. قال: «اجلس هناك، لا

تجلس على الأريكة، اجلس على المقعد بجانب المدفأة». فعلت كما قال وجلست على المقعد الخشبي المنجّد إلى جانب المدفأة وأمسكت كأس الشاي بيدي ووضعت ساقاً على ساق وأنا أنظر إليه. جلب طاولة صغيرة من زاوية الغرفة ووضعها بجانبي ثم أتى بالشمعدان البرونزيّ الضخم الذي كانت جدتي تحرص على تنظيفه من الغبار يومياً رغم أنها لم تستخدمه ولم تشعل فيه شمعة قطّ، كان موضوعاً كما كان دوماً، على الرفّ العريض في الزاوية الأخرى من الغرفة إلى جانب المذياع. وضعه على الطاولة الصغيرة بجانبي وسألني: «ألديك شمع؟». قلت: «لا أدري». قال: «لا يهم». ثم ذهب وجلس على الطرف البعيد من الأريكة واستند إلى الطاولة الكبيرة أمامه وبدأ يرسمني ونحن نستمع إلى الموسيقا، لم تكد تنتهي المقدمة الموسيقية حتى انتهى وأراني الرسم. ذهلت! فقد رأيت نفسي جالساً أدخن وإلى جانبي الشمعدان وفيه شمعة كبيرة مشتعلة تكاد تبدو حقيقية. سعيد موهوب حقاً.

كنت أفكر في موهبة سعيد الموؤودة، وأفكر بأنني لا أملك أصدقاء، لا أعرف سوى سعيد، ولم تزد فترة تعارفنا حتى الآن على سنة واحدة وربما أقل. زملائي في المدرسة انقطعت عنهم بعد دخولي الجامعة، زملائي في الجامعة كانوا مجرد زملاء في الكليّة أما خارجها فلا أعرف عنهم شيئاً، لم أكن أعرف أحداً إلا أمل: هي عالمي كله. ولكني لست متضايقاً، معرفة الكثير من الناس ليست أمراً جيداً بل قد يكون مؤذياً. أنا أتفق مع أبي العلاء المعرّي تماماً في رأيه الذي صاغه شعراً:

وما ضرّني غيرُ الذين عرفْتُهمُ جزى الله خيراً كلُّ منْ لستُ أعرفُ

يا للعبقرية! يا للصدق! يصنّفونه كأديب وشاعر وهو على الحقيقة فيلسوف، فيلسوف صرف! من أهم الفلاسفة الذين مرّوا في تاريخنا ولكن طبعاًلم يفهموه وظلموه كثيراً، كالعادة! كعادة البشر البلهاء في التعامل مع المتميّزين في هذا العالم المهووس بالدم.

كنا صامتَيْن ثم قطع سعيد الصمت بعد نحو نصف ساعة من الاستماع، وقال: «ضع أسطوانة أخرى، فقد ملأ الحزن قلبي». كان يكاد يبكي! قلت له: «سأسمعك أوبرا جميلة، بدايتها حماسيّة وستعجبك». سألني: «من مؤلفها؟ هل هو نفسه ذلك الذي تحبه كثيراً؟». قلت له: «أجل، أوبرا بارسيفال له نفسه، لفاغنر». قال: «لا، لا أريد أن أستمع لموسيقاه، أتخمت به!». ضحكت، لا أحد يُتخم من الموسيقا ولا من موسيقار بعينه، وخصوصاً إذا كان مجنوناً وعبقرياً مثل فاغنر، فاغنر الغدّار. بدأت أحكي لسعيد عن أوبرا بارسيفال مشوّقاً إياه: «هذه الأوبرا كانت القشّة التي قصمت ظهر البعير كما يقولون بينه وبين من كان تلميذاً له وصديقاً حميماً ذات يوم، نيتشه». سألني: «ونيتشه هذا موسيقي مشهور أيضاً؟». قلت: «لا، ليس موسيقياً بل فيلسوف كبير ومهم، ولكنه كان عاشقاً كبيراً للموسيقا ومستمعاً ذوّاقاً، وحتى ناقداً يعرف خفاياها وأسرارها، حتى إنه قال ذات مرة (الموسيقا ألغت احتمال أن تكون الحياة غلطة!). وقد تأثّر في بداية حياته بموسيقا فاغنر وبه شخصياً، وصار صديقاً له ثم اختلفا». كان سعيد يستمع بشغف وانتباه مثل طفل يصغي بجوارحه كلها إلى جدّته التي تحكي له حكاية قبل النوم، قال: «ولماذا اختلفا؟». شرحت له: «هذه الأوبرا وضعها فاغنر قبل موته بفترة قصيرة وهي آخر أعماله وهدفه منها كان التصالح مع الكنيسة التي لم يكن على وفاق معها طيلة حياته، وهي تحكي قصة فارس قديم من القرون الماضية نصرَ الكنيسة وحارب لأجلها، أوبرا تمجّد ذلك الفارس والقيم التي يحملها ويدافع عنها، ولكن نيتشه وجد ذلك نفاقاً صريحاً وهاجم الأوبرا ومؤلفها بشدة، حتى إنه قال في إحدى مقالاته بعد ذلك (ريتشارد فاغنر كارثة عظيمة على الموسيقا!). ولكنها تبقى عملاً موسيقياً جميلاً». حكيت ذلك كله ولكن سعيدًا الذي كان يصغي بانتباه وانبهار لم يقتنع وقال: «أسمعني شيئاً آخر، شيئاً مختلفاً». قلت: «حسناً، سأسمعك عزفاً منفرداً على التشيللو، هل تعرف التشيللو؟». لم يكن يعرف، وشرحت له ثم وضعت

أسطوانة يوجد على وجهها الأول المتتالية الأولى للتشيللو تأليف باخ. أملك ثلاث أسطوانات لهذه المجموعة، تضم المجموعة الكاملة، المتتاليات الست الخاصة بالتشيللو لباخ وهي من عزف باو كاسالس[1].

أعجب سعيد بالموسيقا والعزف الرائع ولكنه لم يكمل الاستماع إلى نهاية الأسطوانة، كنا قد استمعنا إلى مقطعين من المتتالية عندما نهض ليغادر، قلت له: «دعنا نكمل المتتالية، بقيت أربعة مقاطع». قال: «أريد أن أذهب». هكذا سعيد، إذا قام ليذهب لا تستطيع قوة في الأرض إيقافه. مضى وتركني وحيداً.

أنا على أنغام متتالية التشيللو الأولى لباخ أكتب الآن. أنوي الاستماع إلى المتتاليات الست، نقلة هائلة بين فاغنر وباخ، ولكننا نبقى في مجال العباقرة على أية حال، وهذا شيء جيد في نهاية المطاف، مع أن ثمّة فرقًا كبيرًا بينهما. باخ رجل أخلاقيّ، تزوج مرتين وأنجب الكثير من الأبناء -هل كانوا سبعة عشر؟- ولم يتخذ عشيقات، وألّف الكثير من المقطوعات للكنيسة خصيصاً كي تُعزف على الأُرغن في الاحتفالات الدينية، لم يكن مثل فاغنر الغدّار والخوّان الذي خان الرجل الطيب أوتو فون فيسيندونك الذي رعاه وأنفق عليه، وردّ له الجميل بأن غدر به وأقام علاقة آثمة مع زوجته الجميلة، ماتيلدا الخائنة، فاغنر وماتيلدا، تريستان وإيزوولد، عبقرية الخيانة والغدر، يا لشقاء الحياة، يا لغدر أولئك الناس، عظيمون ومنافقون مثل كل شيء مقنع في هذه الدنيا، ولكني أحب موسيقا فاغنر رغم كل شيء، يا لغرابة الحياة!

أتأمل الصورة التي رسمها سعيد، إنه أنا حقاً، كم أبدو حزيناً وكأس الشاي بيد والسيجارة باليد الأخرى، أبدو كسكّير في حانة وأحمل بيدي كأساً من النبيذ وليس الشاي، ولكن الشمعدان بشمعته الخيالية المشتعلة

---

(1) - Pau Casals: عازف تشيللو إسباني شهير، ويعرف أيضاً باسم بابلو كاسالس، من مواليد كاتالونيا، عاش بين عامي -1876 -1973 الناشر.

لا يوحي بحانة بل بمكان أفضل وأرقى. سأحتفظ بالصورة كي تراها أمل. أفكر بأن أضعها في إطار، إطار خشبي مزخرف وأنيق، تصلح كي أعلّقها على الجدار هنا أمامي، وربما في الصالون، لم لا؟ لوحة جميلة. ولكنّ سعيدًا لم يوقّع عليها، لم يضع اسمه في زاويتها، سعيد لا يوقّع ما يرسمه، هكذا قال لي، وبرّر ذلك بأن وضع اسمِ الرسّام على لوحاته هو نوع من الغرور الاستعراضي، غرورٌ كبير ومتضخّم. لم أوافقه على ذلك طبعاً ولكني لم أستطع تغيير رأيه. الصورة تبادلني النظرات، أنا بالرصاص أحدّق فيَّ أنا بالألوان، أنا الحزين أحدّق في أنا التعس، الحزن كثيف في الصورة وفي الظلال، من أين يأتي ذلك كله؟ مني أم من الرسّام؟ أزعجني السؤال.

أكتب الآن بعد أن نهضت ورميت الصورة في المدفأة فوق الحطب المشتعل، أكلتها النيران، وهكذا ذهب الحزن. انتهت متتالية التشيللو الأولى، لن أستمع إلى البقية، سأذهب لأنام.

– 44 –

تكدّرت عندما قرأت أن حامدًا أحرق الصورة التي رسمها له سعيد. كنت قد قرأت هذه الصفحات بسرعة قبل الآن ولكنني لم أكن أعلم وقتها كيف قُتل حامد. بعد اطّلاعي على ملف القضية صرت أعرف، وهذا ما كدّرني بشدة، كان من المفيد أن أرى الرسم، ليس لأتعرف على ملامح الشاب الذي يبدو أني أرتبط به بشكل ما غامضٍ وغير مفهوم، ولكن كي أرى الشمعدان القاتل. على الأرجح أنه الشمعدان نفسه الذي استخدمه القاتل في جريمته. برز تساؤل لم أجرؤ على التفكير فيه بتمعّن وحاولت طمسه في أعماق لا وعيي، ترى أهو الشمعدان نفسه الذي رأيته آخر مرة كطيف؟ كان من المفيد أن أرى الصورة التي أحرقها حامد من دون تبصّر، ليس البصيرة ما يحكم هنا بل الأطياف التي لا تستقرّ ولا تستريح.

أشعلت سيجارة واستنشقت النفس الأول بعمق لاذعاً رئتيّ لأعود إلى الواقع. عندها لاحظت كمن يفيق من نوم عميق أن حامدًا قد ذكر قصة العلاقة غير الشرعية بين ريتشارد فاغنر وماتيلدا زوجة أوتو فون فيسيندونك أكثر من مرة في عدّة مواضع في دفاتره، بدا أنه متأثر بشدّة

وبشكل سلبي كبير بهذه الواقعة. حامد كان مثل إسفنجة لا تمتص إلا الأشياء السلبية. هكذا فكّرت وأنا جالس وراء مكتبي في غرفة المكتبة أعيد قراءة بعض صفحات الدفاتر.

كنت قد تناولت غدائي في المطبخ بعد أن جلبت معي من السوق دجاجةً مشوية أكلت جزءاً صغيراً منها مع الحمّص والمخلّل. شبعت سريعاً، أكلت بحكم العادة، فقد كان عليّ أن آكل. استلقيت على فراشي بعد الغداء ولكني لم أستطع أن أغفو ولو بضع دقائق، فقمت وحضّرت ركوةً كبيرة من القهوة ودخلت غرفة المكتبة. وضعت شريطاً في جهاز التسجيل وأخذت أرتشف القهوة وأدخّن وأقرأ في الدفاتر وأستمع إلى أوبرا (السفينة الشبح) والتي تدعى أيضاً (الهولندي الطائر).كنت مصرّاً على أن أستمع إلى موسيقا ريتشارد فاغنر فقط هذه الأيام، تلك الموسيقا التي هي أشبه برابط يتجاوز الأزمنة ويطوي الأمكنة ويربط بيني وبين حامد الذي بتّ شبه مهووس بقصة حياته وموته. استعدت حديثي مع فايز قيشانجي. لقائي معه كان ضرورياً، كان لا بدّ من سماع وجهة نظره في موضوع حامد. حامد يكتب إنه قد أهين وطُرد، وفايز يقول إنهم قد أهينوا بتعامل حامد وطريقته في الكلام معهم. بتّ مقتنعاً الآن بأن حامدًا كان يمر بنوبة هوس عندما أقدم على تلك الزيارة، رغم كل شيء يبدو أن تشخيصي كان هو التشخيص الصحيح. وجدت أن المظلوم الأكبر في هذه القصة كلها هي أمل، التي كانت تحترق بين نارين: حبها لشاب مريض نفسياً وعائلتها الرافضة له بالمطلق، والتي كانت بحسب تعبير فايز تحاول حمايتها من علاقة مسيئة لها ولهم. بدا لي أن فايز كان شامتاً بها وخصوصاً تلك التفصيلة المتعلقة بزواجها من محسن زكريا، الذي رُفض أولاً ثم قبلوا به بشكل مثير للعجب، وكأنه قد ظهر منقذاً لهم ولأمل ذاتها بعد موت حامد وانهيار أمل

الذي كاد يودي بحياتها. بدا وكأنهم تلقّفوا فرصة كي يتخلّصوا من ذلك العبء الثقيل. هل باتت الابنة المدلّلة والمحبوبة عبئاً إلى هذه الدرجة؟

أطفأت سيجارتي في المنفضة المليئة بالأعقاب وقررت أنني يجب أن أقابل أمل مرة ثانية.

- 45 -

ذلك المساء لم أخرج من المنزل. بعد إغلاق العيادة اتصلت هاتفياً بمكتب فريد والذي أخبرني أن أبا راتب لم يتوصل إلى شيء بعد بخصوص الممرضة، ولكنه غداً سيزور أحد أقربائها المباشرين، ابنُ عمٍ لها استطاع الحصول على عنوان دكّانه في حي الحميدية. دعاني إلى المكتب ولكني اعتذرت مفضّلاً البقاء في المنزل حيث أمضيت المساء في القراءة والاستماع إلى الموسيقا.

عندما أتت منى صباحاً قبل التاسعة بقليل وجدتني جالساً في العيادة. قلت لها إني سأخرج في عمل ضروري. وعندما ذكّرتني بموعد المريض المراهق المصاب بالوسواس القهري عند الحادية عشرة قلت إني سأعود قبل ذلك.

خرجت متوجّهاً صوب مديرية التربية. كان الجو بارداً جدّاً والسماء رصاصيّة داكنة. تذكرت أنه عندما زرت أمل قبل أيام كان الطقس مشابهاً لهذا اليوم. ولكنه اليوم أكثر اكفهراراً، كان مناسباً تماماً لكل شيء حولي. على أيّ حال أحبُّ الشتاء وأيام الشتاء الرمادية والباردة. أنا وسلمى كنا مختلفين كثيراً في هذا، فقد كانت تكره الشتاء والمطر وتحب الصيف.

تردّد دائماً: «الصيف كَيْف». وأجيبها ضاحكاً: «وأيضاً حرّ وعرق وذباب وبعوض وقذارة!». اكتشفت وكأنني أفكر بهذا الأمر لأول مرة، وهذا ما أدهشني حقّاً! كنا نختلف اختلاف الليل والنهار. ولكن ذلك لا يبرّر انفصالنا فقد كنا متحابين، والاختلاف قد يكون مدخلاً إلى حياة مشتركة وسعيدة أكثر من التوافق التام، التنافر يجذب. هل هذا صحيح حقّاً؟ تساءلت وأنا أشدّ ياقة معطفي حول عنقي. يبدو أن ذلك لم يكن صحيحاً في نهاية الأمر. سواء كانت حجّة الأطفال والإنجاب موجودة أم لا فقد كنا نختلف بكل شيء فكيف ستستقيم الحياة؟ خطرت آن ببالي، فقد كنت أختلف معها كثيراً أيضاً، كنا على طرفي نقيض تقريباً. هل أنا محكوم بأن أرتبط دائماً بنساء من غير الممكن أن أستمر معهن؟ لم أستطع أن أكتم ابتسامة ساخرة عندما فكرت بهذا. نساء؟! إذا ما قلت ذلك أمام أحد لظنّ أني زير نساء وعرفت العشرات منهن، والحقيقة أنهما اثنتان فقط، حبيبة هناك وزوجة هنا، يا لغرور الإنسان، بالأحرى يا لغرور الرجال! كانت أفكاري تزيد من تكدّر مزاجي، ووجدت أن ذلك من طبيعة الأشياء في هذا العالم.

عندما رميت عقب سيجارتي قرب الرصيف كنت قد وصلت إلى مبنى مديرية التربية والتعليم.

لم تكن أمل بمفردها في غرفتها، كانت تقف إلى جانب مكتبها المزدحم بالملفات والدفاتر والأوراق، وهي تتكلم بسرعة مع فتاة شابة بدت وكأنها إحدى مساعداتها، أو سكرتيرة لها. عندما دخلتُ أشارتْ بيدها أن أجلس وتابعت كلامها مع مساعدتها. قالت لها أخيراً: «حسناً، اذهبي الآن واجلبي هذه الدراسات كلها إلى الاجتماع مع السيد المدير». خرجت الفتاة بسرعة حاملةً أوراقها فيما جلستْ أمل وراء مكتبها وحدّقت فيّ. كانت ترتدي تنّورة سوداء وكنزة رمادية فاتحة من الصوف وجاكيت بلون رصاصيّ داكن وتحيط عنقها الطويل والنحيل

وكما المرة السابقة بوشاح حريري تعقده جانبياً، كان خمريّ اللون وموشّى بخيوط سود رفيعة متعرّجة. كان وجهها البيضوي شاحباً أكثر من المرة الماضية، كاد أن يكون شمعياً. حدّقت فيّ بعينيها الزرقاوين الباهتتين، وقالت بصوت منخفض النبرة ولكنه صارم فيما بدا أنه محاولة متعمّدة لنسيان آخر ما قالته لي في اللقاء السابق: «لا أملك الكثير من الوقت، كما سمعتَ عندي اجتماع بعد قليل مع مدير التربية».

«لن آخذ من وقتك الكثير مدام أمل».

«أظن أنني قد حكيت لك كل شيء المرة السابقة مع أنني لا أعلم حتى الآن لماذا فعلت ذلك ولكن...». تركت جملتها غير مكتملة وهي تنظر في عينيّ مباشرةً. نظرتها الزرقاء الباهتة والباردة جعلتني أفكر في ما إذا كنت قد أخطأت بمجيئي مرة ثانية.

تكلّمتُ أخيراً ببطء: «مدام أمل، لقد التقيت البارحة بشقيق حضرتك، السيد فايز».

لم يتغيّر شيء في وجهها بتاتاً، القناع الشمعي ما زال متماسكاً. سألتْ بهدوء: «هل التقيتَ به صدفة؟».

«لا، ذهبت إلى مكان عمله في معرض الشرقيات وقابلته».

تمتمتْ بصوت خفيض: «أنت مثابر حقّاً!». بدا وكأن ظلّ ابتسامة أصغر من أن تحرك شفتيها قد لاح على وجهها الشاحب والجميل، كانت جميلة حقّاً.

قلت: «أودّ أن أسألك عن بعض الأشياء».

أشعلتْ سيجارة بأناقة، وقالت: «بسرعة من فضلك فلا أريد أن أتأخّر عن عملي». كانت هادئة جدّاً وواثقة، تلك الثقة الباردة التي تميّز الأشخاص العصبيين والذين يستطيعون مع ذلك المحافظة على هدوئهم عند اللزوم، أولئك الذين يجيدون استخدام الأقنعة.

قلت: «مدام أمل، قلتِ لي في المرة السابقة إن السيد فايز قد علم بطريقة ما عن خططكما أنت وحامد...».

قاطعتني بصوت جاف وباتر: «ليس بطريقة ما،كان يتجسّس على أشيائي وخصوصياتي!».

«المهم أنه علم بخطتكما للزواج خفيةً عن الجميع، ولكنه عندما سألته عن الأمر قال إنه لم يكن يعلم شيئاً عن ذلك».

هذه المرة افترّت شفتاها عن ابتسامة واضحة، صغيرة ولكن واضحة. قالت: «وتحدّثتَ معه عن ذلك كله؟! وتجاوب معك وأجاب عن أسئلتك؟!».

«أجل». قلت. فردّت مندهشة:

«غريب! هذا ليس فايزًا الذي أعرفه! لو قلت لي إنك ستذهب لمقابلته لنصحتك بعدم فعل ذلك، سأتوقع أن يكون سلبياً جدّاً معك وقد يطردك! فايز يملك طباعاً سيئة بعض الشيء!». كانت ابتسامتها الصغيرة هازئة هذه المرة ومشوبة بالاحتقار، سرعان ما غابت الابتسامة، وتابعتْ: «إنه يكذب فقد حصل كل شيء كما حكيت لك ولا أدري لماذا أنكر ذلك».

فكرتُ هنيهة ثم سألتها: «ثمّة أمر آخر، هل أخبرك حامد عن كتاب كان يخفيه عن الناس؟».

«كتاب؟! أيّ كتاب؟». كانت دهشتها حقيقية.

«كتاب لا يملكه غيره!».

«لم أفهم بالضبط ولكن، لا، لم يخبرني عن أيّ شيء مشابه، هل ذكر ذلك في يومياته؟».

«أجل، أنا آسف ولكن... أظن بأنها إحدى هلوساته».

«لا داعي للأسف فهذا هو الواقع، أو بالأحرى ما كان واقعاً وصار ماضياً الآن، حامد كان مريضاً، كنت أعلم هذا... وأقبله!».

شدّدت على حروف الكلمة الأخيرة وكأنها ما زالت حتى الآن، وبعد هذه السنوات كلها، تدافع عن حبها لحامد. أدركتُ فجأةً وكأنما لمع برق في عقلي وأنار بعض الزوايا المظلمة أن أمل ما زالت تحبّ حامد حتى الآن، لم يكن بالنسبة إليها مجرد ذكرى لقصة حب قديمة وحزينة ومنسيّة، بل إنها ما زالت تعيش هذه القصة حتى اللحظة. عبر ذهني خاطر سريع وخبيث يتلوّى كأفعى. هل أخطأتُ حقّاً بإعادة إحياء هذه القصّة المأساوية من سباتها الطويل؟ سألتها طارداً ذلك الخاطر وعائداً إلى الموضوع الأول: «لماذا برأيك أنكر ذلك؟».

«ماذا؟... من؟». بدت وكأنها قد خرجت من حلم بشكل مفاجئ.

«شقيق حضرتك، السيد فايز».

«آه... لأنه فايز! هذا شيء طبيعي فأيّ شيء سيئ يفعله فايز يكون أمراً طبيعياً بالنسبة إليه! صحيح أنه أخي ولكني صادقة مع نفسي قبل أن أكون كذلك مع الآخرين».

سحقت سيجارتها في المنفضة ونظرت في ساعة يدها الذهب الصغيرة والأنيقة، كانت تقول بشكل مهذّب إن المقابلة قد انتهت.

«سؤال أخير مدام أمل، هل ما زلت تستمعين للموسيقا الكلاسيكية؟».

بدت مندهشة من السؤال، لم تجب مباشرةً، قالت بعد لحظات طويلة: «لا، لم أحبها يوماً، بعد أن...». سكتت هنيهة قصيرة، كان الصمت ثقيلاً. تابعتْ: «لم أعد أستمع للكلاسيك، ولكني أستغرب سؤالك!».

«أحاول أن أعرف التفاصيل كلها، الحقائق مخبوءة عادةً تحت ركام من التفاصيل التي تبدو تافهة ولا معنى لها أحياناً».

لم تكن تنظر إليّ. تكلمت ببطء وكأنها تتكلم مع نفسها: «الحقائق؟! هناك مقولة أحبها لسيمون دوبوفوار (الحقيقة واحدة ولكن الأخطاء

كثيرة)». عادت وركّزت نظرتها الحادّة والباردة في عينيّ وتابعت: «نحن نعيش حياتنا كلها مع الأخطاء وليس مع الحقيقة!». نهضتْ فجأة بحركة سريعة وكأنها تسدل ستاراً متيناً على الماضي وهي تقول: «اعذرني يا دكتور ولكن عندي اجتماع مهم».

نهضتُ وشكرتها وانصرفت. وفيما كنت عائداً إلى العيادة تحت السماء الرصاصيّة وهبّات الهواء البارد تتلاعب بشعري وثيابي لم يكن يتكرّر في ذهني الذي كان يعمل بطاقته القصوى سوى عبارة واحدة... الحقيقة واحدة ولكن الأخطاء كثيرة.

- 46 -

مرت ساعات ما قبل الظهيرة مملّة وبطيئة. قبل انصرافها عبّرت منى عن استغرابها بسبب عدم مجيء فتى الوسواس القهري في موعده. ابتسمتُ وقلت: «نصادف هذا كثيراً في مجال عملنا، فالمرضى يخافون الوصمة stigma وخصوصاً عندنا، ولكنه على الغالب سيرجع مرة أخرى». كنت أكلّمها وأتأمّلها وهي واقفةٌ أمامي. فتاة رقيقة بعينين بريئتين ودودتين متعلّقتين بشفتيّ وأنا أتكلم، وجدتها جميلة حقّاً، لم أكن أراها كما أراها الآن. في وادٍ سحيق ثمّة شيء يلمع في الأعماق، هناك، في الأعماق المنسيّة.

بعد انصرافها كان تكدّر مزاجي قد وصل إلى الذروة، لبست معطفي وخرجت من المنزل. ركبت سيارتي وقدتها باتجاه شارع الدبلان. وكأن الزمن كان يعيد نفسه، أو كأنني كنت أكرر ما فعلته الأسبوع الماضي من دون قصد وإنما بوعي خارج عن السيطرة. أوقفت السيارة قرب الحديقة ومشيت في شارع الدبلان باتجاه الساعة الجديدة، لم أكن أنوي زيارة المحل الذي يعمل فيه ذلك الشاب نصف المعتوه، بل دخلت المحل الأول. استقبلني البائع البدين والمبتسم دائماً بابتسامة واسعة،

رحّب بي وهو يطفئ سيجارته في المنفضة المليئة بأعقاب السجائر: «أهلاً أستاذ... تفضل». ثم عاجلني بسؤال: «هل وجدتَ ما كنت تبحث عنه؟». ابتسمت: «أجل، في دمشق». ملأت الدهشة وجه البائع الممتلئ: «سافرتَ إلى دمشق من أجل الكاسيتات؟!». ضحكت: «ليس بالضبط، كنت مسافراً في عمل فاغتنمت الفرصة وبحثت ووجدت ما أريد». ضحك البائع بصوت عالٍ، تورّد وجهه وبدا خجِلاً من نفسه. أشعل سيجارة وسألني: «كيف أستطيع خدمتك؟».

«هل يصادف أن أجد عندك تسجيلات لباخ؟ متتاليات التشيللو على وجه التحديد».

تغضّن جبين الرجل وهو يفكر ويتذكر، بدا أن التفكير يؤلمه بعض الشيء، أشرق وجهه بعد لحظات وقال: «أظن أنه عندي كاسيت واحد لباخ، لا أتذكر بالضبط ما هو مسجَّل عليه، سأبحث عنه». بعد فترة بحث طويلة في الرفوف الخلفية أخرج بعض الشرائط المغبرة، مسحها وتفحّصها ثم ناولني واحداً منها، سوني أحمر، قائلاً: «يوجد هذا فقط». أخذته وقرأت ما كتب عليه بالإنكليزية. كان مسجّلاً عليه على الجانب A المتتالية الأولى للتشيللو لباخ وعلى الجانب B المتتالية الثانية، منقولاً من أسطوانة للعازف الإيطالي أنطونيو جانيغرو[1] تعود إلى منتصف الخمسينات.

قلت: «جيد جدّاً، يبدو هذا الكاسيت جزءاً من مجموعة، ألم تجد البقية؟». كانت ابتسامة البائع مرتبكة وحائرة: «لا، على ما يبدو أنني قد بعتها منذ زمن طويل فلم أكن أحتفظ بها كمجموعة». قلت: «لا بأس، يكفيني هذا حالياً». سألني البائع وهو يبتسم ابتسامة واسعة اختفى الارتباك منها: «هل أطلب لك من الموزّع الرئيسي في حلب الذي

---

(1) Antonio Janigro: عازف تشيللو إيطالي شهير عاش بين عامي 1918-1989.- الناشر.

أتعامل معه كاسيتات أخرى لباخ؟ ستصلني دفعة جديدة من الكاسيتات الشهر المقبل».

«حسناً، قد أشتري شيئاً، سأمرّ بك في ما بعد». نقدته ثمن الشريط وخرجت من المحل. يوم الأسبوع الماضي ما زال يحاول أن يكرر نفسه، ذهبت ماشياً وزرت فريد في مكتبه.

استقبلني بحماسة: «لو أنك أتيت قبل دقائق، الآن أرسلت أبا راتب بعمل إلى السرايا، كنت سمعتَ منه بنفسك!». قلت وأنا أجلس محاولاً إخفاء لهفتي: «هل توصّل إلى شيء؟».

أجاب فريد بنبرة انتصار: «أجل، فكما قلت لك أبو راتب يُعتمد عليه، مكر ثعلب ودهاء ابن عرس! اسمع، الممرضة وداد عتّال حيّة ترزق وتعيش حالياً في مأوى المسنّين».

«المأوى التابع لجمعية البرّ؟».

«أجل، دار المسنّين في جمعية البرّ والخدمات الاجتماعية، أنت تعرف أين تقع أليس كذلك؟».

«إنها خارج المدينة في بداية الأوتوستراد الدولي باتجاه الشمال».

«بالضبط، مقابل معمل السكّر تقريباً، وقد استطاع أبو راتب أن يعلم من قريبها الذي أخبره بذلك كل شيء عنها». التقط فريد أنفاسه، ورغم البرد كان يتعرّق. مسح وجهه وجبينه بمنديل أخرجه من جيبه، ثم أعاده إلى مكانه بعناية وأشعل سيجارة وتابع سرد معلوماته دفعةً واحدة: «وداد تقاعدت منذ أكثر من عشر سنوات ثم أصيبت بروماتيزم المفاصل، لم تكن متزوجة وتعيش لوحدها، أخوتها وأخواتها بعضهم مات وبعضهم هاجر، ومنهم ما زال يعيش هنا، ولكن لا أحد يريد العناية بامرأة عجوز وشبه عاجزة، كانت تسكن لوحدها في شقة صغيرة مستأجرة وعندما صارت عاجزة عن العناية بنفسها جيداً ووجدت أن أخوتها ليسوا مهتمين

بها. اختارت أن تعيش في دار المسنّين ودخلت إليها بملء إرادتها وهي ما زالت تعيش فيها حتى الآن».

سألته باهتمام: «هل تعرف مواعيد الزيارات هناك؟».

«لا، ولكن أظن أن الزيارات مفتوحة طيلة النهار».

نظرت في ساعتي وقلت: «جيد».

تساءل فريد مستغرباً: «هل ستذهب الآن؟!».

«لا، سأذهب غداً صباحاً».

تأمّلني فريد باهتمام للحظات ثم سألني: «عادل، هل أنت مقتنع أن بإمكانك كشف تفاصيل جريمة مرّ عليها 22 سنة؟! كما تعلم، الواقع غير الأفلام والمسلسلات التلفزيونية!».

ابتسمت: «أعلم ذلك، ولكن معرفة القاتل ليس هدفي الرئيسي».

«ماذا إذًا؟! لماذا هذا الجهد كلّه؟». قال فريد بصوت حائر.

قلت وقد غابت الابتسامة عن وجهي: «الحقيقة واحدة ولكن الأخطاء كثيرة! أحاول أن أخفّف من الأخطاء قدر الإمكان».

ومع أن فريدًا كان رجلاً ذكياً ولمّاحاً إلا أن وجهه تحوّل في هذه اللحظات إلى صورة نموذجية للبلاهة. تمتم: «ماذا؟ ما هذا؟! فلسفة أم طب نفسي حديث؟».

«لا هذا ولا ذاك، الأمر صار شخصياً بالنسبة إلي ولا أريد التوقف، سأسير وراء الموضوع حتى النهاية، إما أن أعرف وإما أن أصطدم بحائط يمنعني!».

اختفت ملامح البلاهة التي غلّفت وجه فريد قبل لحظات، عاد نبيهاً وحكيماً: «الاصطدام بالجدران قد يحطّم الرؤوس أحياناً! تذكر هذا».

«أعلم، ولكن السهم انطلق ولا سبيل إلى إرجاعه».

قهقه فريد عالياً ثم قال وهو يغالب ضحكاته: «لقد تغيّرت يا عادل، صرتَ فيلسوفاً حقيقياً! كلام جميل رغم أني لا أعرف بالضبط ماذا يدور في عقلك!».

قلت وأنا أنهض: «دعني أفهم أنا أولاً ثم أخبرك».

خرجت من الغرفة وتركت فريد حائراً أكثر من ذي قبل.

- 47 -

استمعت إلى موسيقا يوهان سيباستيان باخ طيلة المساء. أعدت تشغيل الشريط الذي اشتريته مرات عدة. المتتالية الأولى على جانب الشريط الأول يستغرق عزفها نحو سبع عشرة دقيقة، وتتألف كما هو مبيّن على الغلاف الداخلي للشريط من مقدمة موسيقية preludeوخمس رقصات هي على التوالي allemande وcourante وsarabande وmenuet وgigue. والمتتالية الثانية كذلك، مقدمة وخمس رقصات ويستغرق عزفها تسع عشرة دقيقة.

نقلتني الموسيقا الراقية إلى عوالم أخرى. العازف الإيطالي كان بارعاً ومتمكناً، وصوت التشيللو الحنون والجهير كان مناسباً تماماً للأجواء التي انزلقت هذه الأيام لأعيشها على غير إرادة مني. تساءلت أخيراً وأنا أطفئ جهاز التسجيل. أحقّاً على غير إرادة؟ أين الإرادة إذًا من ذلك كله؟ تركت أفكاري تنزلق في ذهني كما ينزلق زورق خفيف على سطح ماء نهرٍ هادئ التدفق وبطيء الجريان وتنقلني من باخ إلى فاغنر ومن فاغنر إلى حامد ومن حامد إلى شوبنهاور الذي كتب كتابه الفلسفي الضخم المعنون، العالم إرادةً وتمثّلاً. الإرادة هي الموضوع الذي أمضى

شوبنهاور عمره كله يدرسه ويكتب عنه، أعماله كلها تتمحور حول هذا الكتاب وهذه الفكرة. شوبنهاور سيد التشاؤم وحامد تلميذ نجيب لهذا السواد كله. ترى هل كان يتماهى مع فيلسوفه الأثير على قلبه؟ كلاهما عانى من والدة قاسية وكلاهما تعرضا للنبذ من قِبَل الأم وإن لأسباب مختلفة، ولكن النتائج متشابهة ولو في جانب ضيّق جداً، طيفٌ ضئيل على الأقل. حامد كان يدرس الفلسفة ويحبها وفي يومياته بدا أن الفيلسوف الوحيد الذي كان يحبه ويجلّه حقّاً هو شوبنهاور واستشهد بأقواله كثيراً.

أحسست بأني أتهاوى من عالم الموسيقا اللطيف والرحب إلى عالم الفلسفة الصعب والمدهش. ولكن، أليست الموسيقا هي فلسفة في المقام الأخير؟ ألا تقدم إجابات أو على الأقل تحاول ذلك كما تحاول الفلسفة أن تفعل؟

أشعر بنفسي أقف في الهواء لا على الأرض، من يفسّر لي الرؤيا، وليس الحلم، التي رأيتها منذ يومين؟ أنا متأكد أني كنت مستيقظاً أصغي إلى موسيقا فاغنر الحزينة وأشعر بمرارة الشاي المختمر جداً في فمي وتكاد السيجارة من دون فلتر تحرق أصابعي. الأمر يتعدّى قدرات أي مفسّر ميتافيزيقي للأحلام وأي دارس عقلاني لها. لم أعد أمشي في دروب العلم والعقل المعبّدة والمطروقة، بل بتّ ضائعاً في سهوب النفس البشرية التي ما زالت مجهولة وغير مستكشفة رغم الجهود كلّها التي بُذلت عبر القرون الطويلة.

نهضت وأطفأت نور الغرفة. خرجت متلمّساً طريقي في الظلام إلى الممرّ ومنه إلى البهو الصغير. ثمّة نورٌ ضئيل يدخل عبر نافذة المطبخ من الشارع ويتسلّل إلى البهو دخلت على هديه إلى العيادة من الباب الفاصل بينهما. فتحت الباب المطل على الحديقة وخرجت ووقفت خارجاً في البرد. أنعشني الهواء اللاذع. الغيوم كثيفة ولم يكن هناك ضوء قمر.

النور الضئيل القادم من مصباح الشارع في الزاوية البعيدة ينير ما حوله بعض الشيء، يداعب العتمة ولا يبدّدها. اتجهت إلى باب القبو، هبطت الدرجات القليلة وفتحت الباب ودخلت وأغلقت الباب ورائي، لم أشعل المصباح الكهربائي بل وقفت في الظلام الدامس. برودة القبو الرطبة جعلتني أرتعش، والبرد كثّف من رائحة الغبار، رائحة الأشياء القديمة والمهمَلة، رائحة الزمن العتيق الذي راح ومضى ولكنه ما زال عصيّاً على النسيان. مرّ وقت لم أستطع تحديده بأي شكل من الأشكال لأنه وقت هلاميّ وكثيف، هكذا استشعرته في خلايا جسدي كلّها. أدركت فجأةً أن الهواء الثقيل والبارد يتحرك من حولي. أيّ طيف يحرّكه ويتحرك من خلاله؟ هل تتحرّك الأطياف عبر الهواء أم عبر الزمن؟ حاولت أن أسأل نفسي هذا السؤال بصوت مسموع، ولكن صوتي تجمّد في حلقي، كنت أسمع صوت جريان الدم في عروق صدغيّ بوضوح، صوت من الداخل، ولكن أصوات الخارج كيف ومتى أسمعها؟ سألت من دون صوت ومن دون أن تفترّ شفتاي المطبقتان بإحكام، هل تساعدني؟ لماذا تزورني ولا تساعدني؟ استطعت أن أشمّ رائحة الخزانة العتيقة. ميّزت رائحتها ضمن روائح القبو القديمة الممزوجة كلها معاً، رائحة الخشب العتيق والبالي وربما المسوّس أيضاً، خشب مريض في عالم مريض، العالم كله مريض مرضاً مزمناً لا علاج له، لا يوجد شفاء. بدت لي هذه الحقيقة واضحة في الظلمة كنور شمعة في غرفة حالكة الظلام، شمعة مغروسة في رأس شمعدان برونزيّ ثقيل. عندما أزعجتني الأطياف في الفيلا القديمة وأنا أسكن فيها بمفردي هجرتها وجئت إلى هنا، ولكن هل تلاحقني وأنا لا أعلم؟ هل الإدراك الإنساني قاصر إلى هذه الدرجة؟ أصبحت الظلمة ثقيلة، أصبحت رائحة الخشب المريض ثقيلة، أصبحت رائحة الزمن المعتّق ثقيلة. لمع برقٌ قوي في الخارج أضاء القبو عبر النافذة ذات الزجاج المغشّى والمغبّر بنور أبيض متوهّج للحظات قصيرة، لحظات صبغت القبو بذلك الضوء المقتحم والمخاتل، عندها

رأيته! شابٌ نحيلٌ وحزينٌ لا يقف على الأرض، بل يطفو فوقها ورأيت شمعداناً برونزيّاً يتحرك في الفراغ بجانب رأسه. لوحة شاحبة وحيّة وصامتة، رماديّة ومن دون ألوان، يلفّها صمت حزين وراسخ. غاب ضوء البرق واختفت الأطياف. تجمّدتُ مثل تمثال جليدي وشعرتُ بأن دمائي تجمّدتْ أيضاً في عروقي. سمعتُ صوت رعد قوي جعلني أجفل، هزيمٌ ثقيل ومتطاول وعميق، أحسست بأن الهواء قد نفد، امتصّته الصورة الحزينة، كنت أتنفس بصعوبة وألم كمن يستنشق نثار قرميد مفتّت. ما عدت أستطيع التنفس فهرعت إلى الخارج، وقفت على بلاط الحديقة الضيّقة في العتمة الملطّفة بنور مصباح الشارع الضئيل الآتي من بعيد، عببت الهواء البارد الذي اقتحم رئتيّ بقسوة، نظرت إلى السماء المغطاة بغيوم لا أستطيع رؤيتها ولكني أعرف أنها موجودة، أعلم علم اليقين أنها هناك في الأعلى ولكني لا أراها بعين اليقين، تلك الفروق الدقيقة التي يتأخر البصر في إدراكها ولكن تدركها البصيرة، غيوم سوداء كثيفة تظلّل نهاية ليلة باردة. ازدادت شدة الرياح واشتدت ضراوة البرد، وبدأت قطرات باردة ومتفرقة من المطر تداعب وجهي برقة، سرعان ما تسارعت وازدادت وانهمر المطر بقوة، لم يعد رقيقاً بل أصبح قوياً ومتسلّطاً، كنت أسمع صوت ارتطام القطرات الكبيرة على البلاط رنّاناً ووحشياً. بدأت أتبلّل ولكني بقيت واقفاً، لم يكن بميسوري التراجع الآن. المطر ينهمر على نحو متواصل وأنا أتشبّع بالماء، أخيراً وبعد أن تبلّلت ثيابي تماماً وشعرت بعظامي ترتعد داخل جسدي... عدت إلى الداخل.

- 48 -

التدوينات (13)

هذا المساء أمضيته بمفردي. عدت فاستمعت إلى المتتاليات الست للتشيللو من تأليف باخ. ساعتان من المتعة الخالصة. يا لصوت هذه الآلة الموسيقية المذهلة! صوت رخيم وعميق وحنون وحزين، صوت دافئ كالمخمل، هل هناك أجمل من هذا؟ لم أكن أوجّه انتباهي إلى الموسيقا الجميلة والهادئة التي أبدعها الكبير باخ بقدر ما كنت أنتبه مدقّقاً ومستمعاً بشغف إلى الصوت بحد ذاته، صوت التشيللو. لو عزفنا عليها لحن أغنية من أغاني الكباريهات التافهة لحوّلَته إلى لحن جميل! هكذا أشعر الآن. هل بالإمكان تحويل شيء مبتذل ورخيص إلى شيء نفيس وثمين بمجرد تمريره عبر أنبوب مصنوع من الجمال الخالص مثلاً؟ تحويل، إعادة تصنيع، إعادة خلق؟ ربما، أظن أن كل شيء خُلق من المادة عينها، أو المواد ذاتها إذا شئنا الدقة، ولذلك كل شيء من الممكن أن يُصنع منه أيّ شيء. لنتمحّص في الأمر، أعجبتني نتمحّص هذه، تشعرني بأني مثقف كبير وحقيقي، لنعد إلى الأشياء وكيف صُنعت، لا، لحظة، سأتوقف عند

مثقف كبير وحقيقي، ماذا يعني هذا بحق الله؟ هل أكتب مقالاً متفذلكاً في جريدة لا يقرأها أحد، أو أكتب سطوراً في برنامج إذاعي يدّعي أنه ثقافي من تلك التي تعجّ بالكلمات الكبيرة والمصطلحات المزركشة، والتي لا يفهمها أكثر من نصف الناس؟ سأشطب الكلمة. لن أشطب بمعنى الشطب الفعلي ولكن سأشطب هذا من المعنى الذي أقصده، فأنا لا أحب أن تكون الصفحات مملوءة بالشطب والتصحيح والخطوط السود العشوائية القبيحة. حسناً لن أقول لنتمحّص، سأقول لنفحص، هذه جيدة ومفهومة. إذًا فإذا فحصنا الأشياء وكيف صُنعت لوجدنا أن كل شيء جاء من الطين، ماء وتراب. ماء + تراب = طين. لحظة سأبدّل المفردة، الوحل. ماء + تراب = وحل. كلمة وحل توحي بالقذارة أكثر، ونحن قذرون، البشر قذرون، لا مراء في ذلك. اللعنة! من أين أتيت بكلمة مراء هذه؟ هل لأنني أريد أن أبدو مثقفاً حقيقياً وكبيراً! لا، لا يهمني هذا، أنا أفضّل البساطة، سأبدّل مراء وأكتب لا جدال في ذلك، القذارة تعمّ العالم، تعمّ كل شيء، ولكن من قال إن العالم الذي نعرفه هو كل شيء؟ يا لنا من مغرورين، نعرف قليلاً جداً ونتبجّح كثيراً جدّاً، يبدو أننا لن نكون بشراً ما لم نفعل ذلك! كيف خُلقنا هكذا؟ نرتقي إلى السموات ونغوص في الوحل في آنٍ معاً، يا للتناقض! نحن مصنوعون من التناقض، ولماذا أذهب بعيداً، ها هي أمل وردتي الرائعة والجميلة وأميرتي الساحرة هي ويا للأسف هي شقيقة شخص لا يساوي في أحسن الأحوال أكثر من قطعة من القذارة، والاثنان حملهما بطن واحد، أليس هذا تناقضاً غريباً؟ لدي مثال آخر، صديقي سعيد، الفنان الرقيق والإنسان الذي يفيض جمالاً روحياً والذي تملأ قلبه الألوان الزاهية، أنجبه رجل أحمق لا يملأ رأسه سوى القشّ ولا يملأ قلبه سوى الظلام. سأختصر، جدّتي إنسانة أكثر من رائعة وابنتها، أمّي، إنسانة سيئة، لن أقول عنها أكثر من هذا فالكلمة تؤدي الغرض.

الليلة باردة جداً، ويبدو أن هذا يجمّد الأفكار، ليس اليد التي تكتب فقط بل الرأس الذي يفكر أيضاً. انطفأت المدفأة ولم أجد في نفسي القوة ولا الرغبة كي أنهض وأعيد تغذيتها بالحطب، ولكن الغرفة ما زالت دافئة على أيّ حال. عندما نتزوج أمل وأنا لن نشعر بالبرد، هكذا أخمّن، سنستمع إلى الموسيقا معاً وندخّن معاً، عفواً هي لا تدخّن، ونضحك معاً ويضمّنا سرير واحد تحت لحاف واحد معاً فكيف سنبرد؟ طبعاً لا أفكر بالأمور الجنسية الآن فكل شيء في وقته، أصلاً لا أفكر بالجنس كثيراً هذه الأيام، في الحقيقة لا كثيراً ولا قليلاً، ولا أعلم لماذا، ولم أمارس تلك العادة القذرة منذ زمن طويل فلا أحتاجها، من الجيد ألا يحتاج المرء شيئاً، أيَّ شيء، من الجيد أن يكون الإنسان فوق الأشياء، الأشياء كلّها. الإنسان صَنعَ الأشياء، حتى تلك غير الملموسة وغير المحسوسة بل وحتى الأشياء غير المدرَكة، كل شيء من صناعة عقلنا، الأشياء الجيدة والأشياء السيئة، الجميلة والقبيحة، الإنسان يأكل اللذائذ ويتغوّط الخراء، يبدع الموسيقا ويشنّ الحروب، يكتب الشعر والفلسفة ويمارس التعذيب والقتل. هل عدت إلى البداية؟ سأنهي هذه السيجارة وأكتفي من الكتابة لهذه الليلة، الملل يجتاحني رغم كل شيء لذلك سأكمل في ما بعد ولكن... قبل ذلك وقبل أن أرتاح عليّ أن أكتب، ولا مناص من ذلك، عندما ذكرت «الملل» تذكرت معلمي شوبنهاور وبندوله المتأرجح بين الألم والملل. كل شيء يبدو أنه يعيدني إلى هذا، لن أتذمّر فأنا أحب شوبنهاور -أكان مريضاً حقّاً أم إن الدكتور معروف كان مخطئاً؟- سأتكلّم عن رأي الدكتور معروف في شوبنهاور لاحقاً، تشغلني أمور أهم الآن، هذه التفصيلة القديمة الموجودة في قعر ذاكرتي لا تهم الآن، لا تهم في أي وقت. لطالما أحببت شوبنهاور ولا تهمني آراء الآخرين فيه. الرجل كان مخلصاً لعمله ووهبه حياته بأكملها، فلسفته، عمله وفلسفته شيء واحد فهو لم يعمل شيئاً في حياته سوى العمل في الفلسفة، وكان محقّاً في هذا ورائعاً فيه، أعطانا الكثير، من الجيد أنه

لم يعالجه أحد على حد تعبير الدكتور معروف وافتراضه المضحك - أكتب هذا تجاوزاً طبعاً فلم أكن مقتنعاً بما قاله د. معروف أصلاً حول هذا الموضوع - يكفينا كتابه العظيم (العالم إرادةً وتمثلاً)، والذي ذكر في مقدمته رأيه في الفلسفة. رأيٌ هائل وعظيم ومحقّ وأخلاقي، كان كما أرسطو يربأ بالفلسفة أن تكون وسيلة للارتزاق، أتذكّر ما كتبه بدقة بل أحفظه غيباً. (لا شيء يسيئ إلى الفلسفة في أي وقت من الأوقات أكثر من اتخاذها وسيلة للتعيّش وكسب الرزق والوصول إلى مطامع وأهداف سياسية). أهناك أرقى من هذا الكلام؟ صحيح أنني لا أوافقه في بعض آرائه المتشدّدة حول النساء عموماً، وحول الضرر الذي تسبّبه المرأة للعباقرة -أجل فلم يكن التواضع إحدى صفات شوبنهاور، ولكن لا بأس فعبقريته الهائلة تسمح له بهذا- ولكن من قال إنني يجب أن أوافق أساتذتي -وأولهم وأهمهم طبعاً شوبنهاور- على قناعاتهم ومقولاتهم كلها؟ حسناً، فأنا أملك شخصيتي المستقلة وآرائي الخاصة بعد كل شيء، ألستُ متميّزاً أنا أيضاً؟ ألستُ مختاراً ومتفرّداً؟ وإلا... فلمَ أعطيتُ كتاب الأسرار في المقام الأول؟ لي الحق بالاعتراض ولي الحق كذلك بقول ما أشاء حتى إنني ابتكرت تعريفاً للفلسفة خاصّاً بي. الفلسفة هي فن تغيير الآراء. حسناً أعيد قراءة هذه العبارة وأجد أنني أستحق أن أكون متفرّداً. أن يكون لك رأيٌ خاصّ ومميّز وصائب فوق ذلك فهذا يعني أنك إنسان متفرّد، ودليلي على ذلك، عدا التعريفات الفلسفية المبتكرة طبعاً، هو أن أمل أحبتني أنا. أمل كائنٌ ملائكيّ رقيق لا مثيل له، وأن تحبني أنا وحدي يعني أنني أنا وحدي فقط من يستحق هذا، وبالنتيجة المنطقية فأنا فقط كائن متفرّد.

أمل مميّزة أمل أحبت حامد إذًا حامد مميّز.

الفلسفة قد تكون بسيطة وجميلة في آنٍ واحد أحياناً... يا لسعادتي!

أستحق أن أرتاح الآن.

- 49 -

كانت ليلة سيئة! نوم متقطع وغير مريح، كوابيس، مزيج من كوابيس متعددة ومزعجة. مرت الساعات بطيئة ومؤلمة. ليل بارد تظلّله غيوم سود يجلّل كوابيس مؤلمة تمزّق ساعات النوم إلى شظايا متناثرة وجارحة. التدوينات تلوّن الأشياء كلها ليس بألوان قوس قزح وإنما بلون واحد، تنويعات لا نهائية للون الرمادي، لون الرماد الأغبر والبارد.

كانت ليلة سيئة حقاً!

- 50 -

التدوينات (14)

ضقت ذرعاً بكل شيء. ضقت ذرعاً حتى بكتاب الأسرار! ها قد كتبتها ولم أخف أو أهتم، لم أعد أهتم.

نزلت قبل قليل إلى القبو لأجلب الحقيبة من مخبأي السري في الخزانة القديمة ثم أصعد كي أكتب في دفاتري، تدويناتي التي أجد أن من المفيد أن أستمر في كتابتها ريثما أتزوج أمل. وقتها لن أكتب شيئاً، أو ربما أكتب قليلاً من يدري؟ سأقرر ذلك لاحقاً.

المفاجأة أنني لم أجد الكتاب! أمر مدهش! هل أضعته؟ هل سرقوه؟

لم أجد في الحقيبة سوى دفاتري. جلست في غرفة الجلوس والحقيبة والدفاتر أمامي على الطاولة وأنا أفكر. خطر ببالي أن أضع أسطوانة ما في الفونوغراف وأستمع إلى شيء من الموسيقا كي تهدأ أعصابي ولكني لم أفعل. فضّلت أن أجلس في الصمت، الجلوس في الصمت. ليس الجلوس بصمت بل في الصمت. الصمت مكان فسيح وكبير وجميل نتوه فيه بسعادة، أعجبني هذا التعبير. جلست أعيد التفكير

بكل شيء، لم أعد متأكداً من شيء، الحقيقة الوحيدة الواضحة أمامي الآن أني لم أعد أملك الكتاب. ولدهشتي لست منزعجاً ولا خائفاً ولا أشعر ولو بقليل من القلق. أرتّب أفكاري، لم يأخذه مطاردوه الأشقياء الأشرار وإلا كانوا مرّوا عبري أولاً فهم لن يتجاوزوني وإذًا ليسوا هم. هل استرَدَّه من منحه لي بادئ ذي بدء؟ أنا متأكد أن الأمر ليس كذلك فهو لن يستعيده والكتاب لا يزال غير مفهوم ولغته غير مكتشفة بعد وإلا لماذا أعطاه لي في المقام الأول؟ أسأل نفسي، هل أخفقت في مهمتي الصعبة والخطيرة؟ أجد أنني لم أنجح بعد ولكني لم أخفق، لا إجابة عن هذا السؤال الافتراضيّ ما دام الكتاب ليس معي. كتاب الأسرار، كتاب اللغة العجيبة بحروفها الملتفّة والمتحركة والمتغيّرة دوماً وكأنها آثار أقدام قبيلة من النمل السكران يثابر على المشي فوق الورق على غير هدى وبشكل متواصل. أين هو؟ هل كان معي أصلاً؟ أرعبني هذا السؤال، الآن شعرت بالخوف حقّاً بل بالرعب حتى إن شعر رأسي كاد يقف، أحسست بفروة رأسي تتخدّر، خدر جلد الجمجمة ليس شعوراً طيباً على الإطلاق.

لا أشعر بالرغبة في فعل أيّ شي، ولا حتى الاستماع إلى الموسيقا صديقتي الدائمة، ولا القراءة في أحد كتبي الكثيرة والأثيرة، بل ولا حتى قراءة -هل أقول إعادة قراءة ولا أدري للمرة المائة ربما أو أكثر- كتابي المفضّل (العالم إرادةً وتمثلاً).

يقول شوبنهاور إن الإرادة هي ما يحرّك العالم وليس العقل، ولكن إذا ما شحنت طاقتي كلّها في إرادتي المتمثّلة بمعرفة ماذا جرى للكتاب هل سأصل إلى جواب؟ أودّ لو أني أطرح هذا السؤال على الدكتور معروف ثم أروح أتأمل تعبيرات وجهه. تكلّمنا أكثر من مرة حول شوبنهاور وأفكاره. قال لي ذات مرة: «شوبنهاور كان مريضاً، عصاب اكتئابي، لو أن الأدوية الحديثة التي نملكها الآن كانت في زمنه وعولج

بشكل جيد لما كنتَ درسته كفيلسوف ولما كنتَ سمعتَ باسمه أصلاً!».
يقول ذلك ويضحك ضحكته الصغيرة المبتسرة من دون صوت. كم غضبتُ حينذاك. د. معروف طبيب ماهر ولا اعتراض عندي ولكن، هل يفهم في الفلسفة؟ أشك بهذا كثيراً. قلت له وأنا أحاول تمالك أعصابي: «شوبنهاور لم يكن إنساناً متشائماً حقّاً لأنه في أعماقه وكتبه وأقواله كان يصدر عن موقف فلسفي وليس عن إحساس نفسي، وهو إذاً ليس مصاباً بمرض أو عصاب أو اكتئاب أياً كانت الصفة، بل كان يحاول وبالعقل وبالحجّة المنطقية إثبات عبثية الوجود ولا معنى الحياة،كما كان إيمانويل كانط يفعل قبله». عندها أربكني د. معروف بسؤال مفاجئ يقشعرّ له جسدي عندما أتذكره. قال: «حامد، هل تؤمن بالله؟». قلت بسرعة: «طبعاً». أغضبتني الابتسامة حينها على وجه الطبيب الذي كان يحب أن يبدو ذكياً دائماً، قال: «كيف توفّق بين هذا وذاك؟!». أحسست بنفسي ضائعاً، عصرت ذهني لأتذكّر مناهج الفلسفة التي درستها والكتب التي قرأتها كلها، استعنت بذاكرتي التي قالت لي إن شوبنهاور كتب كتاباً اسمه (فن السعادة) ومن يفعل ذلك هل يكون متشائماً على الحقيقة؟ ما زلت أسمع نفسي أقول بحماسة: «اسمع يا دكتور، نيتشه قال إن كل فلسفة تخفي فلسفة وكل رأي هو أيضاً مخبأ وكل كلمة هي أيضاً قناع، وشوبنهاور قال إن كل ما يتحقّق بوساطة العقل هو مجرد مزاح مقارنةً بما يصدر مباشرةً عن الإرادة». كان د. معروف ينظر إليَّ ببرود وأنا ألتقط أنفاسي اللاهثة. قال بهدوء يبعث على الغيظ: «لم تجبني عن سؤالي حقّاً!».

تلك الليلة بكيت ليلاً في فراشي من الغيظ والحيرة. قبل أن أغفو كان سؤال واحد يتردّد في عقلي كصدىً لحوح لا يخمد ويرفض أن يتلاشى، هل كان كل شيء هباءً؟!

ولكن لنعد إلى سؤالي الحالي المرعب: أين الكتاب؟ ليس الآن

فقط، بل أين كان كتاب الأسرار طوال الأزمنة؟ أين كان وأين راحٍ؟ لا أجد أيّ إجابات لذلك سأشغل نفسي بأمر آخر الآن، أمرٌ مهم جداً وهو أنني يجب أن أقابل أمل غداً، اقتربت عطلة منتصف السنة في المدارس، وهذه فرصتنا الأفضل، يجب أن نخطط وبالتفصيل لكل شيء، لنترك أيّ شيء آخر جانباً ولنخطط لما سنفعل، لمستقبلنا القريب والبعيد أيضاً، لم لا؟ ولننسَ الماضي قريبه وبعيده فقد كان سيئاً.

بدأت يدي تؤلمني، جسدي كله يؤلمني، أفكاري تبعاً لذلك تتفلّت مني كما كان منطق التاريخ يفلت من هيغل الذي نفى التاريخ ودمّره، يا للبؤس! ولكن أفكاري لا تدمّر شيئاً وأنا لن أدمّرها بالمقابل، سأحتفظ بها متجدّدة وطازجة. لننسَ الوراء ونفكر بالأمام فقط.

سأذهب لأنام، يجب أن أقابل أمل غداً... إلى الأمام... إلى أمل.

- 51 -

استيقظت مبكراً وصداعٌ عنيف يجتاح رأسي كله. خمّنت أني أصبت بنزلة برد بعد وقوفي المطوّل تحت المطر ليلة البارحة.

عندما دخلت المنزل مبلّلاً ومرتعشاً اغتسلت بماء ساخن وخرجت ملتفاً بالمناشف وجلست بجانب المدفأة التي أشعلتها قبل دخولي الحمّام. ارتديت منامتي بعد قليل ونمت مباشرةً.كانت ليلة سيئة.

نهضت متعباً ومرهقاً وحزيناً. تناولت حبتي مسكّن للألم قبل قهوة الصباح بعد أن شعرت بأن حرارتي مرتفعة. جلست في غرفة المكتبة والساعة لم تتجاوز السابعة بعد. تناولت الدفتر الثالث من دفاتر حامد وفتحته على الصفحات الأخيرة المكتوبة في منتصف الدفتر تقريباً، كانت التدوينة الأخيرة.

أشعلت سيجارة متجاهلاً إحساس الألم المدغدغ في حلقي وبدأت بالقراءة.

- 52 -

التدوينات (15)

أشعر بسعادة بالغة هذا المساء. أنتظر سعيدًا على أحرّ من الجمر، يجب أن أحكي لأحد وإلا انفجرتُ من الفرحة. أنا مثل دجاجة تحمل بيضة ذهب عليها أن تضعها وترتاح، البيضة هي تحديد موعد زواجنا أمل وأنا بعد ثلاثة أيام! اتفقنا على كل شيء البارحة. انتهت الامتحانات في المدارس وبدأت عطلة الربيع المدرسية. مشينا طويلاً وحكينا كثيراً وبسعادة. سأنتظرها صباحاً بعد ثلاثة أيام من الآن -كم تبدو المدة طويلة وأكاد لا أطيق الانتظار- أمام محطة القطار القريبة من منزلي، تأتي ومعها أشياؤها في حقيبتها، الأشياء الضرورية فقط وأكّدت على ذلك، نضع الحقيبة في منزلي ثم نذهب إلى المحكمة الشرعية في السرايا ونعقد قراننا. نحن بالغان راشدان وهي لا تحتاج إلى وليّ أمر، آمل ألا يعطّلنا شيء، قاضٍ متعسّف، أو كاتب محكمة متزمّت، أو ما شابه. وبهذا يكون قد انتهى كل شيء وصارت أمل زوجتي الشرعية، ولن يستطيع أحد أن يفعل شيئاً. ما ذكرته لها في الرسالة التي بعثتها إلى المدرسة منذ فترة

-وغضبتْ منها جدّاً حينها ولكنها سامحتني بعدها- تكلمنا فيه مفصّلاً البارحة، يا إلهي كم أنا سعيد، أريد أن أحكي وإلا سأجنّ!

البارحة ظهراً، بعد أن تركتُ أمل، ذهبتُ إلى حيّ الملعب البلدي، حيّ جديد وناشئ حديثاً والأبنية فيه قليلة ومتباعدة. ثمّة فيلا قيد الإنشاء لا تبعد كثيراً عن جورة أبو صابون يعمل فيها سعيد حالياً، يدهن جدرانها بحسب ما أخبرني في الزيارة السابقة. وجدته في غرفة واسعة جداً ربما ستكون صالون الفيلا يطلي جداراً بلون أصفر فاتح. تفاجأ بقدومي، فقلت له على عجل أن يزورني غداً مساءً لأمرٍ مهم وأكّدت عليه أن يأتي ثم انصرفت بسرعة، لم أبقَ طويلاً هناك فرائحة الدهان في البرد تزداد سوءاً وضراوةً، لا أدري كيف يتحمّل سعيد وزملاؤه العمل في ظروف كهذه، ولكنهم يعملون، لا بدّ من العمل، بعض الناس على الأقل عليهم أن يعملوا، الحياة هكذا، سأفكّر في العمل لاحقاً، عملي أنا أقصد.

ما زال الوقت مبكراً وسأحضّر إبريق الشاي لاحقاً، عليّ الآن أن أملأ المدفأة بالحطب وأجهّزها كي أشعلها مساءً فالطقس بالغ البرودة هذه الأيام. أظن أنني اكتفيت من الكتابة، لا أملك القدرة كي أبقى ثابتاً في مكان واحد بلا حركة، يجب أن أتحرك، سعادتي تحرّكني بفوضوية من مكان إلى آخر كعروس خيال الظلّ.

سأضع دفاتري والحقيبة في خزانتي في القبو ثم أصعد. أنتظر سعيدًا كي أنقل له سعادتي، هو الوحيد الذي يعلم، أو أنه سيعلم لاحقاً عندما يأتي، ما خططنا له أنا وأمل. سأطلب منه أن يكون شاهداً على عقد قراننا وأن ينتظرنا في المحكمة الشرعية في الوقت المحدّد بعد ثلاثة أيام.

البارحة ونحن نمشي وإحساسٌ غامرٌ بالسعادة يغمرني ويجعلني أقوم بأشياء لم أكن لأفعلها، حتى إنني غنّيت لأمل، فضحكت من قلبها. صوتي سيئ، أعلم هذا ولكن المهم أنني أردت أن أعبّر لها عن حبي وفرحي. لا أصدق متى يمر الوقت ويأتي اليوم الموعود. يا إلهي... أنا

أحب أمل أكثر من أي شيء في هذه الدنيا، لم أعد أحتمل الجلوس، سأنهض، ولكني أحس بنشوة غامرة عليّ أن أدلقها على الورق وإلا انفجرتُ، أنتظر المساء بلهفة حتى أحكي، وأنتظر الأيام القادمة بلهفة أكبر حتى تنقضي. البرد لا يخفّف لهفتي وغلياني، سأضع إبريق الشاي على الموقد كي يغلي على مهل في البرد ولكن الوقت ما زال مبكراً، لن أضعه الآن، هل ينهمر المطر؟ سأتحقّق من النافذة لاحقاً، فأنا لا أحب التحديق عبر النافذة وأنا جالس، أحب أن أحدّق وأنا واقف ولكنني أكتب الآن. نسيب كان يحدّق طويلاً وهو جالس ولكني لست نسيبًا، لست أيّ أحد! أنا حبيب أمل وقريباً جداً زوجها، ويكفيني هذا.

لم أعد أطيق الجلوس... سأنهض الآن وربما... سأطير.

- 53 -

قرأت آخر ما كتبه حامد في دفاتره، ويبدو أنه كتبه ليلة مقتله. تدوينة قصيرة لا تتجاوز الصفحتين، كُتبت بخط مستعجل لم يكن واضحاً ومنمّقاً كما باقي الصفحات في الدفاتر، وذكرَ فيها بوضوح أنه ينتظر سعيدًا تلك الليلة بعد أن دعاه بنفسه وأكّد عليه أن يأتي للضرورة.

انبثق في ذهني ومن زاوية قصيّة ومعتمة سؤالٌ ماكر ومراوغ كثعلب فتيّ. هل من الممكن أن أكون مخطئاً بعد كل شيء ويكون سعيد هو القاتل فعلاً؟! هززت رأسي مفكّراً. منطقياً لا يمكن، هكذا يقول علم النفس ولكن، متى كان العلم المتعلّق بالنفس البشرية قاطعاً وجازماً إلى درجة اليقين؟ أحبطني الجواب. استعرضت كل شيء في عقلي ببطء وتأنٍ، تذكّرت ما سمعته ممن التقيت بهم جميعاً، استذكرت ما قرأته وما درسته طوال سنوات، كل شيء يقول إن سعيدًا بريء. لم يكن عقلي مشوَّشاً ولكن مشاعري كانت كذلك، وزاد من انزعاجي إحساسي بأني قد أصبت بنزلة برد. هذا ما كان ينقصني! فكّرت ساخراً.

عندما أتت منى في التاسعة صباحاً أخبرتني إنها تحتاج إلى إجازة لثلاثة أيام في بداية الأسبوع المقبل. قالت: «سأسافر إلى دمشق من

أجل الامتحان وسأتقدم إلى امتحان مقرّرَيْن فقط خلال يومين متتاليين وأعود».

سألتها: «امتحانان فقط؟».

«أجل، فلا وقت لدي، أنا أجزّئ الدراسة على مدى أطول من المعتاد لأني مضّطرة لذلك».

«وأين ستمكثين؟».

«ابنة خالتي تدرس في كلية الاقتصاد وهي تشغل غرفة في المدينة الجامعية مع طالبتين أخريين وتستطيع استضافتي عندها هاتين الليلتين».

«حسناً، أتمنى لك التوفيق».

«هل أعدّ لك القهوة؟».

«لا... شكراً». قلت بصوت مرهق.

لم يكن من المعتاد أن أرفض قهوتها. تأمّلتني للحظات، يبدو أن وجهي كان متعباً وشاحباً. سألتني: «دكتور... هل تشكو من شيء؟».

«ربما أصبتُ بنزلة برد أو رشح بسيط، سأصنع لنفسي في مطبخ المنزل بعض الزهورات، لا داعي للقهوة».

بدا بعض القلق على وجهها وانتقل إلى صوتها وهي تقول: «إذا كنتَ تحتاجني هنا أستطيع أن ألغي سفري فالجامعة بالنسبة إلي رحلة طويلة، ولا مشكلة».

تأمّلتها بينما كانت تقول ذلك. تكلمَتْ بصدق، ليس مجاملةً ولا تزلفاً لربّ عملها. كانت صورة الدنيا مؤخراً قد بدأت تكتسي أمام عينيّ بطلاء لزج وقبيح من الزيف والخداع جعله كلام منى ولهجتها يتشقق بعض الشيء. ما زال بعض الجمال وشيء من الصدق يتناثر هنا وهناك رغم كل شيء. رأيت القلق في عينيها البنيّتين الجميلتين صادقاً، هل ثمّة شيء يلمع في الوادي السحيق؟ هل ثمّة نور ولو ضئيل يقاوم الظلام

الشرس المهيمن على الأشياء كلها؟ ابتسمت لها: «شكراً منى، ولكن لا داعي لأن تعطلي نفسك وسفرك فالأمر لا يستحق».

تمتمَت: «طيب». ثم انصرفَتْ إلى غرفة الانتظار.

أنت عجوز بالنسبة لها، كيف تسمح لنفسك أن يخطر في بالك ولو مجرد خاطر ما تفكر فيه؟ هذا ما جال في خاطري بعد خروجها من الغرفة. ورغم أننا كنا في غرفتين منفصلتين إلا أنني شعرت بأنه ثمّة ما يجمع بيننا، ربما الصمت، وربما سريان الدم الحار في العروق كذلك!

– 54 –

اتصل فريد وقال إنه سيأتي لنذهب معاً إلى دار المسنّين. عند الساعة الواحدة ظهراً ركبت مع فريد في سيارته وانطلقنا. سألته من دون دهشة: «لم تقل لي البارحة إنك ستذهب معي، ما الأمر؟».

«لا شيء، ولكني لست مشغولاً اليوم فقلت لنفسي فلأرافقك، بيني وبينك فضولي يزداد يوماً بعد يوم حول هذا الموضوع ولا أريد الانتظار حتى تخبرني أنت عمَّ جرى معك، عدا عن فضول من نوع آخر، لم أرَ تلك الممرضة منذ 22 سنة وأريد أن أراها كيف أصبحتْ الآن!».

ضحكت وقلت: «الفضول! هل تعرف ذلك المثل الفرنسي؟».

«أيّ مثل؟».

«الفضول قتل القطة!».

قهقه فريد ثم قال: «قل ذلك لنفسك فأنت من بدأ ذلك كله!».

كانت سيارة فريد من نوع مازدا طراز 929، سيارة حديثة وجديدة موديل عام 1982 بلون رصاصيّ ومقاعد جلد خمريّة اللون. قادها فريد بمهارة وسرعة في الزحام حتى الساعة الجديدة، ثم اتجه عبر شارع شكري القوتّلي صوب الساعة القديمة ودار حولها متجهاً إلى الغرب

ليصل إلى الأوتوستراد الدولي. بعد خروجنا من زحام المدينة بدقائق وصلنا إلى دار المسنين في جمعية البرّ. دخلنا وقابلنا مدير الدار. قدّم له فريد سبباً يتعلق بمسألة قانونية، ولم يستوضح المدير كثيراً. قال إن النزلاء في غرفهم الآن يستعدون لطعام الغداء بعد قليل، وإن بإمكاننا مقابلة وداد عتّال في صالون استقبال الزوّار وطلب منا أن ننتظرها هناك ريثما يخبرونها بالزيارة.

جلسنا في الصالون الواسع ذي التدفئة السيئة والخالي من أي زائر. بعد دقائق جاءت امرأة عجوز تمشي متوكئةً على عكازين بمساعدة ممرضة شابة أجلستها على مقعد أمامنا وانصرفت.

كانت وداد عتّال في الثانية والسبعين من عمرها. امرأة ضئيلة الحجم ونحيلة، مصابة بروماتيزم المفاصل الذي بدأ يشوّه مفاصل يديها، وكانت تضع وشاحاً أبيض على رأسها يغطي شعرها كلّه. بدا وجهها هرِماً ومتعباً ولكنّ عينيها كانتا تشعّان بالحياة والذكاء.

قال فريد وهو يبتسم: «مرحباً ست وداد».

قالت بصوت هادئ وخافت: «قل لي يا حاجّة فقد أكرمني الله سبحانه وحججت قبل أن يتفاقم الروماتيزم».

«حاجّة وداد، هل تتذكرينني؟».

ضيّقت عينيها وتأمّلت فريد مطوّلاً ثم قالت ومن دون أن يتغيّر أي تعبير في وجهها: «أنت المحامي من عائلة العشّي، وأظن أن اسمك هو فريد».

جوابها المفاجئ والواثق رفع من منسوب الأمل في نفسي كثيراً فيما اتسعت ابتسامة فريد وهو يقول: «ما شاء الله! ذاكرتك ممتازة، صحيح، أنا المحامي فريد العشّي».

ابتسمت وداد ابتسامةً أظهرت جهاز أسنانها الصناعية المقلقل في

فمها وقالت: «الروماتيزم يؤثّر على المفاصل وليس على العقل ولله الحمد». سعلت مرتين بصوت ضعيف ثم سألت: «قالوا لي إن محامياً يريد أن يقابلني، خير إن شاء الله؟». نقلتْ نظراتها صوبي ولم تمهل فريدًا كي يجيب، بل سألته: «ومن هذا الشاب؟ أهو مساعدك؟».

«لا، هذا الدكتور عادل شكري وهو قريبي، الحقيقة جئنا لنسألك عن موضوع قديم ونتمنى أن تكوني ما زلت تذكرينه،فالأمر مهم لنا».

لم تقل شيئاً، وانتظرته كي يوضّح. تابع فريد: «أنت تتذكريني وعرفتني، هل تتذكرين كيف عرفنا بعضنا في السابق؟ على فكرة، كان ذلك منذ 22 سنة».

«أتذكّر، كما قلت لك يا بني، أنا امرأة عجوز ومريضة وأمراض الشيخوخة كلها أصابتني إلا الخرف والحمد لله، كنتَ محامياً لمريض أدخل إلى المستشفى الذي كنتُ أعمل فيه وكنتَ تتابع حالته وتسألني عنه بشكل يومي، كان في حالة سبات ومات بعد ذلك، شابٌ مثل الوردة».

«هل تتذكّرين قصة ذلك الشاب؟».

«أجل، كان في حراسة شرطي بشكل دائم حتى وهو مسبوت فقد كان متهماً بقتل صديقه».

كلما تقدّم الحديث كنت أزداد تفاؤلاً. وجدت أن حالة وداد العقلية والذهنية ممتازة بشكل فاق توقعاتي. فتدخّلت: «يا حاجّة، قال لي الأستاذ فريد إنك ذكرت له شيئاً قاله سعيد قبل أن يموت بلحظات، ذلك الشاب كان اسمه سعيدًا، قلتِ له إنه قد تكلّم».

حدّقت وداد في وجهي ثم قالت ببطء: «صحيح، كان اسمه سعيدًا». تابعت تحديقها وهي تسألني: «ما اختصاصك يا دكتور؟».

«طبيب أمراض نفسية».

تمتمتْ: «طب نفسي». وكأن معرفتها لاختصاصي قد شرح لها الكثير. وتابعتْ: «وما يهمّك من ذلك؟ أظن أنك كنتَ لا تزال صبيّاً يافعاً في ذلك الحين!».

ابتسمتُ: «صحيح، ولكني أسأل عن تلك القضية لأني أجري دراسة عن ذلك الشاب وعن صديقه أيضاً الذي اتُهم بقتله».

«كانا مريضَيْن، قالوا إن ذلك الشاب التعس كان مصاباً بالفصام ولذلك قتل صديقه، هكذا كانوا يتكلمون في المستشفى».

«ما يهمّني هو ما سمعتِ منه قبل أن يموت».

«لم يكن كلاماً بالمعنى المعتاد بل كان يهذي، نوع من هلوسة أو هذيان الحمّى رغم أنه لم يكن محموماً، قال بضع كلمات غير مترابطة ثم أسلم الروح وكنتُ الوحيدة معه في الغرفة حينها، لم أفهم شيئاً، وقلت ما سمعته للأستاذ». وأشارت إلى فريد الذي قال بخجل: «الحقيقة لا أتذكر ما قلته لي، أذكر أنك قلت لي عندما أتيت إلى المستشفى إنه تكلّم قبل أن يموت ولكن ما قاله! لا أتذكّره».

ابتسمت وداد بسعادة وبشيء من الخبث البريء: «أنت أصغر مني كثيراً يا أستاذ، أنت نسيت وتريدني أنا أن أتذكّر؟!».

قال مع ابتسامة واسعة: «مما سمعناه منك حتى الآن يبدو أن ذاكرتك أفضل من ذاكرتي، علينا أن ننقر على الخشب!».

ضحكت بسرور ثم قالت:»لا خشب ولا بلّوط! هذه هبة من الله تعالى».

بنبرة تحمل رجاءً ومناشدة قلت: «هلّا حاولت أن تتذكري ما سمعته من سعيد؟».

بدا على وجهها أنها تجهد نفسها كي تتذكّر، همهمتْ: «كانت كلماته غريبة وبلا معنى ولم أفهم سوى كلمات متقطعة، يدَيّ، قال بين يدَيّ».

ثم سكتَتْ. مرّت لحظات ثقيلة من الصمت. أحسست بأن الزمن قد استطال وامتد إلى سنوات ولكني لم أقل شيئاً فلم أكن أريد الضغط على وداد عساها تسترجع اللحظات الهاربة عبر الزمن بهدوء. تكلمتْ أخيراً ببطء: «جبغيلي... مات بين يدي... تغيستان الغدّاغ.». وأضافتْ بصوت ضعيف: «هذا ما أتذكره، لم أفهم سوى مات بين يدَي، وكررها، بين يديّ».

تمتم فريد: «لم نفهم شيئاً من معنى هذه الكلمات حينها».

تساءلتْ وداد: «ما معنى هذا يا دكتور؟».

كنت أشعر بدوخة. أحسست وكأنني أركب أفعوانية عملاقة لا تتوقف عن الدوران. سطع نور قويّ أمام عينيّ، نور باهر ومعمٍ للبصر، ويبدو أن وجهي شحب بشدة فقد سألني فريد بقلق: «عادل! ما بك؟».

قلت بصوت خافت ولكنه محمّل بنشوة الإدراك وسعادة الإشراق: «لقد أدركتُ كل شيء!».

- 55 -

«فايز قيشانجي؟ معقول؟!». كانت الدهشة في صوت فريد ووجهه لا تزال عارمة.

هززت كتفيّ وقلت: «لم لا؟ كانا يكرهان بعضهما، وفايز كان معترضاً بشدة على علاقة حامد بأخته أمل، وعندما اكتشف أنها ستتزوجه سراً ورغماً عن الجميع... قتله!».

«وكيف ستثبت ذلك؟ وكيف ستعرف التفاصيل؟ ثم هل تظن بأن فايزًا سيعترف بعد هذه السنوات؟ لا دليل ضده أصلاً بل مجرّد قرائن، وهي ليست قوية، مجرّد كلمات... إنه هذيان مريض يموت، لا تنسَ هذا».

قلت بهدوء: «أدرك ذلك كله».

«ثم هل أنت متأكد حقّاً مما تعنيه كلمات سعيد؟».

قلت بشيء من الحماسة: «متأكد تماماً، إذ إن سعيدًا كان مصاباً بلثغة قوية ويلفظ الراء غيناً، حامد كتب عن هذا وشقيقة سعيد أكّدت ذلك، عندما يقول جبغيلي فهذا يعني جبريلي، أي يقصد حامد، وتغيستان تعني تريستان والمقصود به فايز، حكيت لك عن ذلك كله، حامد كان يطلق

على فايز اسم تريستان الغدّار ولم يكن أحد يعلم بهذا سوى سعيد، وحامد ذكر ذلك في دفاتره بشكل واضح ومؤكّد، وقد فهمتُ ما قصده سعيد بجملة (مات بين يدَيّ)، أظن أن حامدًا لفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعيّ صديقه سعيد وقد أخبره قبل أن يموت باسم قاتله، فعندما أتى سعيد لزيارة حامد بناءً على طلبه وجده مصاباً يحتضر، ومن الطبيعي أن يقترب منه ويتفقّده وهذا يفسّر سبب تلطّخ ثيابه بالدم. الصورة تتوضّح أمامي، إنها أحجية، لعبة puzzle ومعظم القطع صارت في مكانها الصحيح».

«ثمّة قطع كثيرة ناقصة بعد».

قلت بشرود: «أعلم».

«وماذا ستفعل الآن؟».

لم أردّ. أشعل كل منا سيجارة... وران علينا صمتٌ ثقيل.

كنا نجلس في مكتب فريد وكان المكتب بارداً والكهرباء مقطوعة، مجرّد نور شحيح يدخل من النافذة وقد تجاوزت الساعة الثالثة بعد الظهر. كنت أشعر وكأني عدّاء ماراثون وصل إلى الكيلومتر الأخير وهو منهك للغاية ولكنه اقترب من خط النهاية وهذا ما يدفعه إلى مواصلة الركض.

قال فريد متعجباً وهو يطفئ سيجارته في المنفضة الكبيرة أمامنا والتي امتلأت بالأعقاب الصفراء: «ولكن أليس أمراً مدهشاً أن تتذكر وداد بعد هذه السنوات كلها كلمات سعيد بحرفيتها؟!».

«المدهش فعلاً أنني خلال الأيام القليلة الماضية قابلت ثلاثة أشخاص كلّهم تجاوزوا السبعين من عمرهم وثلاثتهم ما زالوا يملكون ذاكرة قويّة حتى إنهم يتذكّرون مفردات محدّدة بعينها قيلت منذ سنين بعيدة».

ساد الصمت مرة ثانية وغرقنا في أفكارنا ودخان سجائرنا.

قلت فجأةً: «أتعلم؟ بقي شخص واحد له علاقة بالأمر ولم ألتقِ به بعد».

«من؟».

«محسن زكريا، زوج أمل قيشانجي».

«وهل تظن أنك ستستفيد منه بشيء؟».

«من يدري؟ قد تكون القطع الناقصة من الأحجية عنده».

«وهل تتوقع أن يقول لك شيئاً؟ قد لا يستقبلك أصلاً، كيف ستبرّر له زيارتك وأسئلتك حول أمر مرّ عليه أكثر من عشرين عاماً؟ ثم لا تنسَ أنه ضابط شرطة متقاعد، رجل اعتاد أن يسأل لا أن يُسأل!».

«ستكون دردشة وليست استجواباً!». قلت مع ابتسامة صغيرة.

«ومتى ستزوره؟».

«حالما أحصل على عنوان منزله وأتدبّر موعداً للقائه».

سألني مازحاً مع ابتسامة: «وكيف ستفعل ذلك يا شيرلوك؟!».

ابتسمتُ: «إذا كنتُ أنا شيرلوك هولمز فأنت إذن جون واطسون! ولا أعتقد أنك ستحب ذلك!». ضحكنا معاً، ثم تابعتُ: «سأحاول عبر السبيل الوحيد المتاح أمامي: أمل قيشانجي!».

– 56 –

منطقة التوزيع الإجباري تعتبر جزءاً حديثاً من حيّ الإنشاءات، وتشغل المساحة الواسعة الممتدة ما بين حيّ الإنشاءات وضاحية بابا عمرو وساقية الريّ المتفرعة من نهر العاصي وقد بُنيت فيها أبنية وفيلات حديثة الإنشاء.

في بدايتها وفي إحدى العمارات الجديدة المطلّة على ساقية الريّ عند انعطافها واتجاهها صوب بساتين الوعر غرب المدينة وقبل تقاطعها مع شارع طريق طرابلس، تقع الشّقة الكبيرة التي يقطنها العميد المتقاعد محسن زكريا مع زوجته وولديه.

إلى جانب المدخل العريض للعمارة الحديثة ثمّة محرس خشبي صغير يقف أمامه شرطي شاب يبدو أنه مجنّد يؤدي الخدمة الإلزامية. كانت بندقية آلية معلّقة في كتفه وهو يدخن ويحرّك قدميه طلباً للدفء في الطقس البارد. اقتربت منه وسألته: «هنا منزل سيادة العميد محسن زكريا أليس كذلك؟».

ردّ عليّ الشرطي الشاب بسؤال متوّجس: «ماذا تريد؟».

«أنا د. عادل شكري ولديّ موعد مع سيادة العميد».

اتجه الحارس نحو باب البناء المغلق وضغط زر إنترفون مثبّت إلى جانب الباب المعدني والزجاجي الكبير والأنيق، جاءه صوت شاب آخر: «ما الأمر يا زهير؟». أجابه الحارس المجنّد: «هناك شخص يقول إن سيادة العميد قد أعطاه موعداً».

«اسمه؟».

التفت الحارس نحوي فأعدت عليه اسمي. قال الحارس مقرّباً فمه من ميكروفون الإنترفون: «الدكتور عادل شكري».

«لحظة».

بعد لحظات عاد صوت الشاب عبر الإنترفون ليقول: «دعه يصعد». ثم سُمع صوت فتح الباب كهربائياً من الشقة. دخلت وصعدت الدرج الرخاميّ العريض إلى الطابق الأول. وجدت باب الشقة الخشبيّ والمزخرف بعناية مفتوحاً، وشابًا بثياب مدنية يقف عنده من الداخل. أخبرتني أمل أن زوجها يرافقه دائماً داخل البيت أحد رجال الشرطة من المجنّدين عدا الحارس في الخارج كي يخدمه عندما يكون لوحده في المنزل نهاراً.

عندما قلت لها إني أريد أن أقابل زوجها رفعت حاجبيها بدهشة: «محسن؟... لماذا؟!».

«مدام أمل، زوج حضرتك شخصٌ مهم جداً في الأمر الذي أبحث فيه».

كانت ابتسامتها تحمل شيئاً من السخرية: «وهل ستقول لسيادة العميد إن أحد إنجازاته في مكافحة الجريمة كما يفخر دوماً لا أساس له من الصحة؟! تريد أن تقول له إنه من اثنتين وعشرين سنة أخطأ واتهم شخصاً بريئاً وتسبّب في موته؟! سيأكلك بلا ملح!».

«مدام أمل...».

قاطعتني: «دكتور... لا أنصحك بذلك فزوجي رجل قاسٍ، عاش حياة عسكرية صارمة طيلة عمره ولا أحبّذ أن تتكلم معه في مواضيع كهذه».

تكلمتُ بهدوء مشدّداً على الحروف: «من الضروري أن ألتقي به، وسأتحمّل النتائج وأتمنى أن تساعديني».

«كيف؟».

«حدّدي لي موعداً معه واقنعيه بأن يقابلني، يجب أن أتكلم معه».

حدّقت فيّ طويلاً ثم سألتني بصوت خافت: «هل علمتَ شيئاً جديداً؟».

كنت مضطراً إلى عدم الإفصاح في هذا الوقت: «ليس بالضبط ولكني اقتربت من الحقيقة».

تمتمت وهي تنظر عبر النافذة وكأنها تكلم نفسها: «عندما اقترب إيكاروس كثيراً... سقط ومات!».

ابتسمتُ ابتسامةً صغيرة: «دعيني أقلق أنا حول هذا».

عادت لتحدّق في عينيّ مباشرةً: «د. عادل... زوجي يعرف كل شيء عني وعن حامد رحمه الله. وقد مرّ زمن طويل واستطعنا تجاوز الأمر ولكن...». ترددتْ لحظة ثم تابعتْ: «أتمنى أن تكون حذراً في الكلام عني، كما قلت لك زوجي رجل قاسٍ وصارم وهو رجل شرقي في الصميم، حاول أن تبقيني خارج نطاق الحديث».

«رغم أن ذلك قد يكون شبه مستحيل إلا أنني سأحاول، أعتذر ولكن حضرتك حلقة أساسية في سلسلة القصة كلها».

ابتسمتْ بحزن: «حلقة أساسية؟! في الحقيقة أنا الحلقة الأضعف، كنت وما زلت». استعاد وجهها جدّيته وصرامته خلال لحظة. وأضافت: «حسناً، أعطني رقم هاتفك وسأكلمك مساءً».

في المساء هاتفتني وقالت لي إن زوجها سيقابلني غداً في المنزل في تمام الساعة العاشرة صباحاً وأعطتني العنوان. وها أنا أجلس الآن في الصالون الواسع الذي أدخلني إليه الشرطي الشاب ذو الملابس المدنية وخرج. كان الصالون كبيراً على شكل حرف L ومؤثّثاً بطرازين من المفروشات، طقم من الطراز المسمى ستيل بخشبه الثمين والمحفور بشكل جميل والمطلي بلون ذهبيّ داكن والمنجّد بقماش مخمليّ خمريّ اللون، وطقم من الطراز الحديث الرائج قماشه مخطّط بلونين أحمر وزيتيّ. الستائر ذهبية فاتحة اللون، وفي صدر الصالون عُلّقت لوحة طبيعة صامتة كبيرة ولوحة أخرى صغيرة على الجدار الجانبي فيها رجل عجوز يمشي على طريق صاعدة صوب جبل صغير تغرب خلفه الشمس. كانت قطع عديدة من الأنتيكات موزّعة في الزوايا وعلى الطاولات الصغيرة المنتشرة بين المقاعد والأرائك، وعدة طنافس جلد ملوّنة ذكرتني وبشكل غامض بالطنافس الجلد في الفيلا القديمة. كان كل شيء فخماً وأنيقاً ويحمل لمسة ذوق راقٍ استطعت وبسهولة إحالتها إلى أمل، كانت شخصيتها واضحة في المكان، جمال وحزن بارد.

دخل الشاب وهو يدفع أمامه كرسيّاً متحركاً بعجلات يجلس عليه محسن زكريا، أوقفه مقابل المقعد الذي جلست عليه ووضع إلى جانبه طاولة من الخشب مزخرفة وصغيرة غير التي كانت إلى جانب مقعدي. خرج بعد أن قال العميد محسن بصوت خافت ولكنه واضح وصارم: «قهوة». كنت قد وقفت عند دخول العميد، صافحته وجلست، وراح واحدنا يتأمّل الآخر. محسن زكريا رجل نحيل في الخمسين من عمره ولكنه يبدو أكبر من ذلك بكثير، ورغم أن ساقيه المشلولتين كان يغطيهما دثار صوف سميك بلون زيتونيّ غامق إلا أنهما بدتا طويلتين، من الواضح أنه رجل طويل القامة. وجهه بالغ النحول وشديد السمرة كجلد مدبوغ، شعره أشيب بلون الرماد يقصّه قصيراً جداً، وله شارب

رفيع يغلب عليه اللون الأسود، كان حليق الذقن وعظام وجنتيه بارزة، عيناه كهفيتان غائرتان بلون أسود فاحم والنظرة فيهما قاسية ومقتحمة! عينا رجل لا يخاف، قاسٍ وشجاع ومعتاد على إعطاء الأوامر.

وضع يديه السمراوين النحيلتين بأصابعهما الطويلة في حِجره وتكلم بصوت عميق وهو ينظر في عينيّ مباشرةً: «أهلاً وسهلاً يا دكتور، زوجتي قالت لي إنك تريد مقابلتي لأمر مهم».

تنحنحت وقلت: «أشكرك يا سيادة العميد على إعطائي بعضاً من وقتك».

لمحت ظلّ ابتسامة تحمل بعض المرارة على وجه العميد.

قال: «أملك الكثير من الوقت، تفضّل، ما الأمر؟».

«ألم تخبرك مدام أمل؟».

«ليس بالضبط، قالت إنك طبيب نفسي وتجري دراسة جامعية وتريد أن تسألني عن مجنون سبق وأن اعتقلته منذ زمن طويل».

«تستطيع أن تقول إن الأمر كذلك ولو أنني أفضّل أن نقول عنه إنه كان مريضاً وليس مجنوناً!».

ابتسم محسن زكريا ابتسامة واضحة هذه المرة ولكنها كانت ساخرة وقال: «من الغريب أن تعود إلى سنوات طويلة مضت، فالدنيا مليئة بالمجانين الذين يعيشون بيننا، لماذا ذلك المريض بالذات وقد صارت عظامه مكاحل؟! على أيّ حال... ما اسمه؟».

قلت بصوت واضح وهادئ: «في الحقيقة هما شخصان، كانا طرفي جريمة كنتَ أنت المسؤول عن التحقيق فيها».

قال محسن بشفتين مزمومتين وقد بدا بعض التوجّس في صوته: «من هما؟».

«حامد ابراهيم وسعيد زنزن».

تجمّد وجه محسن، صار كتلة من العظام والجلد الأسمر المشدود. تابعت: «أودّ أن أسألك عن واحد منهما بالذات أولاً، حامد ابراهيم».

قبل أن يقول محسن أيّ شيء دخل الشاب يحمل صينية فضيّة عليها فنجانان من القهوة وكأس ماء. وضع فنجاناً على كل طاولة بجانب كل واحد منا ووضع كأس الماء إلى جانبي وخرج بصمت. رشف محسن من فنجانه ثم مدّ يده إلى حجره وأخرج من بين طيّات دثار الصوف علبة تبغ «ونستون» وقداحة ذهبية فاخرة. ضيّفني سيجارة فاعتذرت مفضّلاً تدخين تبغي الخاص. أشعل كل واحد منا سيجارته. وجدت أنه من الغريب أن محسن أعاد علبة التبغ والقداحة إلى حجره ولم يضعهما على الطاولة. قال محسن بصوت هادئ: «وأنت؟ كيف تعثّرت بهذين المجنونين؟ من الجيد أنهما لم يعيشا طويلاً فالعالم لا ينقصه المجانين!».

تجاوزت إصرار محسن على استخدام صفة الجنون في كلامه وسألته: «لم تخبرك مدام أمل بالتفاصيل إذًا؟».

قال بشيء من الحدّة والعصبية: «دعنا مما قالت وقلت، تكلم أنت!».

«حسناً، اشتريت منذ بضعة أشهر بيتاً قديماً رمّمته وسكنت فيه واكتشفت فيه بالصدفة مجموعة من دفاتر اليوميات كتبها ساكنه القديم والذي كان حامد ابراهيم!».

أصبح وجه محسن قناعاً من صخر. قال بصوت خافت: «أنت تسكن حالياً في بيت حامد ابراهيم؟ ووجدت شيئاً كتبه هو؟».

استعادت عينا محسن سطوتهما وعاد صوته قوياً وحازماً: «وماذا يعنيني من ذلك؟».

تنفست نفساً عميقاً وبدأت بالكلام:

«القصة الرسمية تقول إن سعيدًا قتل صديقه حامد ثم انتحر عندما

جئتم لتلقوا القبض عليه. انتصرت العدالة وأُغلقت القضية! حسناً، من وجهة نظري هذا لم يحدث وهذه ليست الحقيقة!». توقفت عن الكلام لهنيهة، استنشقت نفساً عميقاً آخر ثم قلت العبارات التي كنت أفكر فيها منذ الصباح الباكر: «لقد استطعتُ الوصول إلى الحقيقة! القاتل الحقيقي هو فايز قيشانجي، شقيق زوجة حضرتكم، وأظن أنك تعلم هذا! وأنك عرفتَ ذلك من البداية!».

ران صمت عميق، بدا محسن زكريا كتمثال من شمع داكن، حتى عينيه لم تكونا ترمشان، كانتا حائرتين. بعد لحظات متطاولة مدّ يده ببطء وأطفأ سيجارته في المنفضة بجانبه ثم أشعل واحدة جديدة على الفور ومجّ منها نفساً عميقاً استنشقه وأخرجه ببطء من فمه ومنخريه معاً، فلفّه الدخان الرماديّ الأزرق. أدركتُ أن ذاكرته تعمل بسرعة، بسرعة هائلة فيغيب عمَّ حوله. شعرتُ بأن الزمن قد توقف، بدا الرجل خارج الزمان والمكان.

قال أخيراً بصوت ما زال واثقاً: «يبدو أنك مجنون مثل من تعمل معهم! وماذا تريد الآن؟».

ما زلت هادئاً ومتماسكاً فقلت: «أريد كشف الحقيقة وإحقاق العدل».

اشتعل الغضب في عينَيْ محسن، كانتا كبركان ينفث ناراً سوداء. قال من بين أسنانه: «هل تعلم أن بإمكاني أن أخفيك عن وجه الأرض؟!».

احتجت إلى كل ما أملكه من ثبات كي أقول بصوت واثق: «لا... لا تستطيع!».

قال ببعض الاستهزاء: «وماذا تستطيع أن تفعل؟».

ساد صمت ثقيل لدرجة أن التنفس صار مجهداً. تبادلنا التحديق ثم قلت بهدوء: «يوجد أجهزة أمنية وقضائية في البلد وهي من ستفعل».

«بعد أكثر من عشرين سنة؟! أشك بهذا، قانونياً ليست القضية قابلة لأن تُفتح من جديد أصلاً».

«أنت مخطئ». كانت لهجتي باترة وقاسية.

زمّ محسن عينيه وهمس من بين شفتيه شبه المطبقتين: «أحذرك!».

قلت بهدوء: «ولماذا تحذرني إذا ما كنتُ مخطئاً؟!».

كانت لهجته القاسية مشوبة بشيء من السخرية: «لأنه لا يصلح مع المجانين سوى التهديد، بدأت أعتقد جدياً بأنك مثل من تعمل معهم... مجنون!».

ما زلت محافظاً على هدوئي. وقلت: «هذا الأسلوب لن ينفع معي، أنا أعلم تماماً ما أتحدث عنه وعندي أدّلة».

مرت لحظة من الصمت العميق، ثم قال محسن بهدوء وثقة: «لو كان ما تقوله صحيحاً ما كنتَ لتتجشّم عناء الحديث معي، ما كنتَ لتأتي إليّ أصلاً!».

«أتيت كي أقابلك لسبب واحد، أردت أن أعرف لماذا فعلت ذلك؟».

ارتفع صوت محسن بما يشبه الصراخ: «لم أفعل شيئاً!». ثم عاد صوته ليصبح خافتاً ولكن قاسياً: «اسمع يا دكتور... أمضيت حياتي مدافعاً عن الوطن والحق والعدالة والمظلومين، أتظن بأنني قد أفعل شيئاً عكس هذا؟! عكس مبادئي كلها؟!».

قلت بسرعة: «تماماً... أنت لم تفعل شيئاً، بل تركت الأمور تتجه صوب اتجاه مغاير تماماً للحقيقة، أنت لم تفعل، ولكنك تستّرت على فايز، وكنت مستفيداً من ذلك، والدليل زواجك من السيدة أمل بعد وقت قصير من رفض عائلتها لك أول مرة تقدمت لخطبتها».

«أيها الأحمق! أمل صارت زوجتي لأن ذلك المجنون خرج من الصورة، لقد كنتُ الفرصة الأمثل لها ولعائلتها حينها».

«ذلك المسكين، وليس المجنون، خرج من الصورة بسبب فايز، الذي أخرجه من الصورة نهائياً عندما قتله، وأنت تستّرت على فايز. كان نوعاً من ردّ الجميل المتبادل، ولكنه ردٌّ غالي الثمن».

قال بغضب: «اخرس... لا أحد له جميل عليّ، أنا من صنعت نفسي، كانت طريقاً طويلة وصعبة. أنا مَنْ صنعت حياتي ومستقبلي بيدي، لا فضل لأحد عليّ، خصوصاً ذلك التافه... فايز!».

قال الكلمة الأخيرة بقرف.

تابعتُ الضغط: «ذلك التافه فايز هو من قتل حامد، وكنت تعلم هذا، علمته وقبلته منذ البداية».

صرخ: «لم أقبله... ما زلتُ حتى الآن...».

توقف عن الكلام فجأةً. ساد صمت قاطع وحاد كشفرة بلطة مرفوعة في هواء شتاء جليدي، توقف كل شيء، حتى حسبت أن قلبينا توقفا عن النبض، كنا نحدق في بعضنا ساكنين كلقطة سينمائية في فيلم وقد ضُغط زرّ إيقاف الصورة.

تنفست الصعداء أخيراً بصوت مسموع وقلت بهدوء: «لقد علمت ما جئت من أجله، لا تهمني التفاصيل ولا كيف تعاملت مع فايز وعائلته بعدها... تهمني الحقيقة فقط!».

زمجر في وجهي: «اخرج من بيتي!». نهضت وأنا أقول: «أعتذر منك سيد محسن ولكن... الحقّ لا يموت!».

قلت ذلك وغادرت المنزل الذي عمّه الصمت.

– 57 –

أمضينا الأمسية بأكملها ونحن نتناقش. كنا نجلس في مكتب فريد لوحدنا مع القهوة والسجائر ونسمات الهواء الباردة التي تتسلّل من شقوق النوافذ لتذكّرنا بالطقس العاصف في الخارج، والذي كان يبدو أنه يرحّب بقدوم شهر شباط ذي الأهواء المتقلّبة في اليوم التالي. امتدّت نقاشاتنا حتى العاشرة ليلاً. تكلمنا بكل شيء واستعرضنا الاحتمالات كلها وهي قليلة على أيّ حال. قال فريد أخيراً بعد فترة صمت طويلة احتشدت بالتفكير ولم يكن يعكّرها سوى صوت هبّات الرياح بين الحين والآخر:

«عادل، هل أنت متأكد مما تريد فعله؟».

«متأكّد».

تنهّد فريد وقال: «حسناً، سأكلمك هاتفياً نحو التاسعة صباحاً بعد أن أحدّد الموعد مع النائب العام».

ثم نظر إليّ مطوّلاً وسألني: «ما الذي يدفعك إلى هذا؟ لماذا هذا العناء كله؟!».

كنت أحدّق في عينيه عبر سحائب دخان السجائر التي لم تكد

تنطفئ طيلة الجلسة، ثم قلت: «في النهاية لا يصحّ إلا الصحيح، أو من المفروض أن يكون الأمر هكذا على الأقل... ومن المفروض أيضاً أن يدفع المخطئ ثمن ما ارتكبه».

ساد الصمت. ثم حدّثني فريد عن دفع الأثمان، وقال إنه قد يكون دفع الثمن أكثر كلفة، وقد يكون هناك ما يبرّر التغاضي وقد يكون علينا إيجاد تبرير للخطأ. أناسٌ يضحّون وأناسٌ يجنون المنافع، أليست هذه قصة الدنيا منذ بدايتها حتى الآن؟

وعندما طلب فريد أن نناقش الخيارات ابتسمت بحزن. أيّ خيارات يابن العم العزيز؟ وهل أملك ترف وجود خيارات؟ هل تقول إن المنطق القانوني البارد يمكن أن يصمد أمام المنطق الإنساني القاسي؟ كان فريد يحاول أن يمثّل الرأي العقلاني المتجرّد من أي شيء آخر. لا يمكن ذلك يا فريد، يابن العم الطيب، لا يمكن ذلك، الإنسان ليس مكوّناً فقط من مادة واحدة، نحن لسنا خلايا غبية متراصفة بعضها إلى جانب بعض فقط.

كنت شبه غائب عندما صحوت على قوله:

«العميد محسن زكريا وبحسب ما علمته عنه، ومن أكثر من مصدر، رجلٌ محترم وذو تاريخ مشرّف، وربما كان تستّره على فايز في تلك الواقعة القديمة النقطة السوداء الوحيدة في حياته! أمن العدل تدمير كل شيء في حياته، الغارقة في التعاسة حالياً، من أجل غلطة واحدة قديمة ارتكبها بسبب حبّه المتّقد واليائس لامرأة لم تبادله الحب؟ هل يحقّ لك أو لأيّ أحد آخر محاسبة غيره من الناس وبقسوة؟ هل يحق للناس أصلاً محاسبة بعضهم البعض؟».

كنت أكلمه ولا أنظر إليه، بل كأنني أكلم نفسي:

«لا يصحّ إلا الصحيح ولا بدّ مما ليس منه بدّ، ألا يقولون ذلك دائماً؟ ولكن، هل هذا صحيح في نهاية المطاف؟ هل يحدث ذلك دائماً؟ هل

تخبرنا سيرورة التاريخ بهذا؟ التاريخ! هل أتعب الفلاسفة أدمغتهم عبر التاريخ بلا طائل؟ لا يعْقُل هذا، لا يجدر به أن يكون صحيحاً. الحق، الخير، الجمال. المفقودات المطمورة تحت رمال النسيان، تحت أكوام القذارة البشرية، تحت أحطّ الدناءات وأخسّ الأحاسيس. كم نحن بلهاء كي نظن أننا نستطيع إمساك قرني الثور الهائج وجعله يهدأ لمجرد أننا نريد ذلك. بماذا سنتمكّن من فعل ذلك؟ بالكلمات؟ بالأفكار؟ بالمشاعر؟ بالشعر؟ بالموسيقا؟ بالألوان؟ الحديد والنار والدم هي ما ترسم الخرائط وتشقّ الطرق وترفع المباني وتحقّق الأقدار، الأقدار المرسومة منذ الأزل، لا تنسَ هذا، ولا تنسَ أيضاً أن لا مصادفات، دعنا نؤسّس على هذا، علينا أن نقبل هذا، وقد يكون ذلك بعضًا من الحقائق الضائعة».

قال فريد بصوتٍ بدا متعَباً:

«أنا أدعوك أن تنظر إلى الحياة التي ما زالت مفتوحة أمامك وأن تبدأ من جديد! لقد أتعبت نفسك كثيراً يابن العم».

« قد تكون على حق! عليّ أن أبدأ من جديد!! لا شيء حقّاً ينتهي إلا بالموت، وأنا ما زلت أتنفس وأفكر وأشعر. البدايات الصعبة والمتكررة موجودة، موجودة حقاً. ليس بميسوري أن أتخلّى عمَّ هو قادم فأنا لا أملك هذا الترف، ربما لا يجدر بأحد أن يملك هذا الترف المرّ مرارة مضي الساعات الطويلة في الليالي الباردة».

غادرنا المكتب وخرجنا إلى الشارع، كانت تمطر بغزارة. ركب كلٌّ منا سيارته وانطلق. دخلت منزلي البارد وتوجّهت إلى غرفة المكتبة مباشرةً، وأشعلت المدفأة الكهربائية ووضعت الكاسيت الأول من أوبرا تريستان وإيزوولد في جهاز التسجيل، وشغّلته بصوت منخفض ثم استرخيت على الأريكة. أشعلت سيجارة وأخذت أسترجع كل شيء في ذهني، على وقع الموسيقا.

فكرت بقولي للعميد محسن إن الحق لا يموت. لكن هل هذا صحيح دائماً؟ هل بإمكاننا أن نسأل التاريخ عن هذا؟ أم إن هذه الجملة الأخلاقية مراوِغة بعض الشيء؟ الحياة مراوِغة، ومَن الذي جعلني وصياً على هذا الحق؟ وأيّ حق هو هذا أصلاً؟ لماذا حملت ذلك كله على عاتقي في المقام الأول؟ ما أكثر الأسئلة وما أقل الإجابات! لقد درست وتعلّمت طيلة عمري كي أقدّم إجابات. تعبت من أجل هذا، تدرّبت من أجل هذا، هل أفلحت حقاً؟ ليس أنا فقط بل مَنْ كانوا مثلي كلهم منذ آلاف السنين وحتى الآن وربما إلى آلاف السنين القادمة. من يدري إذا كانوا قد أفلحوا حقّاً أم لا؟ يحتاج الأمر إلى سنوات حتى يستطيع المرء أن يصوغ السؤال فقط وليس الإجابة! الإجابات شأنٌ آخر.

حضرني ما كتبه حامد في دفاتره نقلاً عن فيلسوفه المفضّل شوبنهاور الذي حاول التماهي معه بكل شيء إلا في شيء واحد فقط، هو عشق امرأة والمحاولة المستميتة للزواج منها. (إن زيادة المعرفة عند الإنسان تؤدي بالنتيجة إلى زيادة آلامه). هكذا قال فيلسوف التفكيك الكبير. قلّبت هذه العبارة القاسية في ذهني وخطر ببالي أن كثيراً ممن أوتوا قبساً من حكمة ونوراً من معرفة فكروا هكذا وقالوا ما يشبهه. ألم يقل المتنبي:

ذو العقلِ يَشقى في النعيمِ بعقْلِهِ وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ ينعمُ

ألم يكتب أنطوان تشيخوف (كلما زادت معرفة المرء وثقافته ازداد بؤسه وشقاؤه).؟ تساءلتُ بحزن، هل نحن محكومون دائماً بهذه الحكمة المؤلمة؟ بهذه المعرفة المولّدة للآلام والأوجاع؟ أهذا هو الأساس الذي بُني عليه وجودنا كله؟ وأين الإرادة من ذلك إذًا؟ تلك الإرادة التي اعتبرها شوبنهاور كل شيء، واعتبر أن العقل بجبروته كله ما هو إلا خادم لها. العقل خادم للإرادة، الذاكرة خادم للإرادة، شخصية الإنسان تكمن في الإرادة. لقد فكّك شوبنهاور كل شيء من المثل العليا والآلهة إلى كل شيء آخر وموضعه في الإرادة واعتبرها هي العالم

بأكمله. تشرّب حامد كل ذلك وعاشه ولكنه لم يفده بشيء، لم تنتصر إرادته بل انتصر كل شيء عليه.

عدت فتمليت في تلك المقولة الشوبنهاورية المميّزة والتي كتبها حامد معجَباً بها في دفاتره. (الذاكرة خادمة الإرادة). كما أن شوبنهاور كان يعتبر أن الحياة ما هي إلا رقّاص ساعة يتأرجح بين الألم والملل. فكرت بأن الحياة تقوم على الذاكرة، الذاكرة الفردية والذاكرة الجمعية على حدّ سواء، فإذا كانت الذاكرة بكونها جوهر الحياة مكوّنة من ملل وألم لا غير فهل بإمكاننا أن نقول إن تاريخنا كله كبشر قد ضاع سدًى؟!

وجدت أن من المدهش كيف استطاع حامد أن يوائم بين قناعاته الفلسفية والتي تركزت بمعظمها على فلسفات كانط وشوبنهاور ونيتشه وبين إيمانه بالله. كان صريحاً في ما كتب حول هذا فهو لم يكن ملحداً ولا حتى متشكّكاً، فكيف استطاع المزاوجة بين هذين الخطين اللذين يبدوان متوازيين دائماً؟ هل كان ذلك جزءاً من تركيبته النفسية الخاصة التي جعلت منه ما كان عليه؟ أم كان جزءاً من تركيبة المجتمع الذي أفرزه ولفظه إلى هذه الدنيا؟ ذلك الطفل المنبوذ الذي أحب الفلسفة الغربية وعاف الفلسفة الشرقية، والذي أحب الموسيقا الكلاسيكية وعاش فيها عشقاً وكرهاً وإعجاباً وخيبةً. أحبَّ باخ وبجّله لأنه أخلاقيّ بحسب رأيه، وأحبَّ فاغنر وحقّره في الوقت ذاته لأنه غير أخلاقيّ، وكذلك بحسب رأيه الشخصي البحت. أيّ أمواج حملت هذا الشاب التعس وعلى أيّ شاطئ مهجور رمته؟ وأيّ إرادة، إذا ما كان العالم فعلاً كله إرادة ولا شيء سوى ذلك، جعلت الرؤى تقارب بيننا عبر السنوات المتباعدة؟ تلك الشمعدانات البرونزيّة الثقيلة الملوّثة بالدم، وذلك الضباب الذي حمل الحقائق المراوِغة سنوات وسنوات ليستقر أخيراً، وربما ليس آخراً، في ثنايا الحياة التي ظننتُ وبغرور مخدّر أنني امتلكت ناصيتها في يوم من الأيام.

الإرادات، اللامصادفات، الحقائق المراوِغة، الآلهة المختَرَعة، الأكاذيب المقلوبة، النفوس المريضة، الأرواح المعذّبة، التاريخ كسيرورةٍ محتومة تنتهي من حيث بدأت، الزمن كدائرة مغلقة، هل ذلك كله بلا معنى؟!

عدت وفكرت بمحسن زكريا وزوجته أمل قيشانجي. عبر وجهي ظلّ ابتسامة حزينة عندما تذكرت أمل، تلك التي وصفت نفسها بأنها الحلقة الأضعف، تلك المرأة الحلم التي عاشت كابوس الحياة، ماذا سيحلّ بها؟ كيف ستمضي بقية حياتها إذا ما علمتْ بالحقيقة؟ هل يحقّ لي أن أدمّر ما تبقّى من حياتها الحزينة؟ هل سأكون الكابوس الجديد والأقسى في حياتها التعِسة؟ هل أجرؤ على أن أكون القاضي الصارم الذي سينطق حكم الإعدام بحقها من دون تردّد أو خوف؟ هل أملك الجرأة والقسوة الكافيتين لأبعثر السكينة القليلة المتبقّية في حياة أشخاص كثيرين لا أعلم عنهم شيئاً سوى ما علمته خلال خمسة وعشرين يوماً؟ فوزي قيشانجي وزوجته وأمل قيشانجي وزوجها وولداها وحتى فايز قيشانجي وزوجته وأولاده، هل أملك أن أكون يد القدر التي ستقلب حياتهم رأساً على عقب في محاولة لإنصاف شخصين مظلومين ماتا منذ اثنتين وعشرين سنة؟

حامد ابراهيم وسعيد زنزن يستحقان الإنصاف ولكن بأي ثمن سيكون ذلك؟ بتدمير حياة ثلاث عائلات على الأقل؟ هل سيكون ذلك إنصافاً حقّاً؟ يبدو أن العدالة المطلقة سمة إلهية فقط. إن ما يجعل الحياة تستمر هو المسامحة والغفران والنسيان، وليس الإنصاف والعدالة والانتقام.

همستُ لنفسي وأنا أشعل سيجارة جديدة: «هل من الجائز أن يحاول أيُّ إنسان أن يلعب دور الله؟!».

ولكن، لماذا وجدتُ نفسي في هذا الموضع؟ لماذا تقاطعتْ حياتي مع هذه الحيوات البائسة؟ لأكون شاهداً فقط؟ شاهداً صامتاً وحزيناً وعاجزاً؟

توقفت الموسيقا بعد أن وصل الكاسيت إلى آخره. أطفأتُ السيجارة التي كان عقبها بين أصابعي. شعرت بإرهاق وأنا أسترخي على الأريكة وكأن جسدي وسادة مهملة مرمية كيفما اتفق، وسادة مهملة ولكن نظيفة ومعطّرة. ساد صمت بارد ومريح وحسبت أني أشمّ رائحة زكية غريبة لا أدري من أين أتت. وجدت نفسي أهمس: «لا يوجد معنى واحد في هذا الكون اللامتناهي، ولا توجد حقيقة واحدة! ومع أني أؤمن بأن الإرادة الإلهية الواحدة هي التي سيّرت وتسيّر وسوف تسيّر كل شيء من مبدأه إلى منتهاه، إلّا أن كل الأسئلة التي طرحها البشر وخاصة الفلاسفة والعلماء حول سير هذا الكون قد تكون لها مشروعيتها».

في نحو الثامنة والنصف صباحاً اتصلت هاتفياً بمكتب فريد. كان صوته متعباً بعض الشيء: «آلو... نعم، مَنْ معي؟».

قلت مباشرةً: «فريد... هل حدّدتَ الموعد مع المحامي العام؟».

«أهذا أنت؟ لا، ليس بعد كنت سأتصل بمكتبه عند التاسعة».

«لا تفعل! لقد غيّرت رأيي وسأفعل كما نصحتني، سأنسى كل شيء!».

مرت لحظة صمت ثقيلة. قال فريد أخيراً بصوت بدا من الجليّ أنه يحمل ارتياحاً واضحاً: «قرار صائب، ولكن ما الذي حملك على ذلك؟ ليلة البارحة كنتَ متأكداً من عكس ذلك؟!».

أجبته بهدوء: «لا يجدر بإنسان أن يحاول لعبَ دور الله».

مرت لحظات صمت ثقيلة قبل أن يقول فريد أخيراً: «معك حق، متى سأراك؟».

«قريباً».

أغلقت السماعة وارتديت معطفي وخرجت من المنزل. مشيت على مهل. السماء رصاصيّة قاتمة والجو مكفهرّ ومعتم، وثمّة ريح باردة تعبث بالأشياء كلها. مشيت ببطء وعلى غير هدى، وعلى عادة شهر شباط أشرقت الشمس فجأة، خفّت الريح وبدأت الشمس ترسل بعض الدفء، شمس شباط اللعوب. هل أستطيع البدء من جديد؟ فكرت بأنه يجب أن يكون هذا حقٌ لكل إنسان، حق البدء من جديد دائماً، ابتسامة منى اللطيفة التي عبرت خيالي فجأةً قالت لي هذا، الشمس المشرقة التي تمنح النور والحياة قالت لي هذا، العدالة التي تلعب معنا لعبة الحق والباطل قالت لي هذا. كان الهدوء يتسلّل إلى نفسي على مهل، إلى كل شيء فيّ، إلى أصغر ذرّة في جسدي، كماءٍ عذبٍ بارد يتسلّل بحبّ وكرم إلى شقوق أرضٍ عطشى منذ زمن طويل.

عدت أدراجي على مهل، إلى منزلي وعيادتي وعملي وحياتي.

أملك هِبةً عظيمة، وهي الحياة، وعليّ الاهتمام بها... هذا فقط ما كان يدور في ذهني الآن.

- انتـــهـــت -

عبد الخالِق كَلاليب

صدى الأرواح

تصميم الغلاف: محمد طاهر

في أجواء يشكل فيها كل من علم النفس والفلسفة خلفية للعالم الذي تدور فيه أحداث هذه الرواية، وفي سياق البحث في جريمة قتل، يقدّم لنا المؤلف صورة مركبة عن مجموعة من الشخصيات يجمع بينها الحزن والفقد وجروح النفس والحب.. وعن مجتمع يضع كل الانعكاسات النفسية التي يمرّبها الفرد بسبب الآثار الناتجة عن حياة غير مستقرة، في دائرة الجنون..

يكتب حامد، المريض النفسي، في دفاتره الصغيرة مايسميه "تدوينات"، ليعبّر عن رأيه في الحياة والموسيقا والفلسفة.. وليحكي لنا حكاية الحب الذي هو محور حياته..

لكنه يدفع حياته ثمناً لذلك الحب الذي يتمرّد على المقاييس الاجتماعية التي يتمسّك بها المجتمع... وتُنسى تلك الحياة لسنوات طويلة إلى أن يعثر طبيب نفسي على هذه الدفاتر وتجذبه حكاية حامد، فيبدأ البحث عن الأسباب الحقيقية لمقتل ذلك المريض الغريب وهو في ريعان شبابه.

***

«هل كان حامد مريضاً حقاً؟ هل كان مصاباً بالفصام حقاً، أم بمرض آخر؟ هل قتله سعيد حقاً؟ الإجابات بالنفي الحائر والمتردد تملأ عقلي..

تساءلتُ من هو الشخص الطبيعي؟ ما المقياس الذي يتوجب اتباعه؟ هل نستطيع أن نصنّف البشر على مقياس وضعه بشر آخرون؟..»

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - القاهرة - تونس